تراث

torathehc

تراثية ثقافية منوعة تصدر عن هيئة أبوظبي للتراث العدد 293 مارس 2024

تأملات في مستقبل التراث الرمضاني

لعبة اللغة والدلالة
في قصيدة النثر الإماراتية

رمضان في الإمارات..
عادات تراثية راسخة تعكس الهوية الوطنية

مواطن الإبل
والتساؤلات حول أصلها العربي

«10 فبراير» دخول موسم العقارب
وهو من المواسم التي تتيمن بها العرب

لوحات بطقوس رمضانية

الشاعر محمد بن صنقور (1920 - 2020)
أحد رواد الشعر في دولة الإمارات

سلمى حمد المري:
تتسم أعمالي بالوجدانيات وغورها في أعماقي

الصحراء جمالياتها ومكانتها عند شعراء الإمارات

تأملات في مستقبل التراث الرمضاني

يعتبر التراث الرمضاني جزءاً أساسياً من الهوية الثقافية والدينية للعديد من المجتمعات. ورغم أهميته الكبيرة، فإن هذا التراث يواجه تحديات وفرصاً في تمرير تقاليده في وجه التغيرات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والثقافية خاصة في ظل التقدم التكنولوجي والانفتاح على الآخر، حيث يمكن للتحولات والتغيّرات في الأدوار الاجتماعية داخل هياكل الأسر أن تلعب دوراً في تأثير كيفية احتفال الأفراد بشهر رمضان، أو قد يؤدي التغيّر في أنماط العمل إلى انعدام الوقت الكافي للمشاركة في الأنشطة الدينية والاجتماعية التقليدية. وربما كذلك يبرز التواصل الرقمي كعامل مسبب في تشتت الأسر وتغيير أساليب تبادل المعلومات والتجارب خلال الشهر الفضيل، أو قد يكون الانفتاح على ثقافات أخرى فرصة لتبادل التجارب وتعزيز التفاهم، ولكن في الوقت نفسه له تأثير في الحفاظ على الخصوصية والتمسك بالتقاليد الخاصة للمجتمع. ومع مرور الوقت وتقدم العمر، يتزايد الوعي بأهمية تلك التفاصيل العميقة التي كانت جزءاً من تربيتنا، والتي نرتبط بها روحياً وبعمق من خلال العادات والتقاليد الدينية في هذا الشهر الفضيل. ومع هذا التطور، يزداد قلقنا من فقدان العديد من هذه التفاصيل الثرية في ظل التحولات العالمية والانفتاح على ثقافات وهويات متنوعة. فنشعر بضرورة الحفاظ على جذور هويتنا الفريدة في مواجهة تأثير العولمة وتداخل الثقافات. ومن أجل هذا السبب، ونظراً لاعتبار التراث الرمضاني ممارسة دينية واجتماعية تمتد جذورها في التاريخ الإنساني؛ قررت اليونسكو في ديسمبر 2023 إدراج «التقاليد الاجتماعية والثقافية» المرتبطة بالإفطار الرمضاني إلى قائمتها للتراث الثقافي غير المادي، نزولاً عند طلب تقدمت به بعض الدول الإسلامية وهي: أذربيجان وأوزبكستان وتركيا وإيران، ما يعكس التزام هذه الدول بالحفاظ على نقل التقاليد الاجتماعية والثقافية المتعلقة بشهر رمضان إلى الأجيال المتعاقبة. وتصبح هذه الخطوة جزءاً من جهود اليونسكو في الحفاظ على التراث الثقافي وتعزيز التفاهم العابر للثقافات. وأوضحت اليونسكو أن «الإفطار وجبة يتناولها المسلمون عند غروب الشمس خلال شهر رمضان، بعد إتمام سائر الطقوس الدينية والاحتفالية»، وأضافت: «غالباً ما يتجمع المسلمون حول مائدة الإفطار لتناولها بروح الجماعة، الأمر الذي يوطد أواصر الصلة بين أفراد الأسرة والمجتمع كله ويعزز الأعمال الخيرية والتضامن وطرق التبادل الاجتماعي».

ومن منطلق تسليط الضوء على مستقبل التراث الرمضاني لا سيما في مجتمع الإمارات والمجتمعات العربية والإسلامية عموماً وإدراك أهمية العثور على توازن بين الحفاظ على التقاليد والعادات الرمضانية لأي مجتمع وتكييفها مع التغيرات الحديثة لضمان استمراريتها ونقلها إلى الأجيال القادمة، جاء اختيارنا ليكون ملفاً لعدد «مجلة تراث» لهذا الشهر، والأمل يحدونا بأن تستمتعوا بموضوعات العدد المتنوعة.

شمسة الظاهري
رئيسة التحرير

هيئة أبوظبي للتراث
Abu Dhabi Heritage Authority

السلسلة التراثية الثقافية

torathehc www.torath.ae

77

ارتياد الآفاق

أسفار في أعماق إفريقيا 1795 -1797م

رواية لمغامرة ورحلة بريطانية لاستكشاف الدواخل الأفريقية، قام فيها الرحالة الأسكتلندي «مونغو بارك» بتلك المهمة الصعبة، عوضاً عن الرحالة «هوغتون» الذي ضاع في دواخل أفريقيا ولم يُعرف عنه شيء، كان لدى بريطانيا رغبة ملحة في سبر أغوار الدواخل الأفريقية وما تحويه من كنوز وثروات، متأثرة بأسطورة تيمبوكتو مدينة الذهب، التي كان قد أشعلت الأطماع الأوروبية. وكان الهدف الآخر من الرحلة الخطرة استكشاف نهر غامبيا، وقد نجح «مونغو بارك» في الوصول إليه في 21 يونيو 1795م ... محمد عبد العزيز السقا

88

دراسات إماراتية

الصحراء.. جمالياتها ومكانتها عند شعراء الإمارات

إن العلاقة المتجذرة بين أبناء الإمارات والصحراء كان لها انعكاس كبير في شعر شعرائها؛ ولهذا نجد لها حضوراً طاغياً في قصائدهم التي جاءت تعبيراً عن إحساسهم الكبير بمدى الانتماء والولاء لهذه الأرض الطيبة التي شكّلت شريان حياتهم، وعاشت في كيانهم، خصوصاً قبل الطفرة النفطية، وباتت تشكّل ذاكرتهم الجمعية، فراحوا يبدعون في وصفها والتغني برمالها ونخيلها وإبلها وواحاتها، ويُظهرون كل معاني الولاء والوفاء لهذه الأم الطيبة التي كانت الملاذ والمأمن والحضن الدافئ ... قتيبة أحمد المقطرن

52

72

94

106

110

92

سرد الذاكرة

يونس البحري.. آخر ومضات نجم أفل

كان يونس البحري، يعرف أن زمانه مضى، وأنه لم يعد إلا ذكرى، ولذلك لم يحاول أن يقدم برنامجاً أو يذيع نشرة، أو حتى أن يسرد تاريخ حياته وفصول مسيرته الإعلامية. كان يكتفي بالحضور إلى الإذاعة يومياً والاستماع إلى بعض المذيعين الجدد، ويقدم تقريره عن مدى إجادتهم أو تعثرهم، ويمضي بعد ذلك إلى بيته بكل هدوء ودون مشاكل. سمحت لي الظروف أن أعرف إمكانات الرجل الرهيبة؛ فهو يملك ناصية اللغة العربية، بل اللغة الألمانية والإنجليزية وقد سمعته يقلد بعض زعماء العالم في أثناء الحرب العالمية الثانية، مثل: هتلر، وتشرشل، وروزفلت، وموسوليني وغيرهم ... خليل عيلبوني

104

تراث النغم

تعلم الموسيقى العربيّة باللغة العربية

نقل العرب عن اليونان العلم الأوّل، وأكملوا من حيث انتهى الأوّلون. أمّا العلم الثاني، فلم يجد العرب عند اليونان ما يلائم مزاجهم إلّا أقلّ القليل، فنقلوا عنهم نظريّاتهم عن الألحان الثمانية، وعن الأوزان، لكنّهم أدركوا استحالة تطبيق أغلب هذه النظريّات على المزاج العربيّ/ لساناً وبيئةً. باستفاضةٍ موجزة: طوّر علماء الحضارة الإسلاميّة/ في علم الموسيقي/ قياسات النسب التأليفيّة والتردّدات الموجيّة وحساب الزمن وسائر ما يتعلّق بهذا العلم من الرياضيّات. طوّروا هذا بما اكتشفوا بعد استيعابهم ما بدأ الإغريق، فأثروه وكمّلوه باكتشافاتهم وما وصلوا إليه في سائر هذه الأفرع ... مصطفى سعيد

51 بِيْدار اللَّهْجَةِ الإماراتيّة فيما طابق الفصيح
ألفاظُ الحزن والبكاء والصياح - محمد فاتح زغل
57 كلمات وتعابير شعبية إماراتية - إبراهيم أحمد ملحم
70 الباب والتراث الشعبي - عبد الفتاح صبري
72 مدينة الأضواء والألوان (شتوتغارت) - ضياء الدين الحفناوي
76 علّام الأحوال- إعداد: نايلة الأحبابي
83 أماكن في القلب - حمزة قناوي
84 لعبة اللغة والدلالة في قصيدة النثر الإماراتية (2) -
أحمد حسين حميدان
94 حسن فتحي.. فيلسوف العمارة - حمادة عبد اللطيف
97 بيوت الحكمة: رصد تطور المكتبات في الحضارة الإسلامية -
راشد سعيد مبارك
98 من البقاء إلى العدالة.. سيرورة القيم الأخلاقية - شريف مصطفى
100 إله اللا شعور: الإنسان والبحث عن المعنى النهائي - فيبي صبري
102 الموسيقى ومرض الزهايمر - نورة صابر المزروعي
106 وَصَايَا الْعَرَبِ وَحِكَمُهُم
جُمَلٌ قَصِيرَةٌ وَمَعَانٍ ثَمِينَةٌ - محمد محمد عيسى
110 قراءة في كتاب «ناجح المعموري»
«تأويل النص التوراتي».. دراسة لأسطورة اللُّفاح والهوية الكنعانية -
خالد عمر بن ققه
114 تصور المسرح مهرجان المسرح العربي
في دورته الرابعة عشر في بغداد لهذا العام
من خلال مسرحيتي: «حلمت بيك اِمبارح» و «بيت أبو عبد الله -
صالح كرامة العامري
117 مواطن الإبل والتساؤلات حول أصلها العربي -
تراث - خاص
118 سلمى حمد المري:
تتسم أعمالي بالوجدانيات وغورها في أعماقي - هشام أزكيض
127 الشاعر محمد بن صنقور (1920-2020) أحد رواد الشعر في دولة
الإمارات - مريم النقبي
130 «أيام العربية» على البال - فاطمة حمد المزروعي

أسعار البيع

الإمارات العربية المتحدة: 10 دراهم - المملكة العربية السعودية 10 ريالات - الكويت دينار واحد - سلطنة عمان 800 بيسة - مملكة البحرين دينار واحد - اليمن 200 ريال - مصر 5 جنيهات - السودان 250 جنيهاً - لبنان 5000 ليرة - سورية 100 ليرة - المملكة الأردنية الهاشمية ديناران - العراق 2500 دينار - فلسطين ديناران - المملكة المغربية 20 درهماً - الجماهيرية الليبية 4 دنانير - الجمهورية التونسية ديناران - بريطانيا 3 جنيهات - سويسرا 7 فرنكات - دول الاتحاد الأوروبي 4 يورو - الولايات المتحدة الأمريكية وكندا 5 دولارات.

ما ورد في هذا العدد يعبر عن آراء الكتاب ولا يعكس بالضرورة آراء هيئة التحرير أو هيئة أبوظبي للتراث

124
مزن الشعر

الأم في ميزان الشعر

وفي الإمارات حفِل الشعر النبطي بعظيم الإشادة بالأم وذكْر أفعالها، وفاضت إبداعات الشعراء بقصائد وأشعار تبوح بمشاعرهم تجاه من جعلها المولى أحق الناس بعطفهم واحترامهم وحنوّهم، وأَولى الخلق ببرّهم. وثمة إقرار من كافة الشعراء بأن الأم تستأهل من الأبناء بذل كل ما استطاعوا من سبل للبرّ فيها والوفاء لها، والسعي لنيل رضاها، وثمة اعتراف أن كل الأدوار التي يقوم بها الأبناء، مهما تنوّعت واكتملت، لن ترقى إلى بعضٍ من فضائل الأم وأدوارها التي أفنت فيها عمرها تجاه الأبناء، ولن توفيها جزءاً يسيراً من حقها ... خالد ملكاوي

128
مواسم العرب

«10 فبراير» دخول موسم العقارب

قيل سمي بالعقارب لأنه خلال موسم العقارب تكون «كوكبة العقرب النجمية" في صدر السماء فجراً، وقيل «لتناوب لسعاتها الباردة والدافئة»، ويقال «لا دخلت العقارب.. ترى الخير قارب» حيث تهطل الأمطار ويبدأ الربيع، وتزدهر المراعي وتتفتح الأزهار، وينشط النحل، وتزداد خضرة البر بأجمل الصور الطبيعية. وانشدت العرب الكثير من القصائد في هذه الفترة التي يتفاءلون بالخير خلالها ... إبراهيم الجروان

تراثية ثقافية منوعة

تصدر عن:

هيئة أبوظبي للتراث
Abu Dhabi Heritage Authority

رئيس التحرير
شمسة حمد العبد الظاهري

الإشراف العام
فاطمة مسعود المنصوري
موزة عويص علي الدرعي

الإخراج والتنفيذ
غادة حجاج

سكرتير إداري وشؤون الكتاب
سهى فرج خير
torath@ehcl.ae

التصوير:
- مصطفى شعبان

عناوين المجلة

الإدارة والتحرير:
الإمارات العربية المتحدة - أبوظبي
هاتف: 024456456 - 024092336

الاشتراكات

للأفراد داخل دولة الإمارات: 150 درهماً / للأفراد من خارج الدولة: 200 دولار - للمؤسسات داخل الدولة: 150 درهماً / للمؤسسات خارج الدولة 200 دولار.

قصيد

شهر رمضان المبارك

الشاعر محمد عايض هادي الأحبابي

بديت بسم اللي رفيع مقامه — رحمن جوّادٍ حليمٍ وجبّار
الكون واللّي فيه بيده زمامه — ويقبل من التايب وللذنب غفّار
يا سعد من جاه رمضانٍ وصامه — ربحوا وفازوا في لياليه الابرار
شهرٍ جعله الله لخلقه كرامه — رحمه ومغفرةٍ وعتقٍ من النار
على الرحيل اقبل وطوّى خيامه — وداع يا شهر السعاده والانوار
صمناه واما اجره على الله تمامه — نرجو ثوابه عند علام الاسرار
مبروك عيد اللّي احتفل به وقامه — واخص به من صام في كل الأقطار

شهر الكرم واجب علينا احترامه — وواجب علينا نكرمه سروجهار
من صام وانفق فيه والليل قامه — ياتي سليمٍ م المصايب والاخطار
ويدخل مع الابرار دار السلامه — يدخل مع الابرارجنّات وانهار
شهرٍ كسب منه ابليس الندامه — بأمر الاله يغلّ وألقي بالابحار
صلاة ربي عد ما انشى غيامه — على النبي اعداد ما سايرٍ سار
شفيعنا في الحشر يوم القيامه — يومٍ تضيع به الدلايل والابصار

القصيدة للشاعر محمد عايض هادي الأحبابي. ولد الشاعر في مدينة العين عام 1934، وتعلّم في مدارس الكتاتيب وحفظ القرآن الكريم، ثم انتقل إلى مدارس محو الأمية وتعلّم مبادئ القراءة والكتابة ما ساعده في كتابه قصائده وأشعاره بنفسه. نظم الشاعر محمد عايض الشعر مبكراً واتجه إلى مختلف نواحي الشعر النبطي مثل: الغزل والرثاء والشكاوى وغيرها، ثم اتجه فيما بعد إلى الشعر الديني والنصح والحكم، فطغى هذا الجانب على معظم شعره، وكان عضواً في مجلس شعراء جمعية إحياء التراث الشعبي وشارك في أول مجلس شعراء البادية الذي كان يبث من إذاعة أبوظبي وذلك في عام 1968 حتى عام 1971.

تأملات في مستقبل التراث الرمضاني..

10 **رمضان.. رسوخ التراث ومواكبة العصر دون انحناء** - خالد صالح ملكاوي
14 **رمضان في الإمارات..** عادات تراثية راسخة تعكس الهوية الوطنية - **خالد بن محمد القاسمي**
18 **مستقبل التراث الرمضاني من حضارة الماضي..** إلى حاضر المستقبل
رمضانيات «الرمس» أنموذجاً - **عبد الله محمد السبب**
23 **ملامح من القيم المجتمعية في رمضانيات الشاعر الإماراتي** - عـادل نيل
26 **شهر الصيام سمته العرب من قبل «ناتق»** - محمد حسن الحربي
28 **الصيام ومستقبل الأثر الروحي** - لولوة المنصوري
30 **التراث الرمضاني في الإمارات:**استدامة الثقافة والتقاليد في ظل التطور التكنولوجي - منى حسن
32 **التراث الرمضاني في منظور الهوية الوطنية** - محمد نجيب قدورة
35 **رمضان في الإمارات.. مجالس رمضانية مستدامة وذاكرة محملة بتراث الماضي** - فاطمة سلطان المزروعي
40 **الشعر النبطي يحفظ تراث رمضان القصيدة الرمضانية من المناسبة إلى الكشف والتجريب** - الأمير كمال فرج
46 **شهر رمضان.. عادات متوارثة وهوية تراثية إماراتية** - مريم سلطان المزروعي
48 التسامح يسود أيام الشهر الفضيل قديماً وحديثاً في واحة التسامح
ذكريات شهر رمضان الفضيل.. نسائم روحانية من الزمن الجميل - جمال مشاعل
52 فن القوما» شعر شعبي يتضمن أدعية وتهيئة للسحور
«المسحراتي» ثيمة رمضانية تؤصل القيم الإنسانية - أماني ياسين
58 **التقاليد الرمضانية في الإمارات ودول أخرى: جولة عالمية** - صديق جوهر
62 **تراث رمضان راسخ ولا خوف عليه** - فاطمة عطفة
64 **كيف غيّرت الرحلة حياة الفنان التشكيلي الفرنسي «إيتيان دينيه»**
من إيتيان دينيه إلى الحاج ناصر الدين دينيه لوحات بطقوس رمضانية - محمد فاتح صالح زغل
68 **رحّالة ومستشرقون يوثّقون المظاهر الرمضانية في القاهرة قديماً** - علي تهامي

رمضان.. رسوخ التراث ومواكبة العصر دون انحناء

خالد صالح ملكاوي

في مختلف بلاد العالم الإسلامية على تباعدها وتعددها، واختلاف ألسنتها وسحناتها، يستعيد شهر رمضان، بروحانياته كل عام، عادات وتقاليد التصقت به لتُميزّه عن غيره من الشهور، ويحرص عليها المسلمون لتجسّد وحدتهم الدينية، وتعكس في بعض تفاصيلها هويتهم الوطنية، وتشكّل في مجملها موروثاً استعصى على الانحناء أمام التيارات المعاكسة، ليبقى لرمضان خصوصيته، وتبقى للشعوب الإسلامية عاداتها وتقاليدها، وتراثها المصون.

ورغم ما أحدثته الحداثة من ثورة في حياة الإنسان، ورغم أن الأديان لم تكن محصنة ضد هذا التأثير، فإن العادات المرتبطة بالصيام في شهر رمضان الكريم لم تتأثر، ولا يمكن أن تتأثر، وما من شك في أن رمضان ما زال، وسيبقى، محافظاً على جوهره في عبادة الصيام المخصوصة بأحكام معروفة، ومصحوباً بجملة السنن والآداب والعادات والتقاليد التي رافقته منذ وقع التكليف بصيامه، مثل تحري رؤية هلاله، والاستزادة بأداء الطاعات في أيامه، والتي طرأت عليه تبعاً للتطورات التي يشهدها كل عصر في انعكاس للحياة الاجتماعية التي تسود، مثل طقوس استقباله وإحياء لياليه، وتلوّن موائده، وانتشار مجالسه.

خصوصية رمضان وألقه

تميز شهر رمضان عبر التاريخ بما شهده من الأحداث التاريخية الكبرى التي غيّرت معالم الحياة وأسهمت في تشكيل خريطة الوجود البشري على الأرض؛ فقد أُنزلت التوراة على سيدنا موسى عليه السلام في شهر رمضان، وفيه أُنزل الزبور على سيدنا داوود عليه السلام، كما أُنزل فيه الإنجيل على سيدنا عيسى عليه السلام الذي رُفع في رمضان كذلك، وفي رمضان بدأ نزول القرآن الكريم، آخر الرسالات السماوية، على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم. كما شهد رمضان العديد من الفتوحات الإسلامية الكبرى، مثل غزوة بدر الكبرى، وفتح مكة، ومعركة عين جالوت، وفي رمضان تم فتح الأندلس.

ورغم مرور السنين، وتعاقب الأجيال، وتغيّر كثير من مفردات الحياة وتفاصيلها، فإن شهر رمضان يبقى حاملاً تميّزه وبريقه وألقه وخصوصيته، لا يأبه كثيراً بما تنشره تقنية العصر، فله عاداته وأصالته وذكرياته، يتغيّر الناس، وتتغير عاداتهم، بينما هو باقٍ، برسالته الأعلى قدراً ومكانة، وبمنهجه الروحي والمادي، الذي يكتسي بتفاصيله كلها بالإنسانية النابعة من أخلاق الإسلام، فيكسو حياة المجتمع برداء يسمو بالحياة في هذا الشهر فوق غيرها في بقية شهور السنة. فللشهر الكريم خصوصيته عند المسلمين منذ أن شرعوا بصيامه، إذ اهتم الناس به بالتكريم والتعظيم، وأداء الواجب المفروض فيه، والاستزادة بما يُستطاع من النوافل وأعمال الخير. وغدا الشهر يمثل موسم عبادة؛ يقضي الناس نهاره بالصيام والامتناع عن كل ما يخدش نصاعة الطاعة، ويحيون لياليه بقراءة القرآن وتدارسه وحفظه وتدبّره، وأداء صلاة التراويح، والاعتكاف لمن استطاع في العشر الأواخر من أيام، والتماس ليلة القدر.

عادات رمضانية تنمو عبر التاريخ

وبعيداً عن التدخل في الصيام من حيث كونه عبادة مخصوصة بأحكام محددة، تفاعل ظهور العادات والتقاليد المتعلقة برمضان تفاعلاً ذاتياً، انطلاقاً من طبيعة الشهر الكريم، ومن السنن والآداب المتعلقة به، مثل تحرّي رؤية الهلال، والمكوث في المساجد ما أمكن من وقت للصلاة وقراءة القرآن والاعتكاف، وتقديم وجبات الإفطار وموائده للصائمين والقاصدين، وإنارة المساجد وتزيين الشوارع والطرقات، والتفنن في إعداد ألوان الطعام والحلويات والمشروبات، التي ارتبط بعضها بالشهر دون غيره، إلى غير ذلك من وجوه الاعتناء والاحتفاء والتعظيم.

وتوالى المسلمون في الأصقاع كلها وعلى مر السنين بالعناية بهذه العادات والتقاليد والشعائر والسنن والآداب المميزة للشهر، واحتفاء كل بلد حسب إمكاناته، والتوسعة على الأهل بأقصى ما يتوافر من سعة. وسرى هذا الحال الرمضاني على مدى العصور المختلفة، وتلونت في بعض البلدان بألوان خاصة أحياناً دون المساس بعبادة الصيام، غير أنها حافظت على البقاء مشتركة في مختلف بلاد المسلمين معظم الأحيان. فنرى التلون قد أصاب استقبال الشهر وكيفية تحرّي هلاله، والوسائل المتّبعة لإشهار ثبوته، وكيفية إكرام الضيوف الصائمين، وأنواع الأطباق المقدَّمة، وكثرة العناية بها في رمضان دون غيره من الشهور، كما أصاب نظام الصحو ليلاً للسحور، إلى غير ذلك مما رسَّخ لرمضان عاداته وتقاليده، ولوَّن الحياة الاجتماعية فيه.

ولو تتبَّعنا بعض العادات التي ارتبطت برمضان لنجد أنها عادات موروثة، لكنها تشهد إضافات وتطورات محكومة بتطور

كل عصر، وليست بمنأى عن ظلال الحياة الاجتماعية التي كان يعيشها المجتمع المسلم؛ فإنارة المساجد في رمضان والعناية الإضافية بها شرع بها الخليفة عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - في عصر الإسلام الأول. وولائم الإفطار في رمضان كان المعز لدين الله الفاطمي أول من جعلها عادة لتكريم العلماء والفقهاء، وجعل غيرها في المساجد، ومثلها للفقراء والغرباء والمهاجرين طوال الشهر الكريم. كما أضاف الفاطميون عادة خروج الخليفة إلى رؤية هلال رمضان، مع العلماء والفقهاء، في موكب فخم تحُفُّ به حاشية كبيرة من الوزراء والأعيان والتجار، تتقدمهم مسيرات لآلاف الفرسان والجنود، ومئات العربات التي تحمل الشموع، فيما يحمل الناس المتجمهرون على جانبي الطريق الفوانيس، وقد ازدانت المحلات بالأنوار الساطعة.

وشهد رمضان كذلك عادات أضافها الفاطميون، منها جلوس الخليفة بعد صلاة التراويح ليستمع إلى القراء والمنشدين والوعّاظ والشعراء، إضافة إلى إقامة الزينات التي كانت تقتصر على الطرقات الواصلة بين الجوامع الكبيرة. كما أشاع الأيوبيون والمماليك عادة تعظيم الاحتفاء الرسمي والشعبي بالشهر الفضيل، وواصل العثمانيون ذلك بشيء من التلوين. واستمرت تلك التقاليد وازداد عليها قراءة صحيح البخاري في جامع الأزهر مع مطلع رمضان وختمه ليلة العيد في احتفال مهيب بحضور السلطان، وكذلك قضاة المذاهب الأربعة الذين صاروا، مع قاضي القضاة ورؤساء الصنّاع والتجار، هم المعنيون دون غيرهم بإثبات رؤية هلال رمضان.

ومدفع الإفطار الذي أصبح واحداً من أهم العادات الرمضانية التراثية المرتبطة بالشهر الكريم، وقيمة تاريخية في الموروث الإسلامي تناقلتها الشعوب منذ قرون عديدة. فقد كانت القاهرة أول مدينة ينطلق فيها هذا المدفع عن طريق المصادفة. وفي ذلك روايتان؛ إحداها أنه عند غروب أول يوم من رمضان عام 865 هـ، أراد السلطان المملوكي خشقدم أن يجرب مدفعاً جديداً وصل إليه. وقد صادف إطلاق المدفع وقت مغرب أول أيام رمضان، وظن الناس أن السلطان تعمد إطلاق المدفع لتنبيه الصائمين إلى أن موعد الإفطار قد حان، فخرجت جموع الأهالي إلى مقر السلطان تشكره على هذه البدعة الحسنة التي استحدثها، وقرر السلطان المضي في إطلاق المدفع كل يوم إيذاناً بالإفطار، ثم أضاف بعد ذلك مدفعي السحور والإمساك. وتفيد الرواية الأخرى بأن بعض الجنود في عهد الخديوي إسماعيل كانوا يقومون بتنظيف أحد المدافع، فانطلقت منه قذيفة دوت في سماء القاهرة، وتصادف أن كان ذلك وقت أذان المغرب في أحد أيام رمضان، فظن الناس أن الحكومة اتبعت تقليداً جديداً للإعلان عن موعد الإفطار، وأعجبهم ذلك، فأصدرت الحاجة فاطمة ابنة الخديوي إسماعيل أمراً لاستخدام هذا المدفع عند الإفطار والإمساك وفي الأعياد الرسمية. ورغم أن مدفع الإفطار بدأ عن طريق المصادفة في مصر، فإن دولاً عديدة عملت على الإبقاء على هذه العادة التي أعجبت الصائمين، وباتت تقليداً ينقل حتى اليوم عبر المحطات التلفزيونية مباشرة عند حلول موعد الإفطار.

تراث تحفظه القلوب وترعاه الحياة

واليوم، ورغم كل ما حمله العصر من تقنيات لم تجفّ منابع التوادّ والتراحم والتكافل التي اكتسى بها رمضان منذ بدأ المسلمون صيامه، ولم تخفت عزائم المسلمين وهم يستعدون لأداء الطاعات مع استقبالهم الشهر الفضيل، ولم يتوقف المسلمون عن أداء صلاة التراويح، ولا التماس ليلة القدر، ولم يضعف اهتمام الناس بالتزيين والإنارة الاحتفائية بالشهر، ولم يضعف التوادّ والتراحم والتكافل، بل امتد في صوره إلى المبادرات والمشاريع الخيرية المحلية والدولية، ولم تتلاشى موائد الرحمن لإفطار الصائمين، بل ازدادت وانتشرت وصارت عادة اجتماعية تعكسها الخيم الرمضانية المقامة أمام البيوت وفي باحات المساجد، وزاد الاهتمام بالمجالس الدينية والمعرفية الرمضانية على المستويين الرسمي والشعبي، وانتشرت حتى غدت تقليداً متأصلاً في بعض المجتمعات، كما هو الأمر في المجتمع الإماراتي، إذ تشهد ليالي الشهر حراكاً دينياً وفكرياً وتواصلاً اجتماعياً يحركه نخبة من العلماء والمفكرين المستضافين من مختلف الأرجاء من ضيوف صاحب السمو رئيس الدولة، ويحتضنه مجلس سموه، ومجالس كثير من المسؤولين والأعيان، إضافة إلى مجالس الأحياء المنتشرة في العديد من المدن.

وكما هي حال رمضان في الإمارات، هي حاله في بقية الدول العربية، وفي مختلف الدول الإسلامية، حتى بين المجتمعات والجاليات المسلمة في بقية الأصقاع، إذ مازال الشهر يحتفظ بطقوسه الأصيلة، وعبق ذكرياته التي تلمّ شمل معظم الأسر، وتعظّم قيمهم المجتمعية، ومازالت عادات الشهر الكريم تحتفظ بروحها، على الرغم من رياح التغيير التي أصابت نواحي

حياتية عدة، ولايزال للمسلمين عاداتهم وتقاليدهم الرمضانية المتوارثة عبر الأجيال، وهي تعكس روح الأصالة، وتجسد قيم المحبة والتواصل الديني والاجتماعي، وتنم عن التجانس بين المجتمعات، وتظهر القيم الروحية التي تشكّل جزءاً لا يتجزأ من الثقافة الإسلامية.

فالتغير الذي أصاب المجتمعات، ولحق بتفاصيل الحياة، وأثّر في علاقات الناس وتقاربهم الاجتماعي، سرعان ما يضعف تأثيره، حتى يكاد ينزاح، منذ أن تَهِلَّ تباشير الشهر الفضيل، ويحيي الناس استعداداً له ليلة النصف من شعبان في بعض المجتمعات وعلى رأسها المجتمعات الخليجية، فيتميز الشهر بالإحسان والتكافل الاجتماعي والتآزر الإنساني، وترتبط سلوكيات هذا الشهر وطقوسه، رغم تنوّعها، بعادات توارثتها الأجيال، وحافظ الناس عليها، وتلتقي في طابع عام يجسّد مفاهيم التسامح والإخاء والألفة والمودة التي نشأ معها وكبُر أفراد هذه المجتمعات؛ فمع رمضان تكاد تكون الأجواء واحدة، فتتشابه معظم الطقوس ابتداء من استقبال الشهر وصولاً إلى وداعه، وهي تستعيد عادات مستمدة من الموروث الذي ما زالت روحه حاضرة. لكن كل هذا التشابه لم يمنع أن يكون ثمة تنوّع في هذه الطقوس الرمضانية من دولة إلى أخرى، ليعطي لكل بلد نكهة خاصة، وعلامة تميزه بالقليل عن البلد الآخر، لأن لكل بلد هويته الوطنية التي يعمل رمضان على الحفاظ عليها وإبرازها ■

باحث واعلامي مقيم في الإمارات

المصادر والمراجع:

1. التغيير وآلياته في موروثاتنا الشعبية، جاسم محمد بن حربان، المنامة، وزارة الثقافة والتراث الوطني، الطبعة الأولى، 2010م.
2. رسالة في بركة رمضان، عبد الحميد حواس، القاهرة، الهيئة العامة لقصور الثقافة، الطبعة الثانية، 2016م.
3. رمضان والعيد عادات وتقاليد، محمد رجب السامرائي، أبوظبي، نادي تراث الإمارات، الطبعة الأولى، 2002م.
4. مجلة التراث المعنوي، العدد الأول، السنة الأولى، سبتمبر 2009م، أبوظبي، هيئة أبوظبي للثقافة والتراث.
5. مجلة الثقافة الشعبية، العدد الحادي عشر، السنة الثالثة، خريف 2010م، المنامة، أرشيف الثقافة الشعبية للدراسات والبحوث والنشر.
6. مجلة الموروث الشعبي الإلكترونية، العدد الثالث عشر، يونيو 2016م، مملكة البحرين http://bahrainanthropology.blogspot.com/2016/06/2016.html.
7. معجم رمضان، فؤاد مرسي، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الإصدار الثاني، 2013م.

رمضان في الإمارات..
عادات تراثية راسخة تعكس الهوية الوطنية

خالد بن محمد القاسمي

لا يتميز شهر رمضان بكونه شهر العبادات والطاعات فحسب، ولكنه يتميز كذلك بأنه شهر تتكشف فيه عادات وأعراف وتقاليد مختلف الشعوب العربية والإسلامية، واللافت للنظر أن تلك الشعوب على رغم اختلافها وتباينها، فإنها تتشابه في الكثير من العادات التي تخص هذا الشهر الفضيل.

ويتميز شهر رمضان في دولة الإمارات العربية المتحدة بالكثير من التقاليد والعادات التراثية التي انتقلت إلى الشعب الإماراتي عبر الآباء والأجداد، وما زال الشعب الإماراتي يحرص على اتباعها وإحيائها، ما يؤكد - رغم تقلبات الزمن - حرصه وتمسكه بهويته الضاربة بجذورها في نفوس كل إماراتي.

وفي هذا المقام نُلقي الضوء على بعض العادات والتقاليد الرمضانية، التي ما زالت تُميز الشعب الإماراتي، وتعكس تمسكه بهويته الوطنية.

ليلة النصف من شعبان (حق الليلة)

يبدأ الاحتفال بمجيء رمضان في دولة الإمارات من ليلة النصف من شعبان، التي يُطلق عليها «حق الليلة»، وقضت العادة في الإمارات أن يتجمع الأطفال بعد صلاة المغرب بملابسهم التقليدية، فالبنات بالملابس المطرزة والصبيان بـ «الكندورة» والطاقية المطرزة بخيوط الذهب، يعلقون في رقابهم كيساً من القماش يسمى «الخريطة»، ويمشون جماعات تتوقف على البيوت وتبدأ بترديد الأهازيج لحث أهل البيت على منحهم المكسرات والحلويات، وهم ينشدون:

عطونا اللـــه يعطيـــكم.. بيـــت مكـة يوديكـــــم[1].

استطلاع هلال رمضان قديماً

وكان أهل الحير «الجبال» يحسبون لقدوم شهر رمضان باليوم منذ بدايته، فإذا أتمّ شهر شعبان 29 يوماً، أسندوا مهمة استطلاع هلاله الكريم إلى مَن يثقون برجاحة عقله ودينه، وقوّة إبصاره، فيصعد هذا الرجل إلى أعلى جبلٍ في المنطقة يرقب الهلال مع غروب الشمس، فإذا رآهُ، أطلق عياراً نارياً ليعلن للجميع في قريته رؤية هلال رمضان، وإن لم يَرَهُ، يعود الرجل أدراجه ليكملوا عدّة شعبان ثلاثين يوماً.

وعند رؤية الهلال يؤدي الناس صلاة التراويح ليلتها ويعقد الصيام بالإجماع، وتكون القرى المجاورة قد سمعت إطلاق النار فتعرف بمقدم شهر الصيام، أو يرسلون مَن يخبرهم، وقد تُرسل القرى المجاورة مندوبين من عندها للتأكد من أنّ إطلاق

النار في تلك القرية كان لرؤية هلال رمضان، ولتهنئتهم بحلول الشهر الفضيل[2].

مدفع رمضان

يعد مدفع الإفطار من أجمل الطقوس في شهر رمضان في جميع بلاد العالم الإسلامية، وفي القديم عند الإعلان عن بدء شهر رمضان كان يُضرب المدفع من أمام حصن حاكم البلاد، وكان الأهالي يسمعون ضربة المدفع فيفرحون بحلول رمضان[3]. وما زال مدفع رمضان يعتبر من أبرز العادات والتقاليد في دولة الإمارات العربية المتحدة خلال شهر رمضان منذ القرن العشرين، وتحديداً منذ فترة حكم المغفور له بإذن الله الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان - طيّب الله ثراه - حيث يمكن أن يُسمع صوت المدفع إلى نحو 8 كيلومترات ويعتبر المدفع كمنبه لمواقيت الإفطار اليومية والإمساك ويباشر في مناطق متنوعة عبر الدولة. ولصوت الانفجار الكبير الذي يسببه المدفع أهمية خاصة عند الأطفال في دولة الإمارات العربية المتحدة فهو يمثل لهم المتعة والإثارة ويستقطب المدفع السيّاح والزوار كباراً وصغاراً فالجميع يستمتع بهذه الأجواء[4]. وفي عام 2023، كشفت وزارة الدفاع ممثلةً في قيادة الوحدات المساندة عن إحياء وجود مدفع الإفطار لشهر رمضان، وأنه سينطلق في عدد من إمارات الدولة إيذاناً ببدء شهر رمضان المبارك وإحياءً لتقليد متوارث وحفاظاً على العادات والتقاليد والتمسك بالموروث الاجتماعي الأصيل الذي ترسخ في ذاكرة المجتمع الإماراتي ووجدانه حيث أصبح مدفع شهر رمضان تقليداً اعتاد على مشاهدته أبناء الإمارات والمقيمون في الدولة خلال الشهر الكريم إيذاناً بانتهاء ساعات الصيام وحلول وقت الإفطار مع أذان المغرب[5].

عادات المرأة الإماراتية في رمضان

إذا أهلّ شهر رمضان المبارك كانت النساء في المدن الإماراتيّة يجتمعنّ في البيوت كلّ يوم في بيت إحدى الجارات للقيام

بطحن الحبوب لإعداد الهريس مرددات أشعاراً تُعرف بدقّ الهريس وإعداد الخبيص والبلاليط وخبز الرقاق واللقيمات، وكذلك القيام بتنظيف المنزل وإعداده بصورة تليق بالشهر الكريم. وكانت العادة الرمضانية القديمة هي تبادل وجبات الإفطار بين البيوت قبيل إطلاق المدفع، حتى لا يكون الطعام بارداً عند الفطور، أو التجمع في مكان واحد، لتأتي كل امرأة وهي تحمل بيدها طبقاً مُعيناً، ويتناولنه منها وسط الفرحة بشهر الخيرات. وكانت النساء تخرج لأداء صلاة التراويح في المساجد، مع تأكيد الأهل على أطفالهم بتعويدهم على الصيام والالتزام بمواعيد الصلوات الخمس وخروجهم مع آبائهم لأداء صلاة العيد[6]. ولا تزال المرأة الإماراتية تنظر إلى هذا الشهر المبارك بكثير من الاهتمام وتعطيه الأولوية في كل شيء؛ إذ تعيش أجواءه بصورة مختلفة فتقدّم أنواع الضيافة إلى الأقارب والجيران والضيوف، والمحافظة على عادات الماضي وتقاليده في هذا الشهر المبارك لا تزال موجودة في كثير من البيوت، فأمهات اليوم عاصرن في طفولتهن مظاهر استقبال رمضان، كما لم تترك الجدّات شيئاً إلا وتحدثن فيه.

وتستقبل المرأة الإماراتية في بيتها طوال شهر رمضان زواراً كُثراً، فتحرص على إعداد الأطعمة الشعبية بشكل يومي وتقدم الهريس والبلاليط والجباب والخبيص والمحلّى بالطرق التقليدية، وتحرص على أن ينشأ الأبناء على قيم الماضي ويتعرفوا على حياة الأجداد في مثل هذا الشهر الكريم[7].

ولقد حافظ الإماراتيون، على مر الزمان، على العادة الحميدة القاضية بزيارة الأهل والأصدقاء خلال الشهر الكريم، وعادةً ما تكون هذه الزيارات فرصةً لزيادة الألفة والمحبة والتقارب وصلة الأرحام، في مجتمع عُرِفَ عنه التسامح والتآخي منذ القديم، كما تحيي علاقات الجيران مع بعضهم في زيارات بعد صلاة التراويح، وتبادل أطباق الأكل على مائدتي الإفطار والسحور[8].

مجالس رمضان

كانت المجالس في الماضي تحتوي على فرش يوضع على الأرض سجاداً عجمياً عند الموسرين أو حصيرة عند متوسطي الحال. وكانت المجالس في رمضان لها مذاق خاص، وتدار بطريقة تختلف عن أيام السنة الأخرى؛ إذ كانت الزيارات العائلية وزيارات المجاملة تتضاعف مرات عدة في ليالي رمضان، وكانت أبواب المجالس عادة لا تُغلق في ليالي رمضان إلا بعد تناول طعام السحور. وفي المجالس الكبيرة تجرى الأحاديث الثنائية والجماعية وعادة ما تكون في أمور ممتزجة بين الدين والدنيا[9]. وعادة ما يكون الشعر مادة خصبة ضمن المجالس حيث تبدأ أولاً بنماذج شعرية بعد التقاء الجيران والأصدقاء في مجلس معين، وكان للشعر مجلس بليلتين في الأسبوع الواحد، وتتباين أغراض الشعر المُلقى من شاعر إلى آخر، وغالباً ما كان الصغار يحضرون هذه المجالس ويستمعون إلى شعر الكبار وحديثهم لأن المجالس - كما قيل - مدارس[10].

لكن عموماً تكون أحاديث رمضان هادئة تختصُّ بشهر رمضان وما يتميَّز به من صيام وعبادة وعمل، أو تكون في قضايا عامة تهمُّ الناس وتتميز بالتعقُّل والبُعد عن التطرُّف، وهذا يرجع في الواقع إلى درجة التقديس وشدة التديُّن والقرب من الله التي يشعر بها الناس أكثر وأكثر في هذا الشهر المبارك. وعموماً، فإنَّ

مجالس أهل الإمارات تعدُّ من المظاهر الحضارية التي تميزهم عن غيرهم، وهي أكبر دليل على تآلف قلوبهم وإحساسهم العميق، وبتقارب المشاعر والأرواح بروح الأسرة الواحدة[11].

المسحر (المسحراتي)

من مظاهر الحياة الشعبية في مجتمع ما قبل النفط شخصية «المسحر»، الذي يُعرف في مصر بـ«المسحراتي»، وهذه وظيفة لا يستهان بها، آنذاك، حيث تعتبر شخصية المسحر ذات أهمية خاصة، وتتميز بطابعها الاجتماعي ودورها الاحتفالي، وقد استمدت هذه الشخصية صفاتها من ظروف المجتمع الذي أعطى المسحر فعلاً معيناً من خلال الرسالة الأخلاقية والثقافية التي يقوم بها، وهي شخصية محبوبة ومقربة من مشاعر الناس الذين ينظرون إلى المسحر نظرة تقدير واهتمام، لذا فهم يستيقظون على دقاته وأناشيده والأدعية التي يرددها[12]. وكان «المسحر» يتجول في الطرقات وهو يردد بصوته المسموع:

اصحى يا نايم

واذكر ربك الدايم[13].

وفي أواخر شهر رمضان يمر «المسحر» على المنازل بعد العصر يتبعه صغار الأولاد، فيدفع له أهل المنزل عوضاً عن قيامه وعنائه وإيقاظهم الناس بغير شرط محدد[14].

العبادات وصلاة التراويح في الإمارات

تكون العبادات وصلاة التراويح في المساجد من أجمل عادات في الإمارات في رمضان، حيث يتم أداؤها يومياً من قِبَل النساء والرجال بعد صلاة العشاء خلال الشهر الكريم، ويتم الاعتكاف بالليل في المساجد خلال فترة العشرة الأواخر من رمضان، حيث يصلون ويتلون القرآن الكريم، وكلهم أمل أن يبلغهم الله «ليلة القدر»، وهي الليلة التي نزل فيها الوحي بالقرآن الكريم للمرة الأولى وهي ليلة خير من ألف شهر كما ذكر المولى عزّ وجل.كما تحرص الشؤون الإسلامية في الإمارات على تنظيم العديد من الندوات والمحاضرات الدينية خلال شهر رمضان في أبوظبي ودبي والإمارات الأخرى يلقيها محاضرون من علماء الدين والفقه، ويتم بثها عبر القناة الرسمية على مواقع التواصل اليوتيوب[15].

باحث في شؤون الخليج

المصادر والمراجع:

1. رمضان في الإمارات.. تقاليد أصيلة تتوارثها الأجيال، موقع صحيفة الخليج، بتاريخ 17 مايو 2017، على الرابط التالي: https://2u.pw/Th4lvdD
2. رمضان في الإمارات.. مجالس وأشعار وسوالف وأذكار، موقع صحيفة الاتحاد، بتاريخ 3 سبتمبر 2009، على الرابط التالي: https://2u.pw/k7lp9Jm
3. عبد الله علي الطابور، ملامح الموروث التاريخي في الإمارات، هيئة الشارقة للوثائق والأرشيف، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة، ط 1، 2022، ص 163.
4. عادات وتقاليد رمضانية تتمسك بها الإمارات، شبكة صقور الإعلامية، بتاريخ 28 مارس 2023، على الرابط التالي: https://2u.pw/c6BGjBu
5. وزارة الدفاع تكشف عن إحياء مدفع الإفطار في عدد من مدن وإمارات الدولة، وكالة أنباء الإمارات (وام)، بتاريخ 19 مارس 2023، على الرابط التالي: https://wam.ae/ar/details/1395303140275
6. محمد رجب السامرائي، رمضان والعيد عادات وتقاليد، نادي تراث الإمارات، أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، ط 1، 2002، ص 13.
7. في رمضان الإماراتية امرأة استثنائية تستحضر طوال أيامه العادات والتقاليد، موقع «لها»، بتاريخ 12 يوليو 2015، على الرابط التالي: https://2u.pw/Kl3lQKu
8. د. مريم أحمد قدورية، رمضان في ذاكرة الإماراتيين.. عبادات وعادات، مركز جمال بن حويرب للدراسات، على الرابط التالي: https://2u.pw/1Kwy6Oe،
9. حسن قايد، بادية الإمارات تقاليد وعادات، مؤسسة الاتحاد للصحافة والنشر، أبوظبي، 1990، ص 32 - 33.
10. محمد رجب السامرائي، مرجع سابق، ص 14.
11. د. مريم أحمد قدورية، مرجع سابق.
12. عبد الله علي الطابور، مرجع سابق، ص 166.
13. محمد رجب السامرائي، مرجع سابق، ص 14.
14. الشيخ محمد بن أحمد بن الشيخ حسن: العادات والتقاليد في دولة الإمارات العربية المتحدة، طبع على نفقة صاحب السمو الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان، المطبعة العصرية، أبوظبي، 1983، ص 63.
15. تعرف على عادات وتقاليد الشعب الإماراتي في شهر رمضان الكريم، بوابة الفجر، على الرابط التالي: https://www.elfagr.org/4631774

مستقبل التراث الرمضاني
من حضارة الماضي.. إلى حاضر المستقبل

رمضانيات «الرمس» أنموذجاً

عبد الله محمد السبب

بيان وتبيين

التاريخ: معجم لثلاث مفردات زمنية: ماضٍ، وحاضر، ومستقبل. فالماضي كان مستقبلاً ثم أصبح حاضراً، والحاضر كان مستقبلاً ثم أصبح ماضياً، والمستقبل سيصبح حاضراً، ثم ماضياً. هكذا هو التاريخ، هكذا هو الزمن، وهكذا هي دورة الأيام، والشهور، والسنوات، والقرون.

هكذا هي حياة الأزمنة (التاريخ)، وهكذا قانون الأمكنة (الجغرافيا)؛ وشهر رمضان، منظومة زمنية ثقافية تراثية عربية إسلامية، تمتاز بروحانية ذات صبغة تراثية، لها ارتباطها الوثيق بالأمكنة والأزمنة، والحكايات والحياكات.. لها ما لها من طقوس وممارسات بشرية: مكتسبة من الماضي، ومنفذة في الحاضر، ومؤهلة للمستقبل.

تراثيات معنوية

اليونسكو (UNESCO)؛ منظمة دولية تابعة للأمم المتحدة، هدفها الرئيسي تعزيز التعليم والثقافة والعلوم والاتصالات، وتعمل على حماية التراث الثقافي وتعزيز الثقافات المختلفة والتنمية المستدامة.. من ذلك، التراث غير المادي؛ فبحسب تعريف اليونسكو؛ فإن التراث غير المادي (المعنوي المحسوس)، يشتمل على التقاليد أو الأشكال التعبيرية الحية الموروثة المنتقلة من الأسلاف إلى الأحفاد؛ مثل: (التقاليد الشفهية، وفنون الأداء، والممارسات الاجتماعية، والطقوس والمناسبات الاحتفالية، والمعارف والممارسات المتعلقة بالطبيعة والكون، أو المعارف والمهارات المرتبطة بإنتاج الصناعات الحرفية التقليدية).. وعلى الرغم من طابعه الهش؛ فإن التراث الثقافي غير المادي، يُشكّل عاملاً مهماً في الحفاظ على التنوع الثقافي في مواجهة العولمة المتزايدة؛ ففهم التراث الثقافي غير المادي للجماعات المختلفة يساعد على الحوار بين الثقافات ويشجع على الاحترام المتبادل لطريقة عيش الآخر. ولا تكمن أهمية التراث الثقافي غير المادي في مظهره الثقافي بحد ذاته، وإنما في المعارف والمهارات الغنية التي تنقل عبره من جيل إلى آخر، والقيمة الاجتماعية والاقتصادية التي ينطوي عليها هذا النقل للمعارف تهم الأقليات مثلما تهم الكتل الاجتماعية الكبيرة، وتهم البلدان النامية مثلما تهم البلدان المتقدمة.

عالمية المائدة الرمضانية

في صبيحة الأربعاء 6 ديسمبر 2023م، أدرجت اليونسكو «التقاليد الاجتماعية والثقافية» المرتبطة بالإفطار الرمضاني على لائحتها للتراث غير المادي، نزولاً عند طلب تقدّمت به أذربيجان وإيران وأوزبكستان وتركيا، وقرّرت اللجنة الدولية الحكومية لصون التراث الثقافي غير المادي التي تعقد اجتماعاتها منذ الإثنين 4 ديسمبر في كاساني في شمال بوتسوانا إدراج الإفطار ضمن التراث غير المادي للإنسانية، وأوضحت اليونسكو أن «الإفطار وجبة يتناولها المسلمون عند غروب الشمس خلال شهر رمضان، بعد إتمام سائر الطقوس الدينية والاحتفالية»، وأضافت: «غالباً ما يتجمع المسلمون حول مائدة الإفطار لتناولها بروح الجماعة، الأمر الذي يوطّد أواصر الصلة بين أفراد الأسر والمجتمع كله ويعزز الأعمال الخيرية والتضامن وطرق التبادل الاجتماعي»، وأشارت إلى أنّ «أفراد الأسر يتناقلون هذه الممارسة عادةً بعضهم عن بعض»، لافتة الانتباه إلى أن «الأطفال والشباب غالباً ما يُكلّفون إعداد أطباق الإفطار».

رمضانيات تراثية

معجم التراث الرمضاني غني بمفردات وطقوس ومحطات موسمية سنوية، وينتظر المرء الاقتراب من الموعد المرتقب على أحر من جمر الشوق والمحبة الروحانية لشهر رمضان، وفي هذه الفترة تتم مرحلة الاستعداد المبكر للطقوس الرمضانية على قدم وساق؛ منذ ليلة النصف من شعبان، وحتى ليلة استطلاع هلال رمضان في اليوم التاسع والعشرين من شهر شعبان؛ فإما نتيجة الاستطلاع تكون برؤية هلال شهر رمضان، وبالتالي إعلان غرة الشهر الفضيل؛ وإما عدم استطاعة رؤية الهلال الرمضاني، وبالتالي إعلان اليوم الجديد المرتقب تتمة لشهر شعبان في اليوم الثلاثين من عمر الشهر.

مفردات رمضانية

شهر رمضان؛ معجم زمني يتضمن ما بين تسعة وعشرين إلى

ثلاثين صفحة، مملوءة بمناسبات عادات وتقاليد وممارسات بشرية في أنحاء متفرقة من الخريطة الجغرافية الإسلامية، وفي المجتمع الإماراتي ثمة طقوس غذائية مرتبطة بمحطات زمنية على مدار اليوم. بدءاً من وجبة السحور، مروراً بوجبة الإفطار، وبينهما فترة الاستعداد للمائدة الرمضانية؛ سواء على صعيد البيت الواحد، أو على صعيد الفريج «الحي» بمساهمة الجيران في المائدة الرمضانية المشتركة التي تسمى «المَفْطَرْ» الذي يختص بالرجال والصبيان.

حق الليلة

الليلة الليلة
حق الطفل ليلة
فيها الوصل والجود
فيها النبي موجود
وفيها الإله رضيان
****

الليلة الليلة
حق الطفل ليلة
فيها البدر والنور
فيها الوطن مسرور
وفيها الدعاء سهران
****

يا ربي يا رحمن
اجعل من الـ«شعبان»
نصف الشهر ليلة
فيها الطفل فرحان
حق الطفل ليلة

تتأهب الأُسَر الإماراتية بوجه عام، والأُسْرة «الرمساوية» بوجه خاص، لتلك الليلة الشعبانية الرابعة عشرة (ليلة النصف من

شهر شعبان)، كمدخل روحاني وإيماني إلى شهر رمضان.

ففيما الآباء يتجهون بنقودهم إلى الأسواق لشراء ما يليق بتلك الليلة المباركة ويشير إليها من مكسرات وحلويات (يوز «جوز» وبيدام «لوز» ونخي «حمص جاف» وسبال مملح «فول سوداني» وبرميت «حلاوة صلبة»، وإلخ...)؛ تهرع الأمهات إلى سرج (الخرايط) أو الأكياس القطنية لتسليمها إلى الأطفال للتطواف بها على بيوت الجيران في الفريج أو الحي الذي يسكنون فيه وربما يتعدى ذلك إلى الفرجان أو الأحياء الأخرى من منطقة «الرمس» برأس خيمة الإمارات العربية المتحدة، لأخذ حصتهم من محصول تلك الليلة، حيث تسمى تلك الحصيلة (حق الليلة) أي حق ليلة النصف من شعبان، أو حق الله؛ وهناك، في تلك الليلة، يردد الأطفال أهازيجهم وأناشيدهم التراثية.. ومن تلك الليلة الشعبانية الكريمة، تنطلق الأسر إلى شهر رمضان المبارك بقلوب مملوءة بالإيمان وبأرواح معلقة بفعاليات الكرم والجود.

مدفع الأخبار

ها نحن ندخل إلى المربع الأول، إلى المرابع البيضاء، إلى الرائحة الرمضانية القديمة قِدَم البراءة والبراعة الاجتماعية السامية؛ فمنذ اللحظة الإعلانية الأولى لتأكيد قدوم شهر رمضان ضيفاً عزيزاً على قلوب الناس برجالاتهم ونسائهم وأطفالهم، تبدأ مسيرتنا نحن أطفال ذاك الزمان الرمضاني القديم، وتبدأ حكايتنا التي تتكئ على طمأنينة التجوال بين سكيك «الرمس» بكل حرية مكفولة باللا خوف من شياطين الجن أو عتمة الحياة.. ففي تلك اللحظة المنتظرة على أحر من الجمر، نبدأ حكاية رمضانية سنوية مقدسة. يأتي الخبر عبر مدفع رمضان، وعبر أجهزة الراديو القديمة، وعبر مستطلعي الهلال الهجري الشهري؛ فتأتي معه راحتنا المنتظرة.. فلا شياطين تكبل حركتنا

وتوقف نبض قلوبنا، ولا نومة مبكرة تحول بيننا وبين طموح ألعابنا الليلية؛ يأتي الخبر وتبدأ حكايتنا في ظهيرة أول يوم، حيث جلوسنا إلى جانب أمهاتنا «رحمهن الله» وهُنَّ يُحَضِّرْنَ طعام الإفطار الذي نستلذ الجلوس إلى رائحته التي تميزه عن رائحة أي طعام في أي من أيام السنة الأُخر، ثم تبدأ فترة (المسيان) أي ما بعد العصر وما قبل المغرب، حيث تتطاير الصحون الممتلئة بأطعمة رمضانية تختلف من يوم إلى آخر، وبين بيت وبيت آخر: (هريس، فريد - ثريد، خبيص، عصيد، والمعجنات بأنواعها وأسمائها وأشكالها وأحجامها: الخمير، الرقاق، الجباب، المجلب، والقرص المفتوت، واللقيمات - أو القروص...إلخ)، حيث نكون نحن معشر الأطفال أشبه ما نكون بقطيع من النمل الذي يدب على الأرض، وبين السكيك.. فقد كنت وإخوتي نحمل تلك الصحون إلى بيوت الجيران (بيت يونس الياسي وبيت شقيقه محمد الياسي «رحمهما الله»، وبيت سالم محمد بشر وبيت أخيه أحمد سالم العتيبي «رحمها الله»، وبيت علي وكّالي وسعيد العامري وعبد الرحمن ربيع «رحمهم الله»، وبيوت أخرى مملوءة بحب الاستقبال والتبادل الغذائي الرمضاني).. بيوت نقدم لها ما صنعته أمي «رحمها الله»، ونأخذ من تلك البيوت ما صنعته الأمهات في بيوتهن من طعام يختلف عما هو في بيتنا وربما نفسه؛ بل وكنت في سباق دائم مع شقيقيَّ «علي وعبد الرحمن» للذهاب إلى بيت جدي «عبيد بن ناصر - رحمه الله - وتسليمه طبق «أمي» التي تُعرف بِنَفَسِها الكريم والمميز في الطعام.

مفطر المحبة

نأتي فيما بعد إلى لحظة الإفطار الجماعي في «المفطر» مع الرجال أمام بيتنا القديم في «الفريج الميامي»، حيث يأتي كل رب أسرة بما صنعته نسوة بيته من طعام ليضعه أمام إخوته من آباء الأسر الأخرى ممن يشاطرونه فرحة الإفطار من بعد يوم حافل بالصوم والصبر، في حين كنت أترك قلبي عند أمي التي تضطر إلى الإفطار بمفردها في البيت لأننا جميعاً من الذكور باستثناء «أختي، حفظها الله» التي كانت في بيت زوجها «محمد سالم بن جمعة، رحمه الله».

آمين

بعد العودة من المفطر، تأتي لحظة الانطلاق إلى «الله سبحانه وتعالى» في رحلة روحانية عبر صلاة التراويح التي كنا نؤديها في «المسجد الجامع الكبير» - مسجد بن هديب سابقاً، مسجد سلطان بن زايد حالياً - ذلك المسجد الذي كان يجمع الرجال بالنساء بالأطفال من الصبيان والبنات.. وهناك، كانت لنا نحن صغار الأولاد حكايتنا الخاصة مع تلك الصلاة السنوية المقدسة؛ كنا صغاراً جداً، وكنا نصلي العشاء، ثم السُّنة، ثم تبدأ مراسيم صلاة التراويح التي لم نكن على قدر الصداقة الجيدة معها.. فحيناً ندخل في الركن المخصص لصلاة النساء، وحيناً نلهو أمام باحة المسجد، وفي كل مرة حين يأتي موعد سجود الركعة الثانية نهرع إلى الصلاة حتى لا يكتشف «أبي، رحمه الله» غيابنا غير المبرر؛ وهكذا كل الأولاد، وكل الآباء، وهكذا عندما تحين ركعة الوتر، نتسابق جميعاً نحن معشر الصبيان إلى «دعاء القنوت» الذي يشبه الأدعية المقدسة حين يصدح صوت المصلين بتأمين الدعاء «آمين.. آمين.. آمين»... بعدها، نتجه بحواسنا ورغباتنا إلى ممارسة ألعابنا الشعبية المختلفة، وبخاصة لعبة «الغزّولة» الذكورية التي ينقسم فيها الصبيان إلى فريقين، أحدهما يمثل أهل البيت أو أصحاب الأرض الذين يحمون العرين «الهول»، والآخر يمثل الفريق الخصم أو العدو الذي يحاول اقتحام ذلك الهول دون خسائر.. وهي لعبة حربية على مستوى الطفولة المتباينة الأعمار.

تَبَتْ

على جانب آخر، نخوض تجربة تنافسية أخرى بيننا نحن الأولاد الذكور، إذ نصنع حلقة في المسجد، فنبدأ بقراءة القرآن الكريم بالتناوب.. سورة فسورة، ومن يظفر بقراءة سورة «المسد» أو «تبّتْ» فكأنما حاز على بطولة القرآن الكريم، وعليه في هذه الحالة أن يجلب في اليوم التالي مائدة رمضانية ليلية معتبرة، نكاية «بأبي لهب وامرأته حمالة الحطب».. وهنا، أذكر ذات ليلة رمضانية حافلة بقراءة قرآنية، أن حالفني نصيب قراءة «سورة تبّت»، إلا أن أحد الأولاد الذي يكبرني بسنوات، جاهد كثيراً من أجل أن يقرأ هو تلك السورة مقابل إحضار مائدة رمضانية فاخرة في اليوم التالي.. وهكذا أخذت أرفض وأخذ هو يحاول، إلى أن تدخّل شقيقي عبد الرحمن محاولاً إقناعي بقبول العرض الرمضاني هذا، إلى أن قبلت ذلك مرغماً، وبذلك فوّتُّ نشوة الانتصار على أبي لهب.. ليأتِ اليوم التالي.. دون حضور المائدة، ودون أن يُطلَّ صاحبنا بوجهه..!!

وبمناسبة «سورة تبّت - المسد»، فإننا نردد دائماً: (تبّت يدا، حِطْ الغدا.. سمك ورويد مزهّبا) ..!!و«الرويد» هو الفجل بأوراقه الخضراء ورأسه الأبيض، الذي تنبته أرض الإمارات.

فوالة سحور

ثم نعود أدراجنا إلى البيت بعد قضاء وقت ممتع باللعب والتسابق الجسدي والروحاني، فنأخذ قسطاً من الطعام في بيتنا أو في بيت الجيران إذا كنا بصحبة أمهاتنا في تجوالهن الليلي في بيوت صديقاتهن من الجارات عوضاً عن التجوال النهاري في «ضحى» أو «عصر» أيام الأشهر الهجرية الأخرى غير رمضان؛ لننام بعدها بمعية أمهاتنا وآبائنا انتظاراً لموعد وجبة «السحور» الذي نقوم إليه لتناوله ونحن تحت تأثير سحر النوم الذي كثيراً ما يهزمنا، فنأكل دون وعي، وحين يصبح الصباح نتوجه بأصابع الاتهام إلى أمي أو أبي «رحمهما الله» لعدم إيقاظنا، وحين نكتشف غير ذلك، نشعر بخيبة الهزيمة، ونستمع بألم إلى زقزقة عصافير الجوع في بطوننا ■

أديب وإعلامي إماراتي

المصادر والمراجع:

1. ترنيمة للشاعر عبد الله محمد السبب، الإمارات، الثلاثاء 14 شعبان 1422 هـ - 30 أكتوبر/ تشرين الأول 2001م.
2. موقع (وكالة عمّون الإخبارية) https://www.ammonnews.net/home
3. موقع وزارة الثقافة والشباب (التراث غير المادي).
4. صحيفة «البيان» الإماراتية، 6 ديسمبر 2023م.
5. صحيفة «الوسط» البحرينية، 1 سبتمبر 2010م.

ملامح من القيم المجتمعية في رمضانيات الشاعر الإماراتي

عادل نيل

على امتداد الشعر العربي، وفي ظل الحضارة الإسلامية، تشكّلَ ضمن الاتجاه الديني في القصيدة العربية ما يمكن أن نسميه بالرمضانيات، وهو الشعر الذي كتبه الشعراء في شهر رمضان احتفاءً به وإعلاءً لقيمته وقداسته لدى نفوس المسلمين، وهو ما يمثل حضوراً لدى العديد من الشعراء، لارتباطه بالفضائل الأخلاقية الجامعة، والمعاني المجتمعية النبيلة، ولذلك قبل أن تكون هذه الرمضانيات شعراً دينياً، فهي تدخل بالكثير من معانيها في الاتجاه الاجتماعي الذي يرتبط بتفاصيل دقيقة في تشكيل ملامح المنظومة الأخلاقية والإنسانية بين أفراد المجتمع.

وقد تغنى بعض شعراء الإمارات بشهر رمضان معبرين عن مشاعر جمعية يختلط فيها تقديس هذه الفريضة، بالتعبير عن الشغف الوجداني الذي يحمله هذا الشهر، وأثره في نفوس الصائمين، إذ إنه ترويض للنفس على البذل والعطاء والمحبة والوئام بين الإنسان وغيره، لذلك تعالت في نصوص رمضانيات شعراء الإمارات قيمة المحبة المجتمعية والإنسانية بشكل يعكس تأثير أجواء هذا الشهر الكريم في قلوب صائميه، فنقرأ لدى مانع سعيد العتيبة هذا المعنى الذي جعل به رمضان حافزاً لاستعادة المحبة في القلوب، فهو يراه، كالكثير، ترياقاً لأدواء القلوب العليلة التي نال منها الشقاق والكراهية والبغضاء، وهو فرصة لتعزيز روابط الإخاء والتلاحم، والوفاء لقيم رفيعة متجردة بأصحابها من نوازع أثرة الحياة المادية[1]:

جعـــلَ الإلهُ الصـومَ فيكَ فريضـــةً
يرضى بـــها عن عبـــده الخـــلاقُ
وتنـــزّلَ القـــرآنُ فيـــكَ مُثبـــتاً
إيـمانَ من في الصالحـــاتِ تلاقـــوا
معك القلـــوبُ تـعودُ للحـــبِ الذي
هو للـــروحِ ونزفِهـــا الترياقُ

وقد اتسع الشاعر بهذه القيمة من إطار مجتمعي إلى إطار قومي، متمنياً ببركات ونفحات هذه الأيام المباركات أن تنتهي سموم الخلاف ومأساته بين أبناء الأمة الذين تجمعهم روابط متينة، وأن تستعيد القلوب المحبة التي غرسها بتعاليمه خير الورى الذي نمضي على خطاه[1]:

رمضـانُ أدعـو الله فيـكَ بحرقـةٍ
والهـمُّ في وسـطِ الحَشا حـرَّاقُ
ننسى الـخلافَ ونستعيـدُ محـبةً
الكـلُّ لاسترجاعهـا مشتـاقُ

يـــــاربُ نـاداك الفـــؤادُ ورتلـــــتْ
آيـــاتِ قـــرآنِ الهـــدى الأعمـــــاقُ
أنـــتَ السـميعُ المستجيـبُ ومـــا لـنا
إلاك أنـــتَ ليُستعـــادَ وفِـــــــاقُ
ذا مـــا تعلمنـــــاه مـن خيـــر الـــورى
طـــهَ الرســـولِ وذا هـــــو الإشـــراقُ

إن رمضان في وعي الشاعر الإماراتي إشراقة نور قدسية يقتبس منها قيمه الأخلاقية التي تدعوه إلى المحبة، وهو سكينة روحية تسري في نفوس المتعبدين المتضرعين إلى الله بالطاعات، يتطهرون فيه من كل ما يدنس أفئدتهم، أو ما يمس فطرتهم السوية، وهو منهل الخيرات، تقترن فيه فضائل الأعمال والتقرب إلى الله بالطاعات وإنصاف النفس من ذاتها، بطهارة القلب والسماحة والهدى، ثم كل ذلك يقترن بوحدة القلوب على المحبة، وهو ما يلتقي على المعنى الأعمق للعبادة ومقاصدها التي يجعل فيها المسلم طاعاته سبيلاً للصلاح والإصلاح، وأن يغتنم أيام دهره وما فيها من خير لتشرق شمس سعادته وسعادة كل من حوله بالقيم الرفيعة التي في مقدمتها التماسك والتلاحم بين أبناء المجتمع، يقول سلطان خليفة[1]:

تهفـو قـلوب المؤمنيـــــن لنـــــوره
ويعمهـــم بالفـــضل والخيـــــراتِ
رمضـــان رمـــز للمحبـــة والعطـــا
للذكـــــر للإحســـان للرحمـــــاتِ
يدعو العبـــاد إلى السماحـــة والهـــدى
وعـظ الحكيـــم إليـــهم بعظـــات
يـــا سائليـــن اللـــه كونـــوا عصبـــةً
عـــودوا إلى البـــاري بكـــل ثـــبات
أدوا الصيـــام وأحسنـــوا لفقيركـــم
وتقربـــوا للـــه بالطاعـــات
هـــذا هو الهـــدي الذي ينجيكـــم
طهـــر مـــن الأرجـــاس والعثـــرات

إن رمضان يعلم النفوس السكينة والطمأنينة والرضا واليقين بأن المحبة هي شفاء القلوب، ليدعوهم ذلك إلى تعاضُد غني القوم مع فقيره، تقرباً إلى الله، فذاك هو الهدى الحقيقي الذي يتطهر به المتعبدون من كل أدران الشح والبخل والإقتار، وأن يبتعدوا عن عثرات النفس في أدناسها، ليأخذ الصيام أهله إلى وداعة نفس وصفاء روح حين تعيش في معية تلك النفحات النورانية التي تنغمس في الطاعات، فتروي القلوب

سكينة، وتسلك الروح مسالك النجاة التي تستجدي فيها العفو والغفران، وتمتثل لحسن المناقب والسجايا التي يسمو بها الإنسان إلى مدارج من نور، يقول الشاعر في قصيدته (رمضان يا حبيب المؤمنين)، التي أتت من شعر التفعيلة[1]:

فيه التجرد
والعبادة والطهور
يا مؤمنين..
فلننتهز شهر الوفاء
ولنعبد الرب الكريم
ونسير في درب النقاء
لنكون بين المخلصين

تحمل الأسطر الشعرية ما يدور حوله كثير من التجارب في هذا المعنى الديني الذي يمتزج ببعد اجتماعي في تأثير هذا الشهر الكريم في النفوس من التطهر والاستشفاء من أوزار الحياة، ليتراحم الناس بعضهم بين بعض، وتسير خطاهم في دروب الورع والصفاء والإخلاص سراً وجهراً، مع الذات والغير، إذ إن هذا الشهر الذي شهد نزول دستور الإنسانية في التآلف والرحمة والإخلاص ونقاء السريرة، وارتهان صدق العبادة بالأخلاق القويمة، هو الجامع بين كل تلك القيم النبيلة التي يتغنى بها الشعراء.

فالشاعرة عزة بنت خادم في قصيدتها (من وحي القيام في رمضان) تنطلق من التبتل بين يدي الخالق، عز وجل، بقراءة

القرآن، وصلاة القيام بين حشد المتبتلين الذي تزاحموا وكأنهم مواكب من نور يمضون في رحاب المسجد الذي يجمع تلك القلوب الخاشعة، إلى أن تصل بهذه الغاية القيمية في التعبد وأجواء هذا الشهر المبارك، حين يوقظ في النفوس شوقاً عميقاً إلى هذه الأجواء الروحانية التي تلازم فيها العبادة تطهيراً للقلوب وراحة لها وشفاءً لما فيها من أدران الحياة، تقول[1]:

أيا قـــــارئَ القـــرآنِ هيّجـــتَ لوعـتي
وهيّـــجتَ في الأوصـالِ نوراً عشقنـــــاهُ
أيا قارئـــاً أيقظـــت فينا مشاعـــــراً
بها الشـــوقُ في عمقِ الفـــــؤادِ وجدناهُ
ويا واعظـــاً.. هذي القلـــوب كليلـــةٌ
وكـــم من رجـــاءٍ فوقهـــا قد أذبنـــاهُ
كتابٌ شـــفاءٌ للقلـــوب وراحـــــةٌ
فيا دقةَ الأرواحِ هـــل غُصـــتِ مَـــرآهُ

وهو المعنى الذي اقتربت منه الشاعرة كذلك في أحد دواوينها الأخرى الذي تضمّن قصيدة (شهر الصيام) التي تستهلها باحتفائها بهذا الشهر الذي يداوي أدواءها واعتلال قلبها[1]:

كيفَ احتفـــتْ فيه أيامـــي وأعضائـــي
وقد تولّـــى حثيثـــاً بعـــد إســـراءِ
هل احتفيـــــتُ بتكريـــم لمقدمِـــــه
وكنـــت أرقبُـــه طبـــاً لأدوائـــي

فرمضان في واقع الأمر هو تربية روحية وإكرام للنفس، تُنتهز فيه الفرص بالتطهر وتهذيب الطباع، وحماية للنفس من الأثرة، ومن ثم هو ارتقاء بها إلى المعنى الأعمق للإنسانية، لذلك لم يتوقف الشاعر الإماراتي في رمضانياته عند عادات وتقاليد مجتمعية في مأكل أو مشرب أو مجالس السمر أو غير ذلك مما قد يختلف فيه مجتمع إلى آخر أو حقبة تاريخية إلى أخرى، وإنما أراد إبراز هذا الأثر القيمي والروحي الذي يحدثه هذا الشهر في تشكيل وجدان الفرد وبناء المجتمع بالقيم التي ترقى بالنفوس إلى مدارج الطهر والنقاء والمحبة والتصافي فردياً ومجتمعياً وإنسانياً ■

كاتب وأكاديمي مصري

المصادر والمراجع:

1. د. مانع سعيد العتيبة، المرايا، حقوق النشر محفوظة للمؤلف، أبوظبي، ط 1، يوليو 2015م، ص 92.
- مانع سعيد العتيبة، من مواليد 1946م في أبوظبي، حصل على درجة الدكتوراه في الاقتصاد والعلوم السياسية من جامعة القاهرة، ودرجة الدكتوراه في الأدب العربي من جامعة سيدي محمد بن عبد الله في المغرب، عمل وزيراً للبترول والثروة المعدنية (1972-1990)، وهو أحد أهم الأصوات الشعرية الإماراتية، أصدر أكثر من أربعين ديواناً ما بين الفصحى والنبطي، إلى جانب دراسات عدة في الاقتصاد. (دليل الأدباء بدول مجلس التعاون لدول الخليج العربية، من إصدارات الأمانة العامة لمجلس التعاون لدول الخليج العربية، دار المفردات للنشر والتوزيع، الرياض، ط 1، 2008م، ص 50).
2. المصدرالسابق نفسه، ص 93 وما بعدها.
3. هنا همسات، سلطان خليفة، مطابع البيان التجارية، دبي، 1998م، ص 208 وما بعدها.
- سلطان خليفة الحبتور: من مواليد عام 1942م في دبي، حاصل على درجة البكالوريوس في العلوم العسكرية من القاهرة عام 1967م، شغل منصبي وكيل وزارة الأشغال، ووكيل وزارة العمل في الحكومة الاتحادية، وهو من شعراء الفصحى والنبطي، من أعماله (وحي الزهور، ذرات الحنين، رذاذ الأماني، شدو الزمن، هنا همسات)، أصدر أعماله خلال الفترة ما بين الأعوام (1978- 1998)، انقطع بعدها عن النشر، وتفرغ لإدارة أعماله الخاصة. (دليل الأدباء بدول مجلس التعاون لدول الخليج العربية، ص 29).
4. المصدرالسابق نفسه، ص 212 وما بعدها.
5. عزة بنت عبد الله بن خادم، قطوف الزمان، حقوق النشر محفوظة للمؤلف، 2000م، ص 72 وما بعدها.
- عزة بنت عبد الله بن خادم: شاعرة تكتب الشعر الفصيح، وهي عضو رابطة الأدبيات، من أعمالها الشعرية قطوف الزمان، ونبع الخواطر، وسبائك فريدة (يُنظر: أحمد محمد عبيد، معجم أدباء الإمارات، وزارة الثقافة والشباب وتنمية المجتمع، أبوظبي، ط 1، 2014م، ص 128).
6. عزة بنت عبد الله بن خادم، نبع الخواطر، دائرة الثقافة والإعلام، حكومة الشارقة، ط 1، 2013م، ص 81.

شهر الصيام
سمته العرب من قبل «ناتق»

محمد حسن الحربي

يروي ابن رجب رحمه الله، في كتابه (من لطائف المعارف) يقول: كان عمرو بن قيس - رحمه الله - إذا دخل شعبان: أغلق تجارته وتفرّغ لقراءة القرآن. وكان يقول: طوبى لمن أصلح نفسه قبل رمضان. (إن صيام شهر رمضان عبادة، وترتيبه التاسع بين شهور التقويم الهجري، وهو أحد أركان الإسلام الخمسة، وله مكانة خاصة لدى المسلمين في العالم كافة. فيه ليلة القدر (وهي خيرٌ من ألف شهر)، كما وصفها الله سبحانه وتعالى في محكم تنزيله.

قبل الإسلام، ونزول الوحي على النبي العربي القرشيّ محمد بن عبد الله، صلى الله عليه وسلم، في بداية القرن السابع الميلادي، تحديداً عام 610 للميلاد، بينما كان يتأمل في غارٍ بجبل حِراء في مكة المكرمة، تلك البلدة الجبلية الصغيرة - وقتذاك - المحاطة بأكبر إمبراطوريتين في العالم؛ الساسانية والبيزنطية.. قبل هذا الحدث الإلهي، قبل الإسلام، كان هذا الشهر يحمل الاسم الحالي ذاته (رمضان). وبحسب روايات عدّة كان لشهر رمضان اسم آخر هو (ناتق). المراد الوصول إليه هو أن الصيام - كشعيرة تعبديّة - كان معروفاً في الديانات التي سبقت الدين الإسلامي، لكنه لم يكن مرتبطاً بشهر اسمه (رمضان). الذي يقتصر صيام أيامه الثلاثين على المسلمين حصراً.

رمضان في اللغة العربية

إن معرفة معنى أي كلمة في العربية، دائماً ما يسهّل فهم القصد من الجملة أو النص، أكان ذلك مباشراً أو إيحاءً غير مباشر، أو عن طريق القياس. وذلك موضوع قد نعرض له في غير هذا المقام. إن جذر كلمة رمضان هي (ر م ض) = رمض. ومعناها الحدّة في الشيء. ومنها الحدّة في الحر - أي أقصى شدته - وينسحب معنى الحدّة على غيره من الأمور الأخرى كما سنرى. فالرَّمَضُ إذاً، هو شدّة الحَرّ: السخونة في الحجارة والرمل والتراب والحديد في الأرض الفضاء؛ وهذا بسبب أشعة الشمس. لذلك، وفي بيئة كهذه إذا ما سئل شخص من بادية مكة: ما الحالة؟ ستكون إجابته: إنها (رمضاء). أي إن كل شيء في الخارج ساخن - حار لا يحتمل.

كان أسلافنا من العرب القدماء يستثمرون شدة الحر هذه؛ فيحولونها إلى نعمة ومنفعة؛ فكانوا يتصيّدون الظباء - الغزلان؛ يتبعونها في ذروة الحر من النهار- الهاجرة، وهي تبدأ من وقت الضحى إلى ما بعد الظهر- حتى يرهقونها وتتفسخ قوائمها من شدة الحر فلا تقوى على الحركة، فيأخذونها قوتاً لهم. وكانوا يطلقون على عملية صيد الظباء في الهاجرة: التّرمُض.

لكن حالة التّرمُض هذه التي تدخلها الظباء في حر الصيف، ويستثمرها الإنسان في التقوّت، لا تقتصر على الغزلان فقط، بل تدخلها باقي الأنعام ومنها الغنم؛ فـ(رمض الغنم) يعني تركها ترعى في شدّة الحر وتحت أشعة الشمس، في هاجرة النهار التي غالباً ما تمثل ذروة أيام الصيف. لكن السؤال هل تُستثنى الإبل من أثر الرمضاء؟

الجواب: لا، لا تُستثنى من التأثر بالحرارة الشديدة، بل يجري عليها ما يجرى على غيرها من البهائم. وتطلق كلمة البهائم على الحيوانات ذات الأربع في البر والبحر ما عدا السباع الجوارح، خلافاً لكلمة الأنعام التي وردت في القرآن الكريم التي تعني الإبل والبقر والغنم.

فابن الناقة، الذي يسميه بعضهم الحوّار (وجمعه: حيران). واسمه لدى أهل البادية الفصيل (وجمعه: فِصال). ابن الناقة هذا، عندما يترك في شدة الحر تحت أشعة الشمس بلا ظل واقٍ، فإنه يبرك على الأرض بعد أن تحرق الرمضاء خفافه (جمع خف). لأنه لا يستطيع الحركة؛ فهاجرة الصيف من أصعب أوقات النهار التي يواجهها البشر والحيوان. وهذه المعلومة مهمة لأنها ذات صلة بحديث أهم.

.. ولعله من هنا نفهم - نحن المسلمين - مغزى حديث رسول الله، صلى الله عليه وسلم، الذي يذكّر فيه بهذا الوقت شديد الحرارة من نهارات الصيف، بقوله، صلى الله عليه وسلم:

(صلاة الأوابين إذا رمضَت الفِصال). أي إن نافلة الضحى وهي صلاة الأوابين، أنسب الأوقات لادائها هو في هذا الوقت من النهار؛ حيث رمضَت الفِصال - الحيران - عندما تبرك عاجزة عن الحركة بسبب أشعة الشمس الحارقة وشدة الحرارة. وسياق الحديث يحدد موعد صلاة الضحى. لكن ما علاقة رمضان بالحر؟

حر الجوف شدة العطش

من الطبيعي أن الصائم يرمَض في هذا الشهر لكن بشكل آخر، أي إنه يصيبه الحر غير أنه بمعنى مغاير عمّا يقع على المخلوقات الأخرى في الخارج، والرفض أو الحر المقصود هنا هو ذلك الذي يصيب جوفه من شدة العطش. لذلك سُمّي شهر الصيام برمضان؛ إذ يرمض فيه الإنسان من شدة الجوع والعطش. لكن هذه الرواية ليست الوحيدة حول شهر رمضان، هناك رواية أخرى تقول: إن اسم رمضان ورد بعدما وضع العرب أسماء الشهور قديماً، وسمّوها الأَزمنة، وكان لها علاقة بأحوال الطقس التي تتزامن مع حلولها، فوافق بعض تلك الشهور موسم الندى والمطر، فسمّوه ربيعاً، ووافق زمن آخر أيام رَمَضِ الحرّ وشدّته، فسمّوه رمضان.

وصحة هذه الرواية بين الروايات الأخرى العديدة، نسبتها مرتفعة، سيما أن العرب تُحسن التعبير بمعانٍ حسيّة، لذلك تُسمي حرقة الغيط (الرَّمَض)، وهي لمن جربها حرارة مرتفعة تحرق الجوف. كما تفيدنا لغتنا العربية، فمثلاً نقول: قد أرمضه الأمر. أي أغاظه وأوجعه. وكما قلنا في الاستهلال فإن المعنى هو في الحدّةِ عموماً. لذلك فإن كل شي حادٍ هو (رَميض). يقال: هذا سكين رميض، ونصل رميض، وشفرة رميضة. وإذا أردت ان تصنع من قطعة حديد سكيناً، فإنك ترمِضها بين حجرين أملسين حتى ترقّ وتصبح حادة قاطعة. كما يقال: ارتمضتُ لفلان، أي حزنت له. أما من ارتمضت كبده فقد فسدت، كأنها احترقت.

وسمّت العرب الشهر الفضيل من قبل (ناتقاً). ذكر ذلك الماوردي والزمخشري وغيرهما من الأعلام. لأنه ينتقهم، أي يزعجهم بشدته عليهم، حيث يغيّر من عاداتهم التي ألفوها واعتادوا عليها من مأكل ومشرب وسمر. كما للأصمعي رواية عن أبي عمرو في القول: إن رمضان مشتق من الرمض أي الحر. ومن هذا قولهم في سبب تسميته: لأن القلوب تأخذ فيه من حرارة الموعظة والفكرة في أمر الآخرة، كما يأخذ الرمل والحجارة من حر الشمس.

وبعد:

يبقى شهر رمضان المبارك، رغم ما في اسمه من حرارة، وما في صومه من مشقة، هو شهر أخرويّ الروح، وهو موسم للغفران، ومحطة للبرّ والإحسان، وسبيل إلى الرضوان. فاللهم تقبل صيامنا وقيامنا ■

إعلامي وكاتب إماراتي

الصيام ومستقبل الأثر الروحي

لولوة المنصوري

نكبرُ ونفتقد مع الزمن تفاصيل عميقة وردت في التربية وفي الأثر وتقاليد الوصل السماوي مع الذات. وتكبر معنا الخشية من فقدان الكثير في ظل العولمة والانفتاح على الثقافات والهويات المختلفة.

لقد كان رمضان ومازال هو الشهر الجذّاب لشعوب الأديان الأخرى، وأعرف شخصياً الكثير ممن دخلوا الدين الإسلامي بعد تدبّر عميق في الفكرة الروحية للصيام الرمضاني والخلوة الآسرة في ليالي السحروالتفاف الأسرة على المائدة، والتجمع والألفة والالتحام في صلوات التراويح وأهازيج استقبال رمضان في الأيام العشرة الأولى، وتراتيل وداعه في العشرة الأواخر.. وغيرها من الأجواء الرحيمة المحببة والدارجة ضمن أركان الصيام والعادات والتقاليد السمحة.

ولي وقفة حسية هنا مع طاقة الصيام ومستقبل المعنى الروحي الذي يتذوقه الصائم في نهارات شهر رمضان الكريم.

قد لا نختلف حول أن الصوم في رمضان أكثر مدعاة للتدبر من الأيام الأخرى، ذلك أن الوعي الجمعي مركز في رمضان حول شعيرة الصيام، وهذا التركيز الجماعي من شأنه أن يكبر من الحقل الطاقي للأرض، فتتوحد النفوس والأدعية والاهتمامات والنوايا الطيبة، ويتعززفي اللاوعي بذور الثبات على الامتناع من الأكل والشراب وسائر المفطرات وفق الميقات المحدد وحسب طبيعة كل بلدة وأرض.

ولكن يبقى التساؤل دائراً: ما هو الأثر الروحي لرمضان؟ ولماذا بات مستقبله ذائباً في دائرة الغياب والتناسي، مكتفين بالفكرة السطحية المادية فقط (الامتناع عن الطعام)؟

يُعد الصيام وسيلة من وسائل التنظيف الجسدي من السموم المتراكمة عبر السنين، وسيلة تحررية من الصدمات والمخاوف والأحزان والاكتئاب، طريقة لفتح مسارات الطاقة في الجسد، بعد أن غلّقت التخمة تلك المسارات الطاقية.

الصيام تسهيل للدخول في عملية الخلوة والمحراب الروحي عبر فتح أبواب التنفس الكامل والصمت العميق والتركيز على العالم الداخلي، وهي إحدى الرياضات الروحية التي درجت عليها الكثير من الأديان القديمة وثقافات الشعوب العريقة المتصلة بالكون، مع اختلاف الطرائق والطقوس والشعائر والمواقيت والكثير من التفاصيل، إلا أن الجوهر باقٍ وخالد في الأعراف والأطياف كلها والمتمثل في السلوك القويم نحو السفر الداخلي ووصال الله.

الصيام مُرتقى الروح واتصال الروح بخالقها وتطهير للقلوب وولوج لأبواب الخلاص من الدنيوي، وسيلة للتوسع بالوعي وتفعيل الإرادة وتنظيم النوم وتأمل الهدأة. وهو السبيل إلى حالة ترتقي فيها طاقة الخلق والإبداع، ومفتاحاً لتفعيل المشيئة الحُرَّة والخيار الشخصي، تكون أنت القائد على جسدك وحياتك وسماوات فيض وصالك مع الله وذكر ملكوته.

الصيام ارتقاء في طاقة الخلق والإبداع وتفعيل للحواس، فأنت مدعوم في الأحوال كلها، سواء بدعم الوعي الجمعي أو بالدعم الكوني المُطلق. أنت السيد على عرش ذاتك، بالصبر والتحدي والمثابرة والإرادة والاستمرار والصمت الروحي، وسريعاً ما تُطلق أجسادنا تردد التشافي والتحرر، وعن طريق الحضور في اللحظة والانغماس في لذة التجربة الروحية تتجسد الأمنيات بعد عيد الفطر، يأتي العيد وأنت بنسخة جديدة منك، وكأنك

وُلِدت من جديد، فإذا أتى العيد وأنت بنسختك القديمة فكأنك في الحقيقة لم تَصُم.

هذا هو المعنى الروحي لرمضان والصيام في نهاره، القيمة العميقة الأصيلة التي بتنا نلحظ غياب استشعارها في النفوس، في ظل استشراء الراحة وطاقة الاستهلاك وانتشار المشتتات اليومية.

ربما ولسنوات طويلة كنا نطفو على القشرة الخارجية لدلالة الصيام، فباتت الروح تبتعد ولا تصطفي شيئاً من المادة سوى أبواب الأدعية في الخلوات، إن الجسد بحاجة ماسة أيضاً للفكرة العميقة حول الصيام، فلا غنى عن الجوهر، يتعب الجسد ويمرض سريعاً بمجرد تكريسه لخدمة الفكرة السطحية للصيام التي مفادها ليس الامتناع عن الطعام والملذات فحسب. بل لابد من أن نتذكّر دائماً الفحوى الأصيلة

> **الصيام** مُرتقى الروح واتصال الروح بخالقها وتطهير للقلوب وولوج لأبواب الخلاص من الدنيوي، وسيلة للتوسع بالوعي وتفعيل الإرادة وتنظيم النوم وتأمل الهدأة

للصيام كي يختفي الإدراك العادي والمُضلل، ونعيد العمل على أنفسنا على الصعيد الروحي، فنتجاوز بذلك كل ما هو مؤقت وفانٍ. وأمر إدراك شهر رمضان في رسالته العميقة بمثابة فرصة جديدة لإعادة جدولة الحياة وتنظيم الجسد وتجلٍ جديد لفهم أكبر وأوسع لجوهر الصيام. وهذا انعكاس كامل لفكرة أن يكون للإنسان الحرية الروحية في إدراك العالم ■

باحثة وروائية إماراتية

التراث الرمضاني في الإمارات:

استدامة الثقافة والتقاليد في ظل التطور التكنولوجي

منى حسن

تعتبر أيام شهر رمضان الكريم لدى المسلمين أياماً مميزة تجمع بين الروحانيات، والتقاليد الثقافية في معظم دول العالم الإسلامي. ويمثل رمضان فرصة للتواصل الاجتماعي، وتعزيز الروابط الأسرية، إضافة لأهميته في تمكين الانتماء والهوية وغرس قيمهما. وهو مرآة للتعبير عن العادات العربية الأصيلة كالكرم والتضامن والإيثار، ووقت للتفكر والتهذيب النفسي. وتعكس العادات والتقاليد الرمضانية في العالم الإسلامي جوانب متنوعة من الهوية الثقافية والدينية، حيث تتجلى قيم التسامح والتضامن في مختلف الطقوس والفعاليات التي تحيط بهذا الشهر الفضيل.

والمطلع على الموروثات والتقاليد الرمضانية في دول العالمين الإسلامي والعربي على تنوعها، يلمس عمق الترابط الثقافي والروحي الذي يجمع بين مختلف المجتمعات والشعوب المسلمة في هذا الشهر المبارك. ومع التطورات الحديثة، فإن التحديات التي تواجه هذا التراث تتطلب جهوداً مستمرة للحفاظ على أصالته ونقله للأجيال القادمة بطرق مبتكرة وملهمة. ذلك أننا نبصر، ومن منظور إيجابي لاستخدام التكنولوجيا ووسائل التواصل الاجتماعي، فرصاً جديدة لتعزيز هذا التراث ونقله عبر الأجيال، وإلى العالم بشكل أكثر فاعلية وجاذبية. وذلك من خلال التركيز على التثقيف ورفع مستوى الوعي، بالإضافة إلى الاستفادة المثلى من التكنولوجيا، مما يمكننا من الحفاظ على هذا الإرث الثقافي العظيم، والمنظومة الأخلاقية التابعة له، وتعزيزه لصالح الأجيال القادمة.

التراث الرمضاني في الإمارات: تتجسد العادات والتقاليد الرمضانية كمظهر من مظاهر الهوية الإسلامية والعربية والثقافية الأصيلة في دولة الإمارات العربية المتحدة. وتشهد دولة الإمارات كدولة متقدمة تقنياً في شهر رمضان المبارك تلاقياً بين العادات والتقاليد الموروثة وتحولات التكنولوجيا الحديثة، ما يجعل الحفاظ على التراث الرمضاني وتطويره أمراً ضرورياً لضمان استدامة الهوية. وتبدأ الاحتفالات برمضان في الإمارات عادة بحق الليلة، وهي ليلة النصف من شعبان، حين يلبس الأطفال الملابس التراثية الإماراتية، ويطرقون الأبواب بالغناء والدعاء، وهم يرددون: «عطونا الله يعطيكم.. بيت مكة يوديكم»، طلباً لحق الليلة، ويتم استقبالهم بالحلوى والسكاكر والابتهاج، ثم تستمر الاحتفالات بعادات تتعلق بتجهيز مستلزمات رمضان «المير»، وصولاً إلى قوائم الطعام التراثية، والمأكولات الإماراتية التقليدية. فمع بداية شهر رمضان، تملأ البهجة فضاءات البيوت، وتزخر الموائد بأشهى الأطعمة والحلويات التقليدية التي تعد جزءاً لا يتجزأ من تراث المطبخ الإماراتي، ومنها ما يكون خاصاً بالشهر الفضيل خاصة الذي يحتوي على التمر منها، حيث تشمل الوجبات الرمضانية المأكولات المحلية مثل الهريس والثريد، إلى جانب الحلويات التقليدية مثل القرص والمعجنات التي تحضر بطرق ذات خصوصية خليجية إماراتية والتي تقدم عادة للضيوف الذين يزورون بعد صلاة التراويح، متخذين من الشهر الفضيل فرصة للتلاقي وصلة الأرحام ومعرفة أحوال بعضهم بعضاً... هذه لمحات من الصور والمظاهر التي يتجلى فيها غنى الموروث والثقافة الرمضانية في الإمارات.

ومع تقدم التكنولوجيا والتحولات الاجتماعية التي تبعتها، يواجه هذا التراث تحديات عدة في الحفاظ على هويته وأصالته. فانتشار وسائل التواصل الاجتماعي وتغيير نمط الحياة، قد يؤدي إلى تهميش بعض العادات والتقاليد الرمضانية الأصيلة، التي يظل الحفاظ عليها ضرورياً في سبيل الحفاظ على القيم الأخلاقية السامية، والهوية، وتعزيز قيم الوطنية والانتماء، واستدامتها. وهنا تبرز أهمية التثقيف

تعتبر أيام شهر رمضان الكريم لدى المسلمين أياماً مميزة تجمع بين الروحانيات، والتقاليد الثقافية في معظم دول العالم الإسلامي. ويمثل رمضان فرصة للتواصل الاجتماعي، وتعزيز الروابط الأسرية، إضافة لأهميته في تمكين الانتماء والهوية وغرس قيمهما

والتوعية بأهمية العادات والتقاليد الرمضانية ورفع مستوى الوعي بها، وذلك عبر تنظيم مبادرات تثقيفية في المدارس والمجتمعات لتعريف الأجيال الجديدة بأهمية هذا التراث الذي يتجاوز كونه فرضاً دينياً ليكون بطاقة تعريف بالمجتمعات الإسلامية وعاداتها وتقاليدها السمحة. وتوظيف التكنولوجيا ووسائل التواصل الاجتماعي بشكل إيجابي في التثقيف بالتراث الرمضاني، وذلك عبر مشاركة الفعاليات والأنشطة التقليدية عبر الإنترنت وتوثيقها بشكل جاذب ومبتكر كما يلعب التفاعل المجتمعي دوراً مهماً في الحفاظ على التراث، وذلك عبر تشجيع التفاعل والتواصل بين أفراد المجتمع خلال شهر رمضان، سواء من خلال الزيارات المتبادلة أو التبرعات للمحتاجين، وإقامة الموائد الرمضانية، مما يسهم في توطيد روح التكافل والتلاحم الاجتماعي، وتعزيز الاحتفاظ بالقيم الإسلامية والتقاليد الرمضانية في المجتمع، واستثمارها في تربية الأجيال الجديدة.ففي شهر رمضان، تتسم الموائد الرمضانية بالسخاء والتكافل، حيث يفتح الناس قلوبهم قبل أبواب بيوتهم لاستقبال الضيوف وتقديم الطعام والشراب للصائمين. وتعد هذه الفترة فرصة لإشاعة المحبة والتشجيع على نبذ التطرف والكراهية، وتعزيز قيم التسامح والتعايش السلمي بين مختلف الطوائف والثقافات في المجتمع الواحد ثلاثية الفن والثقافة والتقنية في رمضان الإمارات إضافةً إلى العادات والتقاليد الرمضانية المعروفة في دولة الإمارات العربية المتحدة، فإن هناك جانباً مهماً آخر يستحق الاهتمام، وهو الفن والثقافة. حيث يشهد شهر رمضان في الإمارات نشاطاً فنياً وثقافياً ملحوظاً، تُقام فيه العروض الفنية والمسابقات الثقافية والأمسيات الشعرية، والمعارض الفنية .التي تبرز الهوية الإماراتية وتعزز التواصل الثقافي بين الأجيال ومع تطور التكنولوجيا، فإن هذا الجانب من التراث الرمضاني يصبح أكثر إشراقاً وتميزاً مع إمكانية الاستفادة من وسائل التواصل الاجتماعي والمنصات الرقمية لتعزيز الفعاليات الفنية والثقافية خلال شهر رمضان، مما يسهم في توسيع دائرة المشاركة والتفاعل مع هذا الجانب المهم من التراث الثقافي. كما يمكن الاستفادة من التكنولوجيا في توثيق العادات والتقاليد الرمضانية، ونقلها للأجيال القادمة بطرق مبتكرة ومشوّقة عبر تقديم معلومات ونصائح حول كيفية الاحتفاء بالشهر الفضيل، وذلك من خلال إنشاء تطبيقات خاصة توثق التقاليد الرمضانية وتقدم معلومات ونصائح حول

العبادات وأحكام الصوم، وكيفية الاحتفال بالشهر الفضيل. وتنظيم مسابقات عبر الإنترنت وورش عمل تفاعلية لإحياء العادات والتقاليد الرمضانية أيضاً، وبذلك يصبح الجميع قادراً على الوصول إلى هذا الثراء الثقافي بسهولة ويسر مما ينمي قيم التواصل بين أفراد المجتمع ويعزز الانتماء للهوية والوطن وللإمارات مجهودات عظيمة في التثقيف والتوعية بأهمية شهر رمضان، حيث تصدر الهيئة العامة للشؤون الإسلامية والأوقاف الإماراتية في كل عام مجموعة من الكتب التي تشرح العبادات المتعلقة بالشهر الفضيل، وتضيء جوانب العلاقات الاجتماعية بلغة مبسطة سهلة الفهم لجميع فئات المجتمع، والتي تصبح فعالة حين تكون مواكبة ومتاحة عبر تطبيقات الهاتف الجوال. كما أن الطقوس التي تمارس في رمضان تعطيه طعماً خاصاً وأبرزها الإفطار الجماعي والإفطار في الشوارع في الخيم الرمضانية التي تحرص الدولة على إقامتها وتستقبل فيها فئات المجتمع جميعها على اختلافها عاكسة صور التعايش السلمي في الإمارات في أبهى صوره.

ختاماً، باعتبار رمضان فرصة للتقرب والتواصل بين الناس، ومدرسة أخلاقية توارثت قيمها وتقاليدها الأجيال المتعاقبة، فإن الحفاظ على التراث الرمضاني والعادات والتقاليد المرتبطة به يعد أمراً ضرورياً لإبراز الهوية العربية والإسلامية، وتعزيز المواطنة والتلاحم والتكافل الاجتماعي في دولة الإمارات العربية المتحدة وبقية الدول العربية والإسلامية. ومع استخدام التكنولوجيا بشكل إيجابي، يمكننا أن نضمن استمرارية وجود هذا التراث، واستثمار أهميته في استدامة الأخلاق الحميدة والقيم السامية والعادات الحسنة عبر الأجيال ■

كاتبة من السودان

التراث الرمضاني في منظور الهوية الوطنية

محمد نجيب قدورة

من منا لم يتفاعل مع السلوك الشعبي النبيل الذي يجسد التلاحم الاجتماعي والتكاتف والتراحم الإنساني في ما يحمله شهر رمضان الكريم من مبادئ وقيم إنسانية يتم من خلالها الانفتاح على الآخر رغم كل التغيرات التكنولوجية والاقتصادية والسياسية. ولا عجب فلكل شعب معانيه في الشكل والدلالة والأداء والاحتفاء وفي السلوك اليومي المعتاد أو الطارئ، في العبادات والأسواق والأعمال، كل ذلك يكون تربة خصبة لحكايات لها أول ومالها آخر؛ لأنها تحولت إلى موروث مستدام في البنية السردية والمتخيل المحكي في المعاني والسلوكيات في المنظومة التراثية المترامية الأطراف.

الجاهزية المجتمعية

قبل أن يحين موسم شبيك لبيك، تبدو في الأسواق علامات تظهر السلع الرمضانية من المشاريب والنواشف والأواني والدِّلال (شاي، قهوة، عرقوس، وتمرهندي، وقمر الدين) ودقيق للمعجنات والقطايف، وسميد للحلوى، ومكسرات للحشوات. ناهيك عن قمح الهريس دون أن ننسى المحلب، والقرفة، وشيء من الزعفران، والزنجبيل. ثم في مجالس البيوت، تعديلات وغسيل ستائر وتجهيز برزات، فكيف إذا كنت من ذوي الجاه أو المسؤولين، لا بد أن تضع في حسابك التكاليف كماً وكيفاً، والتأكد من سلامة المطابخ والمطاعم واستعدادت في نصب الخيام وشيء من نثريات خيرية.

كل هذا أمسى سائداً في العرف الاجتماعي، وربما هو مما تستدعيه الذاكرة الرمضانية كل عام، إنها حبكة من أساسيات التقاليد الواقعية غير المستهجنة استهجان الطوارىء.. والناس في استبشار بقدوم الضيف الكريم بتوليفة من الرغبات والمودّات ليتم الاستعداد إلى اليوم التالي مع دعاء شفاف حنون: (اللهم بلغنا رمضان).

هلاليات

المأثور الشعبي أن كلمة (هلال) يشيع ترددتها كتغريدة تأهيل

بـ (هل هلالك) اللحظة ثمينة، والرؤية بالعين أو سواها في ليلة اللمسة الأخيرة من شهر شعبان، فإذ لم ير الهلال لغيم أو نحوه فالحكم إتمام شعبان بـ 30 يوماً حسب التقويم القمري وهناك حسابات لأهل الرؤية الهلالية في التحري والإثبات تحددها المحاكم العليا المرتبطة بالمراصد، وبالطبع هذا ينطبق على هلال آخر يوم في رمضان للدخول في يوم عيد الفطر السعيد بهلال شوال، وبالطبع كل ذلك تحت معيار ديني في حديث الرسول صلى الله عليه وسلم: صوموا لرؤيته وأفطرو لرؤيته، فإن غمّ عليكم فأكملوا العدة ثلاثين. وهنا في الرؤية استبشار وتهنئات وأفراح، فشهر رمضان كريم، منزله طيب، وكيف لا يكون كذلك وفيه ليلة القدر ونزول القرآن.

هوية رمضان في السجل التاريخي

إذا أردنا أن نعرف قيمة هذا الشهر الكريم فلا بد أن نسرد المحطات الرائعة التي كان موقعها في أرض (بدر) على طريق القوافل الشامية بين مكة والمدينة أسفل وادي الصفراء، فالسجل انتصار مبارك.

أجل إنها سلسلة من روائع وفق المحورية ففي رمضان تم فتح مكة ومعركة بلاط الشهداء وفتح عمورية وانتصار حطين وعين جالوت وصولاً إلى حرب أكتوبر وكثير من انتفاضات لا تبلى جدّتها وحيث كانت معركة بدر الكبرى هي أم المعارك لأنها أكدت القوة الروحية السامية التي تزيل عهد الوهم والوهن عن القلوب لتبقى في الذاكرة الشعبية عبرة لفتح الأندلس والقسطنطينية واستعادة الحقوق واسترداد الكرامة بالتضحية وتحقيق معنى الفداء والشهادة كمفاتيح لرحمة الله وجنانه، تقديراً من الله للطاعات في شهر الخيرات.

رمضان لله ونحن في مختبر روحي

بالطبع العقيدة الاجتماعية تصبّ في العقيدة الدينية التي فحواها أن الصيام عمل خارج عن حدود الماديات، فالطاعة لله.. انقطاع عن الشهوات، صبر وتعبير عن علاقة مع الله مرآتها السلوك القويم والتقيد الطاهر وزيادات في قيام الليل وتلاوة القرآن وتزكية النفوس بإطعام وإحسان، فلا عجب إذا سمعنا في الحديث القدسي: الصوم لي وأنا أجزي به.

ربما تساءل أحدهم: أليس الصوم لنا.. تقول في الطعام والشراب الصوم لنا فائدة وصحة وإعادة أولويات والأمر لله جاء في كليته شاملاً الخشوع والدعاء والرجاء وإخلاص النية.

ماذا أقول للسائل وقد أجاب.. فالله ليس بحاجة الأخذ منا مقابل الصيام بل هو يعطينا ويكرمنا.. ألا يكفي أن يكون الصيام ماسحاً للذنوب مزهراً بالأجر إذا صمناه إيماناً واحتساباً وواهباً لنا فرحتين إحداهما في الإفطار بعد الصوم، والثانية فرحة عند لقاء الله.. قالت نفسي كم نحن محظوظون! قلت

الله تسعده لمة العائلة واستواء الصفوف وتلبية النداء.
قالت نفسي: في هذا المختبر الروحي، نحن كما نحن، لكن القلوب ترق والأيدي والعيون والأكف تتوجه إلى سمو في القيم وطهارة في الأبدان هي براهين وإثباتات بما لا يقبل الشك أن هويتنا الوطنية فيها ما فيها من عوامل التفاعل والتواصل التراثي والثقافي بما يكفل الاستدامة والأمان.
إن شهر رمضان حالة روحانية تورث السرور لشهود الحق وهم يمارسون استعمال اللغة بشكل مغاير للعادة فالإفطار غداً على صوت مدفع وتكبير أذان المغرب، والعشاء والغداء اجتمعا في وقت هو السحور الموسوم بالبركة، وبين الإفطار والسحور صلاة تراويح وقيام ليل واعتكاف على عبادات طوعية لا يعرف حلاوتها إلا العارفون المسبحون الله كأنهم في جنان الفراديس مستغرقين.. أجل في رمضان بحث عن الأهلة والليالي في رحلة بحث عن هلالين تواصلا مشكلين دائرة ضوء لبدر تمام، ثم هي ليلة القدر التي يشمّر لها الساهرون والراجلون إلى المساجد في استجابة لذيذة غير قابلة للكسر ولا التحوير.. ألسنا نرى في هذا الشهر الجميل مالا نراه في سواه؟ إنه مهرجان وموسم حسي وروحي تحرك المواجيد أو تثير التساؤلات، فنقول لهؤلاء.. لسنا وحدنا فالصيام سنة كونية كتبت علينا وعلى الذين من قبلنا لتوكيد السيرورة الوجودية عبر الدالات الرسالية، فهناك دائماً سر إلهي لقيمة رمضان تستقطب قيمنا التراثية، فأهلاً بك يا من نحن لنا الشرف أن نكون ضيوفاً عليه.. أهلاً بك يا شهر مراجعة الذات ولا أدري لماذا اسمك مرتبط بالرمضاء التي معناها أرض حميت من شدة وقع الشمس الذي يأتي قبل الخريف فيجد الأرض حارة محترقة، ومن معانيك يا رمضان اشتداد جوف الصائم من مرارة العطش لكنك تبقى في أي فصل جئتنا مدرسة صبر وربيع أمل.. فلك مني رسالة محبة واشتياق...

حكاوينا سيرة وأمثال

قالت نفسي وأين حكاوينا الشعبية في رمضان؟
قلت: كان ياما كان ليلة قدر هي خير من ألف (تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر سلام هي حتى مطلع الفجر) ثم ألم أقصص عليك حكاوينا في السير الرمضانية الكفاحية، على كل حال لن تكوني إلا راضية.. إليك بعض الأمثال الرمضانية:
1 - لا تعيبوا يا قوم إلا على ترك الصلاة والصوم (لبيان الفضل).
2 - صامت يوم واتمخطرت للعيد (العمل السهل لا يطلب به مقابل أعلى).
3 - لو كان (دي الطهي) على دي (النهي) لا رمضان خالص ولا العيد (جي) (ضرورة التوازن).
4 - أصوم وأفطر على بصله (مثل قابل للتأويل ما بين الصبر والقناعة بالأجر عند الله).
قالت نفسي: احكِ ولو حكاية تراثية واحدة.. قلت ما دامت سيرة وانفتحت.
قيل لبشر بن المعتمر: (إن قوماً يتعبدون ويجتهدون في رمضان، فقال: بئس القوم لا يعرفون لله حقه إلا في رمضان، إن الصالح هو الذي يتعبد ويجتهد السنة كلها، جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: يا رسول الله، أرأيت إن شهدت أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله وصليت الصلوات الخمس وأديت الزكاة، وصمت رمضان وقمته فمن أنا؟ قال: من الصديقين والشهداء). رواه البزار وابن خزيمة وصححه الألباني وابن حبان
ثم ألا تكفينا الحكمة التالية لتحديد معنى سردية الصيام:
«إن صمت فليصم سمعك وبصرك ولسانك».
المهم يا نفسي: الصائم في عبادة وإن كان نائماً، وتعلمي يا نفسي أن السنة شجرة والشهور فروعها، والأيام أغصانها، والساعات أوراقها، وأنفاس العباد ثمرتها، فشهر رجب أيام توريقها، وشعبان أيام تفريعها، ورمضان أيام فطامها، والمؤمنون قطافها.
والصيام جُنة، فما أروع الرد على ذاتي وغيري: اللهم إني صائم فارزقنا عمرة في رمضان فلك نصوم وعلى رزقك نفطر ومنك الأجر والجزاء يا كريم يا الله ■

أديب وباحث فلسطيني

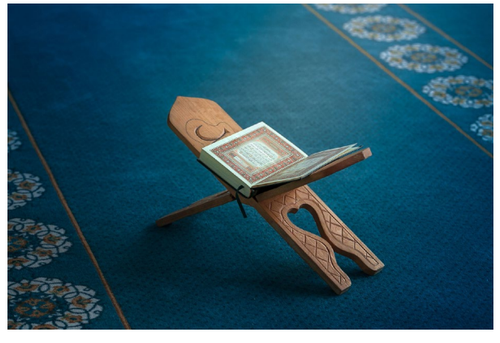

رمضان في الإمارات..

مجالس رمضانية مستدامة وذاكرة محملة بتراث الماضي

فاطمة سلطان المزروعي

يرتبط شهر رمضان الفضيل بالكثير من العادات والتقاليد التي يمارسها المسلمون على اختلاف ثقافاتهم للاحتفاء به، فقد كانت الاستعدادات لرمضان تبدأ قبل دخول شهر شعبان، فكانت الأسر الإماراتية تقوم بشراء (المير) وهي المواد التموينية اللازمة لوجبات الإفطار والسحور، والتي متوافرة في تلك الفترة في أسواق دبي والبريمي وصحار والباطنة، وكان يستغرق الوصول إليها طويلاً قد يتجاوز اليومين إلى أسبوع أو أكثر. وتتم في هذه الرحلات شراء الملابس والأطعمة الجافة مثل الطحين والأرز والمالح والقهوة والتمور، والجلود المدبوغة والمخاريف والحابول وغيرها، أما البدو فيأخذون السدو والجلود المدبوغة وغيرها من المعدات الخاصة بالعناية بالجمال والحيوانات وأنواع السروج والشداد. وكان الارتحال والسفر إلى هذه الأسواق من الممارسات التي يقوم بها الرجال دون النساء، ومن لا يرغب أو لا يستطيع السفر لعدم توفر وسيلة انتقال أو لأي سبب من الأسباب يقوم بتكليف بعض الرجال المسافرين بشراء مستلزماته ولا يحتاج إلى شهود أو عقد كما أن المكلف بالشراء لا يتقاضى أي أتعاب لعمله إنما هي أخلاق ودِّ وتعامل ومحبة لخدمة الأهل والأصحاب.

لقد اعتاد رجال القبيلة الاجتماع معاً لتناول وجبات الإفطار وأحياناً السحور فكانوا يجتمعون عند مسجد القرية يتوسطهم شيخ القبيلة، وكل أسرة تسهم في هذه المائدة بطبق أو أكثر، فتتنوع الأطعمة مثل الهريس والأرز واللحم والثريد والدجاج، وهناك خبز الرقاق والبلاليط واللقيمات والقهوة، ويبدأ تناول الإفطار ببضع من التمرات واللبن والقهوة بعد رفع الأذان ثم يؤدي الجميع الصلاة بإمامة المطوع، وبعد ذلك يعودون لاستكمال إفطارهم على المائدة التي يترأسها شيخ القبيلة وعلى يمينها المطوع وكبار القوم، بينما يجلس الصغار في طرف المجلس ويتم تكليف الصغار ممن هم فوق عشر سنوات بصب القهوة للجميع.

وخلال الجلسات تتنوع الأنشطة المجتمعية وتمتد الأحاديث بشأن الحياة والمشكلات العائلية والخلافات، مثل: مشكلات الزراعة والري والسفر إلى الهند وحكايات البحر والقصص التي كان بعضهم يحكيها عن سفراته.

أما النساء في رمضان فكُنّ يعانين من التعب والمشقة والمسؤوليات، وتتنوع بين الاهتمام بالأطفال والمنزل ورعاية الزوج وتفقد العائلة والزيارات الاجتماعية ورعاية الحيوانات وحلبها وتنظيفها والقيام بأعمال الحياكة والسدو، كذلك القيام بمهام إعداد الطعام وتجهيزات الفطور والسحور وغيرها، فالنساء كُنّ يطبخن الهريس والثريد والبلاليط واللقيمات والخبز المدقوق والخبيص والبثيثة وغيرها من الأطعمة الشعبية التي كانت تسد رمق الصائمين وتقوي عظامهم حتى يستطيعوا القيام بأعمالهم اليومية.

كان الأطفال يحظون بالكثير من التشجيع لصيام رمضان، وبخاصة الصوم لأول مرة، فيحضرونهم لتناول الإفطار مع الكبار، احتفاء بهم ولتشجيعهم والإشادة بإنجازاتهم، وكان الأطفال يتسابقون على الصيام وتحمّل الجوع والعطش والحرارة الشديدة في رمضان ليتمكنوا من صوم الأيام والحصول على التكريم، حيث يقوم الرجال في المجلس بالتحدث إلى الطفل والافتخار بصيامه وحثه على أداء واجباته الدينية، كما يتم منحه كوباً من اللبن وحبة رطب عند أول صيام له يكمله؛ ليكون أول من يفطر من الرجال عند الأذان إكراماً له، وهذا ما يترك الأثر الجميل على النفس طوال الحياة ويحرص الرجال على اصطحاب أبنائهم إلى المجلس لتناول الإفطار وتدريبهم عملياً على العادات والتقاليد العربية الأصيلة في الضيافة وطرق التعامل مع الضيوف وصب القهوة، كما يحتك الطفل بكبار السن ويتعلم منهم الكثير فتقوى شخصيته وتنمو معارفه، مما يساعده ذلك على تحمّل اختبارات الحياة والصبر فكان رمضان فرصة لتعليم الأطفال العادات والتقاليد

وهناك آداب معينة على المائدة في رمضان، فعندما يؤذن المؤذن للصلاة يسمح للصبية الصغار فقط بشرب قليل من الماء ولكن الجميع ينتظرون الشيخ ليكون أول المفطرين، وبذلك يسمح للبقية أن تفطر بشرب اللبن والقهوة وقليل من الرطب وعندما يقوم الشيخ للصلاة يقوم الجميع لذلك يصطفون لتأدية الصلاة خلفه أو خلف الإمام الذي يعينه الشيخ ثم يعود الجميع بعد الصلاة إلى مائدة الإفطار لاستكمال إفطارهم ويتبادلون التهاني والتبريكات والدعوات الصالحات بحلول الشهر ثم ينصرفون إلى أسرهم، وعند صلاة العشاء يتجمعون مرة أخرى حيث تجلب القهوة العربية من كل بيت

والرطب وبعض الحلويات مثل العصيدة والبثيثة وغيرها.

ويقوم الناس بإحياء ليالي رمضان في المساجد، فكان المطوع يتلو القرآن الكريم ويقرأ في السُّنة النبوية المطهرة والأحاديث الشريفة وسير الصحابة والتابعين، وبعض القصص الأخرى مثل قصص الزير سالم وعنترة بن شداد وغيرها. وتعتبر ليلة النصف من رمضان من الليالي الحزينة في التراث المحلي، فهي الإيذان بانتصاف الشهر وقرب انقضائه فيحييها الناس بكثير من الحزن على فراق الشهر الفضيل، وذلك بالتزاور وصلة الأرحام والأذكار والتهجد كما كان المسحراتي يتجول في الطرقات ويدق بطبله وهو يردد بصوت مسموع:

اصحى يا نايم

واذكر ربك الدايم

المسحر هو أحد مظاهر شهر رمضان في الإمارات قبل التطور الذي شهده المجتمع، حيث كان شريكاً رئيسياً في مجالس أيام الصيام والإفطار سواء على مستوى الحضور الشخصي أو على مستوى تزامن عمله مع فترة إحياء تلك المجالس التي

كانت تمتد أحياناً إلى فترة السحور، وكانوا يرددون المدائح النبوية والأناشيد الخاصة بفترة السحور، لقد كان المسحراتي من أهم طقوس رمضان وتفاصيله الجميلة الباقية في الذاكرة فقد كان يضرب على طبلته ليصل إلى أوسع مجال في الفريج، وقد تغير الحال وازداد حجم المدن وغابت مهنته في زحمة الحياة بعد قدوم الساعات والهواتف المتنقلة وغيرها.

وتكثر القصص والحكايات والذكريات، فالمجالس في المجتمع الإماراتي كانت لها مكانة اجتماعية ولها طقوس مرتبطة بالآداب المتوارثة «أباً عن جد»، لقد كان للمجلس دور تربوي وتعليمي وتواصل وتراحم وتعاون، تلك الواجبات الاجتماعية التي نتوارثها جيلاً وراء جيل، فأهل الإمارات اعتادوا في الماضي وخلال شهر رمضان التجمع بعد صلاة التراويح في خيمة كبيرة تُنصب خارج المنزل وذلك بغرض التسامر وتجاذب الحديث في شؤون الحياة أو القبيلة، وما يستجد في الأسواق من بضائع وخدمات والأمور الحياتية، كما ويتناولون القضايا المتعلقة بالعبادات وفضائل شهر رمضان وأثره الصحي والأخلاقي والاجتماعي على الفرد المسلم والمجتمع، وكان هناك حرص في الماضي على إقامة المجالس في الإمارات نظراً لأهميتها وقيمتها في المجتمع في المحافظة على العادات والتقاليد والهوية، فكانت ملتقى للتجار والشعراء والمساجلات الشعرية وفرصة للحوار والتعرف على خبرات الآخرين. وتتناول النصح والفقه وأمور الدين والشريعة، والاستفادة مما ورد في القرآن الكريم وفي قصص الأنبياء عليهم السلام.

كانت المجالس أو الديوانية بمنزلة خيمة أو مجلس لأحد الأعيان في السابق ترتاده مختلف فئات المجتمع، يلتقي فيه الرجال بعد صلاة التراويح لتبادل أخبار التجارة ورحلات الغوص

والاستماع إلى الشعر والشعراء وتبادل الأخبار والمعرفة وكان الصغار يحضرون حتى يتعلموا من الكبار نظم القصيدة ومعارف الحياة وشؤونها، ولم تختلف المجالس اليوم عن السابق بل أصبحت المجالس العائلية والخاصة بالأسر والبيوت لها دور كبير في غرس قيم الاحترام والتقدير والتواضع والتسامح والتعاون، فكانت تجمع بين أبناء العائلة الواحدة وتمكّنهم من التشاور في أمور حياتهم وتوثق عرى التواصل والترابط بين الأهل والأقرباء والجيران ومن يأتي من الضيوف والزائرين، كما لا ننسى دورها في الاستماع للقصص والحكايات والتعرف على الموروث الشعبي من أفواه كبار السن، وتعتبر المجالس في رمضان فرصة للالتقاء بين الأهل وأفراد الأسرة الواحدة والحرص على الأرحام ومناقشة القضايا والمشكلات الطارئة، كما أنها مجالس للترفيه وقضاء الوقت يجتمع فيها الأهل وتدور بينهم فناجين القهوة والشاي، وفي تلك التجمعات في المجالس العائلية في شهر رمضان التي تجمع الصغير والكبير من أفراد العائلة نراهم يشعرون بالمحبة والتراحم ويسترجعون فيه ذكريات الماضي، ويتحدثون عن الذكريات الجميلة والمواقف المضحكة، ولا يزال المجلس ركناً من أركان البيت، إنها مدرسة شاملة يتعلم فيها الكبير والصغير، كل المبادئ والأخلاق ويكبر الصغير في هذه المدرسة وهو يتعلم من أسرته العادات والتقاليد ومواجهة أمور الحياة ومصاعبها وطرق التغلب عليها وكل القيم والمبادئ في التعامل مع التطورات السريعة. وكانت المجالس الإماراتية في رمضان مفتوحة الأبواب ليلاً ونهاراً وتظل مُشرّعة حتى طلوع الفجر، وتبقى مكاناً يجمع الأهل والأصحاب والجيران والضيوف ويتبادل الحضور فيه الأحاديث والذكريات والمشكلات ومصاعب الحياة ويقدم لهم القهوة العربية والهريس وغيرها من الأطباق.

هذه روحانية رمضان في المجالس التي تجدد أواصر التعاون والتآلف وكأنها تعيد روح المجالس العربية القديمة، كما أن المجالس الرمضانية لا تزال تؤدي دورها في المجتمعات الإماراتية وأهم ما يميزها تلك العلاقة الإنسانية والروحية التي تظهر بين صاحب المجلس وضيوفه، كما أن هناك الكثير من المجالس التي لعبت دوراً كبيراً في إحياء التقاليد الرمضانية منها مجلس القرية التراثية في منطقة كاسر الأمواج في أبوظبي الذي كانت تقام فيه الكثير من الأمسيات الشعرية والمحاضرات الدينية وهو تحت إشراف نادي تراث الإمارات وقد تطور هذا المجلس وأصبح يحمل اسم مهرجان القرية التراثية الرمضاني ويشارك فيه نخبة كبيرة من رجال الدين العرب من ضيوف الرحمن الذين كانت تتم استضافتهم لتقديم المحاضرات الدينية في مساجد الدولة ومجالسها على اختلافها برعاية من صاحب السمو رئيس الدولة الشيخ محمد بن زايد آل نهيان - حفظه الله - استكمالاً لنهج الشيخين، الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان، والشيخ خليفة بن زايد آل نهيان - رحمهما الله وطيّب الله ثراهما - كما نرى أن هناك عشرات من الخيم الرمضانية المنتشرة في إمارات الدولة جميعها وتعتبر مظهراً من مظاهر الاحتفال في رمضان، حيث تتم دعوة مجموعة من الشعراء والأدباء ورجال الدين للمشاركة في إحياء الفعاليات الرمضانية التي تستمر طوال شهر رمضان المبارك، ففي هذا الشهر تكثر النشاطات الثقافية بأنواعها كلها ومنها المحاضرات الدينية والفعاليات الاجتماعية والثقافية وأنشطة الجمعيات والأندية والمؤسسات غير الربحية والخدمية لإحياء المظاهر الرمضانية وتعزيز الثقافة الروحية، وتتعدد المجالس ويتنوع دورها الديني والثقافي والتوعوي، مثل مجلس رئيس الدولة صاحب السمو الشيخ محمد بن زايد - حفظه الله - الذي يعقد سلسلة من المحاضرات التي تقدم محتوى نوعياً يركز في جوهره على الإنسان وقضاياه ومستقبله بجانب الأمن والاستقرار واستشرافه المستقبل إضافة إلى رسالة الإنسان ومسؤوليته تجاه الإنسانية، وغيرها من الموضوعات الحيوية من خلال الحوار مع نخبة من العلماء والمفكرين والمبدعين في مختلف التخصصات من العديد من دول العالم الذين يطرحون آراءهم وتصوراتهم نحو المستقبل، ويقدمون فيض تجاربهم العلمية والعملية والحياتية، ولا ننسى المجالس الشبابية التي تنوعت في أنحاء الإمارات السبع كلها وأصبحت تقدم محتوى يتناسب مع القضايا المعاصرة والحديثة التي تهم عامة الشباب وأصبحت تستقطب الكثير من النخب والمثقفين لمناقشة قضايا الشأن العام على المستويين المحلي والأحداث الجارية والعالمي ومافيه من تطورات، كما تقوم وسائل الإعلام بنقلها على صفحات الجرائد وتطرحها بشكل مستمر من أجل نقل الفائدة لشرائح شباب الوطن ورجال المستقبل كافة، وتتسم المجالس الرمضانية أيضاً بموائد الإفطار الجماعية التي تقدم للمحتاجين والفقراء وعابري السبيل والتي تتضمن اللقيمات والهريس والساقو والكاستر والحلويات والفواكه والقهوة والشاي وغيرها من المأكولات الرمضانية التي تزين المائدة الرمضانية.

تعتبر أيام رمضان فرصة لمراجعة النفس ومحاولة تجنب الأخطاء، وبواسطته نعيد ضبط ساعتنا الحياتية التي تشمل صلة الرحم والتواصل مع الناس بالرفق والمودة وفي منح كل محتاج بقدر الاستطاعة أيضاً، حقاً إن رمضان ليس شهر عبادة وأداء مناسك تعبدية فقط وإنما هو شهر يعيد للإنسان توازنه ويكشف له الضوء على ما مضى وكأنه يرشده لطريق الصواب أيضاً. فليكن شهر رمضان فرصة فعلاً لنتغير إيجابياً في الجوانب الحياتية كافة، في طعامنا واهتماماتنا وزياراتنا وعلاقاتنا الإنسانية، ليكن رمضان فرصة لننهل من القراءة من سيرة رسولنا الحبيب صلى الله عليه وسلم وصحابته الأخيار■

الأمير كمال فرج

كانت القصيدة على مرّ التاريخ مخزناً للقيم، ولغةً اجتماعيةً للتعبير والبيان، يحتج بها في المجالس والمواقف، تجيّد الشخصية العربية، وما تتميز به من سجايا، حفظت على مرّ الزمن عاداتها وتقاليدها، خاصة في الأعياد والمناسبات.

وكان أول رمضان صامه المسلمون كما يعتقد في السنة الثانية للهجرة، وبالتحديد قيل: إنَّ فرضَ صيام رمضان كان يوم الإثنين 1 شعبان 2 هـ، وذلك يفسر خلو الشعر الجاهلي الذي يمثل المخزون الرئيسي للشعر العربي من ذكر رمضان، فقد أقرّ الصيام بعد نزول الرسالة المحمدية، حيث بدأ الشعراء يتفاعلون مع الشهر الكريم في رحلة طويلة عبر العصور المختلفة حتى اليوم. ومن هنا بدأ الشعر في توثيق التراث الرمضاني الذي يمثل مكانة مهمة في نفوس المسلمين، بما يتضمن من طقوس روحانية حميمية عرف بها الشهر الفضيل. يقول «ابن زاكور» من العصر العثماني، معبراً عن حالة الحزن والفقد والبكاء الذي تنتابه برحيل رمضان:

«نَبْكِي لِفَقْدِ سَنَاكَ يَا رَمَضَانُ
إِذْ حَفَّنَا لِفِرَاقِهِ أَشْجَانُ
نَبْكِي لِبَيْنِ حُلاَكَ يَا زَيْنَ الْحُلَى
إِنَّ الْبُكَاءَ لِبَيْنِهَا إِيمَانُ
نَبْكِي وَحُقَّ لَنَا وَقَلَّ لَهَا الْبُكَا
لَوْ كَانَ يُسْعِدُنَا جَدىً هَتَّانُ
نَبْكِي الصِّيَامَ وَفَضْلَهُ وَثَوَابَهُ
وَيُعِينُنَا التَّسْبِيحُ وَالْقُرْآنُ»

- ويقول «الصباغ الجذامي» من العصر المملوكي، مشيراً إلى أن رمضان يغسل الخطايا:

«هذا هلال الصوم من رمضان
بالأفق بان فلا تكن بالواني
وافاك ضيفاً فالتزم تعظيمه
واجعل قراه قراءة القرآنِ
صمه وصنه واغتنم أيامه
واجبر ذما الضعفاء بالإحسان
واغسل به خطّ الخطايا جاهداً
بهمول وابل دمعك الهتّان
لا غرو أن الدمع يمحو جريه
بالخدّ سكباً ما جناه الجاني»

رمضان في الشعر النبطي

ارتبط شهر رمضان وامتزج بالتقاليد، والحس الشعبي الذي يعظّم البيئة المحلية وطقوسها الفريدة، التي تعلي من قيم العائلة، كالتواصل والكرم والترحيب بالضيف، والقيام بالواجب، ولذلك كان من الطبيعي أن يحتفي الشعر الشعبي بالشهر الكريم، ويرصد التجليات الروحانية فيه.

«عيسى بن سعيد بن قطامي المنصوري» يرحب في قصيدة بالشهر الكريم في استعارة مكنية، وكأن رمضان إنسان يتم الترحيب به، ويقول:

«يا مرحبا يا شهر رمضان
شهر التهجد والتراويح
رحبت بك اعداد ما كان
واعداد فنٍّ هزه الريح»

- ولم يكتفِ «عيسى بن قطامي» بالكتابة عن رمضان، ولكنه واصل متطلعاً لعيد الفطر في القصيدة المعنونة بذلك، ويقول فيها:

«عيد رمضان تباركوا به
لي في المدن واللّي في لبرور
من فضل لي مشّى هبوبه
يا الله عساهو دوم بسرور
واستأنسوا بعزّ وطروبه
والخير زاد ولا من قُصور»

التعبير عن الذات

ويتعمق «حميد بن خليفة بن ذيبان»، فيتوجه إلى ذاته، ويُعبّر عن حنينه للعيد، وتشوقه للمسة حنان تخفف ما يعانيه، يقول في قصيدة «لمسة حنان» التي كتبها قبل دخول شهر رمضان:

«أرتقب منكم نبا صوبي يفيد
عن تباشير ارتقبها من زمان
عيد هذا اليوم عن عيدي بعيد
عيّدوا غيري متى عيدي يبان
من شهر شعبان زوري والوريد
جفّ عندي قبل صوم رمضان»

- رمضان فرصة لتهنئة القادة والمسؤولين، كما فعل «سعيد بن محمد بن هلال الظاهري» الذي كتب مهنئاً الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان - طيّب الله ثراه - بقدوم شهر رمضان، يقول

«نهنّي بشهر الحقّ والدين
السيد الريّس برمضان
ونرفع تهاني اشْعرأ «العين»
يزفّها المخرج الفهمان
عْدتم عليه أعوام وسنين
بْفضله المعبود سبحان»
نحنا بهذا الشهر شفقين

شهـــــــرتنامـــى فيـــه الإيـــمان»

- أما «علي بن رحمة الشامسي»، فيعبّر عن تشوقه لليالي رمضان، وفوائده الروحية والاجتماعية، ومن بينها الجلوس مع الأصدقاء في مجالس الأنس التي تغشاها الرحمة والرضا، يقول في قصيدة «شهر مضان»:

«بنـــشدك يـــــا «بو خالـــــــد»
ويـــــن أيـــــام رمضـــــــــان
شهـــرٍفيـــــــه الفوايـــــــد
والديـــــــن والغفـــــــران
وانتـــــــه ويانـــــا قاعـــــد
فـــي المجلـــــس الفنّـــــان
علـــــى ذيـــــاك المسانـــــد
واهـــل الكـــــرم والشـــــان»

- ويعبر «محمد بن سلطان الدرمكي» عن فرحته بهلول شهر رمضان، مؤكداً أن قدومه يعني الرخاء والأمان، يقول في قصيدة «شهر رمضان»:

«هلّ رمضان وهـــلّ بالدين والإيمـــان
قدومه رخـــا وامان صرنـــا نهلّي بـه
ونستغفـــر الرحمـــن رب السماء ديان
ويا شيـــخ واجبنا قدومه نهنّـــي به»

- وفي قصيدة يغلب عليها الحكمة، يشيد «سالم بن خميس بن عبد الله الظاهري» «الكاس» بشهر العبادة، معدداً فضائله، يقول في قصيدة «في الحفظ يا شهر العبادة يا رمضان»:

«في الحفظ يا شهر العبادة يا رمـضان
ما جور من صامـــه وكمّل صيامـــه
شهرٍ مبـــارك فيـــه نـــزل القـــرآن
فرضٍ عليـــنا نصـــوم عدّة أيامـــه
صمنـــا وصلينـــا ونطلب الغفـــران
من عمـــل طيّـــب عند ربه علامـــه
فرضٍ عليـــنا ركـــن من ركن الإيمان
على أمّة محمـــد لين يوم القيامـــه»

السمات الموضوعية والفنية في الشعر الرمضاني

المتابع للشعر الذي تناول شهر رمضان، وهو كثير، فما من عصر إلا وقدم القصائد التي تتناول الشهر الكريم، سيكتشف أنه اتسم بسمات معينة، مرة على مستوى الأفكار «الموضوع»، ومرات على مستوى التناول «الأسلوب الفني».

السمات الموضوعية

السمات الموضوعية هي علامات عامة كالأفكار والأغراض والتوجه الفني والتأثر أو التناص مع الموروث وخلافه، وهي سمات قد تتغير من عصر إلى آخر وفقاً لظروف معينة، وبالنظر إلى الشعر الرمضاني نلاحظ وجود سمات موضوعية عامة، هي

1 - الوعظ والإرشاد

ركز شق كبير من أشعار رمضان على الجانبين الوعظي والإرشادي فيه، وذلك شيء طبيعي، باعتباره مناسبة دينية، يستحضر فيها المرء مكانة هذا الشهر الكريم، وثوابه العظيم منتهى أمل كل مسلم وهو الجنة، هذا الاتجاه كان هو المسيطر، ورغم أن ذلك على المستوى الفني علامة على المباشرة والتقليدية، فإنه مبرر لقيمة الشهر والعطايا المهمة فيه.

2 - التهاني والعلاقات الاجتماعية

الشهر الكريم مناسبة دينية في الأساس، وهو فرصة للقاء والتزاور ودعم الجانب الأسري، وهو ما يستوجب التهاني وتوطيد العلاقات الاجتماعية، لذلك استأثرت التهاني على جانب ليس بالقليل من الأشعار الرمضانية.

3 - الشوق والفقد

القيمة الدينية والمعنوية لشهر رمضان أعلت من أسلوبين تعبيرين في الشعر، الأول التعبير عن الشوق لقدومه، والثاني

الحزن لرحيله، هذان البعدان أضافا الكثير للموضوع، ربما تلك المناسبة الوحيدة التي تحظى بهذين الموقفين المتناقضين الفرح والحزن، وهو ما أثرى التجربة الشعرية الرمضانية.

4 - استشراف العيد / الجائزة

طبيعة الشهر الكريم التي ترتكز على الصوم لمدة شهر كامل، ثم الإفطار في العيد، عظّمت قيمة العيد، فبعد الالتزام بالصوم والتقرب لله بالعبادات والأعمال الصالحة في الشهر الكريم هناك جائزة كبرى لكل مسلم وهي العيد، وهذا العيد يتعدى المعنى اللغوي والمناسباتي ليقدم أبعاداً أخرى كالعفو، والمغفرة، والعتق من النار، وتلك الجوائز الكبرى كانت إضافة لقصيدة رمضان، فقد منحها «العيد» الروحانية والاجتهاد من ناحية، والحافز والمكافأة من ناحية أخرى.

الخصائص الفنية

الخصائص الفنية في الشعر هي القدرة على التعبير، والقاموس الخاص والمصطلحات، والأسلوب الإبداعي ويتضمن العديد من العناصر، مثل: الصور البيانية والمحسنات البديعية، ورغم أن تلك السمات خاصة، فإنها أشبه بالبصمة الفنية للشاعر، لا تتغير، وإذا تغيرت فيتم ذلك على المدى الطويل. ويمكن استخلاص قواسم فنية مشتركة بين شعراء رمضان، وهي:

1 - الوصف المباشر: الوصف أسلوب قديم من الشعر العربي، ويمكن اعتباره هو الأساس الذي بنيت عليه أساليب الصياغة الشعرية، ومعظم الشعر الرمضاني عبارة عن أبيات وصفية تصف الناس والأماكن، وكلما تعمّق الشاعر في الأشياء، تقدّم في مؤشر الإبداع الشعري.

2 - القاموس الديني: نظراً لأن رمضان في الأساس مناسبة دينية، فقد غلب على شعره القاموس الديني، مثل: الطاعة، والعبادات، والدين، والغفران، والثواب والحسنات، وهذا القاموس رغم أهميته وتجذره في الثقافة العربية، فإنه حصر القصيدة الرمضانية في فخ التكرار والتقليد. لذلك من المهم تجديد القاموس الديني بالصور الفنية الجديدة والمبتكرة.

3 - المحسنات البديعية: الشعر الوصفي غالباً ما يحفل

بالمحسنات البديعية التقليدية، وقد اهتم شعراء رمضان بهذه المحسنات التي تُعنى بالشكل والتأثير اللفظي والتشبيهات البلاغية المؤثرة والمقنعة.

4 - أسلوب المخاطب: في قصائد رمضان، غالباً ما يستخدم الشعراء ضمير المخاطب، مثال مخاطبة شهر رمضان بعبارات الترحيب، وكأن رمضان رجل تتم مخاطبته، وهو بذلك يعطي القصيدة بعداً حوارياً، حميمياً، وفي أحايين أخرى يتعامل الشاعر مع شهر رمضان بضمير الغائب ليعطي قصيدته البُعد السردي.

الأغنية توثق تراث رمضان

الأغنية جنس شعري، يرجع لها الفضل في ذيوع القصيدة ووصولها إلى الآفاق، وقد وثقت الأغنية التراث الرمضاني خير توثيق، وعبّرت عن مشاعر المجتمع العفوية تجاه الشهر الكريم. وفي الذاكرة العربية العديد من الأغاني التي ارتبطت بالشهر الكريم، ورددتها الأجيال، الكبار والصغار، ومنها «مرحب شهر الصوم مرحب» التي ألفها حسين طنطاوي، ولحنها وغناها عبد العزيز محمود، ويقول مطلعها: «مرحب شهر الصوم مرحب، لياليك عادت بأمان.. بعد انتظارنا وشوقنا إليك، جيت يا رمضان». وأغنية «رمضان جانا»، من كلمات حسين طنطاوي وألحان محمود الشريف، وغناء محمد عبد المطلب، ويقول مطلعها: «رمضان جانا وفرحنا به، بعد غيابه، وبقاله زمان.. غنوا وقولوا شهر بطوله، أهلاً رمضان»، وأغنية «أهو جه يا ولاد» للثلاثي المرح (سهام توفيق وصفاء لطفي وسناء الباروني)، وهي من ألحان علي إسماعيل وكلمات نبيلة قنديل، ويقول مطلعها: «أهوه جه يا ولاد.. هيصوا يا ولاد.. أهو جه يا ولاد.. زقططوا يا ولاد»، وأغنية «وحوي يا وحوي» الشهيرة، غناء أحمد عبد القادر، وألحان أحمد الشريف، وكلمات حسن حلمي المانسترلي. ويقول مطلعها: «وحوي يا وحوي الياحه.. روحت شعبان الياحه.. وحوينا الدار جيت يا رمضان.. هل هلالك والبدر أهو بان».

ومن أغاني رمضان أيضاً «هاتوا الفوانيس يا ولاد»، غناء محمد فوزي، وتأليف نبيلة قنديل، ويقول مطلعها: «هاتوا الفوانيس يا ولاد، هانزف عريس يا ولاد، هيكون فرحه 30 ليله، هنغني ونعمل هليله، وهنشبع من حلوياته»، وأغنية «والله بعودة يا رمضان»، كلمات عبد الوهاب محمد، وألحان جمال سلامة، وغناء محمد قنديل، ويقول مطلعها: «رمضان رمضان .. والله بعودة يا رمضان.. يا شهر العبادة والخير والسعادة والرضا والغفران.. يا مجمع قلوبنا على سنة حبيبنا ويهدي القرآن».

وقدمت نجاة الصغيرة «كريم يا شهر الصيام»، من كلمات عبد المنعم السباعي، وألحان أحمد عبد القادر، وتقول: «كريم يا شهر الصيام والصبر والبركات.. كريم يا شهر السلام في الأرض والسموات». كما قدمت شادية «يا شهر الهنا»، التي تقول فيها: «مدنة جامعنا زوقوها الليلة، وولادنا عملوا في البلد هليله، وكل بيت اتلم فيه خلانه واتلمت العيله وعيلة العيله، يتهنوا ويهنوا.. ويباركوا ويغنوا: يا حليله يا شهر الهنا يا حليله».

وغنى فريد الأطرش «هلت ليالي حلوه وهنيه»، من ألحانه وكلمات بيرم التونسي، ويأتي في مطلعها: «هلت ليالي حلوه وهنيه ليالي رايحه وليالي جايه.. فيها التجلي دايم تملي ونورها ساطع من العلالي». كما غنت هدى سلطان «شوفوا رمضان وخفة دمه»، التي تقول في بدايتها: «يا ولاد حارتنا اتلموا اتلموا.. شوفوا رمضان شوفوا خفة دمه.. بروتقوى مدفع يضرب، طبله في عز الليل بتطوف»، وغنى محمد رشدي «يا بركة رمضان خليكي في الدار»، التي يقول فيها: «يا بركة رمضان خليكي.. خليكي في الدار.. يا بركة رمضان املي.. املي دارنا عمار».

تحديات وفرص

مع تطور المجتمعات، والتغيرات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والثقافية، وفي ظل التقدم التكنولوجي والانفتاح

على الآخر، وبروز مستجدات وملهيات كثيرة، تواجه القصيدة الرمضانية بعض التحديات، بعضها عامة تواجه التراث كله، وبعضها الآخر يتعلق ببعض الشعراء الذين يقعون في فخ التكرار والتقليد والواجب الاجتماعي، ويمكن إجمال ذلك في التالي:

1 - إشكالية شعر المناسبة

مازال لبعضهم يتحفظ على شعر المناسبة، بدعوى أن الشعر الحقيقي ينتج عن تجربة، وأن «المناسبة» قد تدفع إلى صناعة الشعر، أو افتعال التجربة، ومع تفهمنا لهذا الرأي، إلا أن التجربة الشعورية الصادقة عنصر أساسي سواء في شعر المناسبة أو غيره، وأن المشكلة عامة تتعلق بالشعر وقدرات الشاعر، وأن العديد من القصائد التي كتبت في مناسبات خلدها التاريخ.

2 - التحوط الديني

طبيعة الشعر الرمضاني المرتبط بالدين حصرته في الوصف الخارجي دون التعمق في التفاصيل. واحترام المعتقد الديني والخوف من التجاوز أو الخطأ دفعا الشاعر إلى التحوط والاكتفاء بالمعنى المباشر دونما الخروج إلى مساحات أبعد من المجاز والتأويل والتجريب.

3 - الصراع بين الأصالة والحداثة

مع نشأة الحداثة الشعرية في الأربعينيات من القرن الماضي، ظهر تيار معادٍ للأصالة وكل ما تمثله ومن بينها القصيدة العمودية التقليدية، وتطرف بعضهم في هذا الاتجاه واتخذ موقفاً ضد التراث، ولكن بمرور الزمن اكتشف الكثيرون من هؤلاء أنهم على خطأ، فالحداثة الشعرية لا تعنى التخلى عن القديم، بل إن بعض الشعراء المبدعين نجحوا في التعبير عن الحداثة في قالب تقليدي. حتى إن بعض الشعراء طوّروا المناسبة التقليدية، وحلّقوا بها في فضاءات الإبداع.

الخلاصة، نجح الشعراء في التعبير عن الجانب الروحي والاجتماعي في شهر رمضان، حتى أصبح غرضاً شعرياً خاصاً وثابتاً، فمنهم من سار على النهج القديم في الفكرة والأساليب الفنية، وبعضهم حاول التحديث بجعل الشهر الكريم فرصة للتعبير عن الذات، والتحديات المختلفة التي تواجه الإنسان. ورغم ما تواجهه القصيدة الرمضانية من تحديات، تنطوي على فرص، تتركز في قدرة الشعر السحرية على التأثير، والتي يمكن توظيفها في العمل والبناء والتنمية، وتحسين حياة الناس. ولا شك أن رمضان بما يملك من بُعد ديني وقيمة اجتماعية

متجذرة ومستمرة في المجتمع يمكن أن يلهم الشعراء المزيد على صعيد الفن والإبداع، وذلك يتطلب حركة نقدية واعية، تحدد السمات الإبداعية في هذا الشعر، وتحفّز الشعراء على تجديد قصيدة المناسبة، والخروج بها من الطرق المعبّدة السهلة إلى الكشف والتجريب، بذلك يواكب الشعر المستقبل، ويواصل مهمته النبيلة في رصد وتوثيق قصة الإنسان خليفة الله على الأرض ■

صحفي وباحث مصري

المصادر والمراجع:

1. ديوان بن قطامي «عيسى بن سعيد بن قطامي المنصوري»، د. راشد أحمد المزروعي، نادي تراث الإمارات، مركز زايد الدراسات والبحوث، أبوظبي 2016.
2. ديوان جنادل «حميد بن خليفة بن ذيبان» إعداد وتحقيق فهد المعمري .. نادي تراث الإمارات، مركز زايد الدراسات والبحوث، أبوظبي 2013.
3. . ديوان بن هلال «سعيد بن محمد بن هلال الظاهري»، إعداد وتحقيق د. راشد المزروعي، نادي تراث الإمارات . مركز زايد الدراسات والبحوث، أبوظبي 2014.
4. . ديوان نسيم الخليج «علي بن رحمه الشامسي»، إعداد وتحقيق د. راشد أحمد المزروعي، نادي تراث الإمارات، مركز زايد الدراسات والبحوث، أبوظبي 2010.
5. ديوان الدرمكي «محمد بن سلطان الدرمكي» إعداد وتحقيق د. راشد أحمد المزروعي، نادي تراث الإمارات، مركز زايد الدراسات والبحوث، الطبعة الثانية، أبوظبي 2019.
6. ديوان الكاس «سالم بن خميس بن عبدالله الظاهري»، د. راشد المزروعي، نادي تراث الإمارات، أبوظبي 2010.
7. ديوان ابن زاكور، موقع الديوان: www.aldiwan.net

شهر رمضان.. عادات متوارثة وهوية تراثية إماراتية

مريم سلطان المزروعي

إن لشهر رمضان الكريم مكانة تاريخية ودينية ونكهة خاصة يختلف عن غيره من شهور السنة، بقداسته وبما يحمله من أجواء رمضانية تدخل البهجة والسرور على الجميع. ولهذا الشهر الفضيل ذكريات مختلفة محفورة في ذاكرة كل واحد منا، تختلف تفاصيلها بناء على طبيعة البيئة التي عاش فيها وترعرع بين جنباتها باختلاف تضاريسها، وهذه التفاصيل لها ذاكرة مختلفة تختلف لدى كبار السن فهي مزيج جميل من البساطة التي تتضمن الأذكار والعبادات والأناشيد والعادات والتقاليد الاجتماعية والألعاب الشعبية والطقوس التي تقام قبل قدوم هذا الشهر الفضيل بفترة ليست بقصيرة وخلاله، فكان لابد أن يشاهد هلال رمضان جماعة، وتُسند هذه المهمة لمن هم أهل الثقة من رجاحة عقل ودين وقوة إبصار، فتصعد هذه الجماعة إلى أعلى منطقة محيطة بها تراقب فيها الهلال مع غروب الشمس، فإذا رآه أحدهم وتأكدت الجماعة من رؤيته تطلق عياراً نارياً لتعلن للجميع في منطقتهم أو جماعتهم برؤية الهلال، وإذا لم يروه يعتبرونه مكملاً لشهر شعبان، وقد رسم هذا الموقف الشاعر ابن الوردي قائلاً:

قلـتُ هـــلالُ الصّـــيام ليـس يُـــرى
فلا تصومـــوا، وارضـــوا بقول ثقـــةْ
فغالطُـــــوني حققـــوا فـــرأوا
وكـــل هذا من قُـــوةِ الحدقـــةْ

وعند رؤيته يجتمع أبناء المنطقة يصلون صلاة التراويح ليلتها ويعقد الصيام بالإجماع، وتكون القرى ومن حولها قد سمعت بإطلاق النار، وبهذا يتناقل خبر قدوم شهر رمضان الفضيل، ويهنئون بعضهم بعضاً، أو من خلال إرسال المندوب الذي ينقل الخبر لباقي القبائل أو القرى القريبة منه. كنت أذكر جدتي شمسة بنت حميد - رحمها الله - كثيراً ما كانت تقول: «إن القلوب كانت متقاربة ومتكاتفة، الجار يشعر بجاره، وإن قلّت المعيشة، وهذا التكاتف كان واضحاً في المناسبات الدينية كشهر رمضان الكريم شهر العبادة والطاعات والرحمة، الذي له طابع خاص وطقوس جميلة وعادات أجمل، كان الرجال قبل قدوم شهر رمضان يجمعون الحطب ويجهزون «الصخام» ويتم ربطه جيداً حتى لا يصاب برطوبة تفسده وبعده لا يصلح للطهي أو للاستخدام، كان الرجال يقضون الفترة الصباحية في قضاء حاجاتهم والذهاب إلى السوق لتوفير ما تحتاجه الأسرة من نواقص، كل حسب استطاعته، وفي فترة القيلولة ينام الرجال تحت ظل شجرة الغاف أو السدرة يستظلون بظلالها خوفاً من أشعة الشمس الحارقة، ومن بعد صلاة العصر يعودون لمتابعة حلالهم من (هوش وبوش) إلى أن تبدأ الشمس بالغروب فيعودون أدراجهم قبل الأذان، ونحن النساء كنا نعّد وجبة الإفطار، لم يكن لدينا الكثير من الطعام، وفي أيام طفولتي كانت وجبة الإفطار، في مرات عديدة، لا تتعدى اللبن أو الحليب والتمر وقهوة مفعمة برائحة الهيل وقليلاً ما كنا نجد الزعفران، لكن عندما كبرت تغيّرت الحياة بعض الشيء وبدأنا بالاستقرار بحكم طبيعتنا كبدو، ومن خلال استقرارنا أصبح لنا فريج يجمعنا كأسرة وعائلات مترابطة، تعلمنا الكثير من بعضنا بعض، فأصبحت أكلاتنا الشعبية متنوعة ما بين اللقيمات والفقاع أو العوامة والخنفروش والبلاليط والعيش السيلاني (الأرز الأبيض) بالسمن مع سمك أو اللحم، والخمير والجباب والهريس، واذكر عندما جاء إلينا (الفيمتو) كنا لا نعرف كيف نشربه، فكنا نصبه في فنجال (فنجان القهوة) ويوزع علينا، دون خلطه بالماء، طعمه كان شديد الحلاوة. تقاسمنا الطعام، وساعدنا بعضنا بعضاً، كانت المرأة عندما تعد وجبتها تحسب حساب جيرانها، لثقتنا بأن طعام الواحد يكفي لاثنين، وتبدأ عادة تبادل الأطباق قبل أذان المغرب فهي تعتبر من أجمل العادات الاجتماعية، وهذه العادة تكون طوال شهر رمضان الكريم، يركض الأطفال حاملين هذه الأطباق بين أياديهم الصغيرة، منها يتعلمون على العديد من القيم كاحترام الجار والعطف والرحمة ومنها تكون رياضة لنفض الكسل من خلال ركضهم ما بين البيوت والأزقة مع الحرص على عدم إسقاط هذه الوجبة الشهية التي يحملونها بفرح وسعادة ليفرح بها جارهم». يقول أحد الرواة: «إذا جاء شهر رمضان في فصل الصيف يكون اليوم طويلاً في هذا الشهر وحره شديداً، ففي السابق لم يكن لدينا أجهزة تكييف، كنا نستظل بظلال الأشجار من حولنا ونشعر بالعطش والتعب والإرهاق، بعكس

إذا ما جاء في شهر الشتاء، كان الأهالي يحثوننا على صيامه، ففيه تصفد مردة الشياطين، وتستغفر له الملائكة وتصفو الأنفس، ويقول الشاعر:

إذا طال شهر الصّـــوم قصـــرت طُولـــه
بحمـــــراء يحـــكي الجُلنار احمرارُهـــا
يقصـــر عُمر الليل، إن طال، شِربُهـــــا
ويعمل في عُمـــــر النهّـــار خمارُهـــا

ويكمل قوله: «كنا نستقبل شهر رمضان بالفرح والأهازيج والأناشيد، وتكثر الأذكار والمساجد لا تتوقف عن الذكر والعبادات، وكانت بعض من المنازل تقام فيها المالد التي هي عبارة عن تراتيل وأناشيد دينية تتضمن ذكر الله والصلاة على النبي محمد - صلى الله عليه وسلم - وهذه العادة لا تزال بعض البيوت هنا في مدينة أبوظبي محافظة عليها كبيت السيد سعيد بن أحمد العتيبة، وغيره من البيوت التي تحيي هذه العادة وتتمسك بها وبشدة لتعلم الأجيال القادمة، وكنا نختم القرآن الكريم في المساجد ونتسابق ونتنافس في ذلك، والناس تتصالح بعضها مع بعض. فرسالة الصيام ليست مقتصرة على الجوع والعطش، بل إنها رسالة إنسانية تنبع من أخلاق الإسلام وأخلاق الرسول عليه الصلاة والسلام، فشهر رمضان له حلاوة خاصة بجمعتنا وتآلفنا، كانت النساء يتجمعن في بيت إحداهن والكل يحضر بلا استثناء دون خجل أو تردد حتى لو لم تحضر معها طبق». لقد ظل الإنسان الإماراتي محافظاً بطبعه على عاداته وتقاليده المتوارثة، وإن قل تداولها، إلا أن هناك العديد من العادات التي لا تزال مستمرة مثل «حق الليلة أو ما يطلق عليها ليلة النصف من شعبان»، وحضور المجالس الرمضانية التي تدار بطريقة معينة تجري فيها الأحاديث الممزوجة ما بين الدين والدنيا، وهنا جاء دور دولتنا الحبيبة التي قامت بإحياء هذه المجالس طوال شهر رمضان الكريم بالمحاضرات الدينية التثقيفية وإرسال الدعوات للجميع مجاناً دون استثناء وفتحت أبوابها للجميع، كما يتم إحياء المساجد باستقدام أهل الذكر (ضيوف الرحمن أو ضيوف رئيس الدولة) من كل الدول في شهر رمضان الفضيل يوصون الناس ويعظونهم ويفقهونهم في الدين والعبادة، وفي العشر الأواخر تمتلئ المساجد بعقد صلاة قيام الليل، فيتسابق الجميع لكسب أجر هذه الأيام المباركة، ويمسك رب العائلة بأيدي أسرته ويحثهم على الصلاة والعبادة ويتسابقون للصلاة في الصفوف الأولى، يحيطهم الأمن والأمان من حولهم، كما وقد أُقيمت المهرجانات التراثية التي تقام لإحياء التراث بالملابس التقليدية والأكلات والألعاب الشعبية المتنوعة على مستوى دولة الإمارات العربية المتحدة، وتتزين الشوارع التي تخيم عليها الفرحة والسعادة بقدوم هذا الشهر الكريم، ومن الجهود المبذولة التي بذلتها دولتنا الحبيبة، عندما أعلنت دائرة الثقافة والسياحة في أبوظبي عن إدراج «الهريس» الأكلة الشعبية الأساسية في هذا الشهر الفضيل في القائمة التمثيلية للتراث الثقافي غير المادي لليونسكو، وهذا دليل على أهمية الحفاظ على التراث الشعبي بمختلف مكوناته لما له من دور في حفظ الهوية الوطنية وصونها، والحفاظ على إرث الآباء والأجداد في رحلة ازدهارنا على مر السنوات ■

باحثة من الإمارات

التسامح يسود أيام الشهر الفضيل قديماً وحديثاً في واحة التسامح

ذكريات شهر رمضان الفضيل.. نسائم روحانية من الزمن الجميل

جمال مشاعل

حين يحلّ خير الشهور وأفضلها في دولة الإمارات العربية المتحدة فإن طقوسه الروحانية وأجواءه الإيمانية ترافقه؛ إذ يستقبله الناس بالزينة والفرحة الكبيرة، ويحتفظ المجتمع الإماراتي بعاداته وتقاليده كصوت المدفع في السحور والفطور الذي يشكّل جزءاً لا يتجزأ من عادات الشهر الفضيل وتقاليده، واجتماع الأسرة على مائدة الطعام لتناول وجبتي السحور والإفطار، وصلاة التراويح التي يتم أداؤها يومياً، وهناك الكثير من العادات التي تميز شهر رمضان عن باقي شهور السنة.

شهر رمضان في الذاكرة الإماراتية

يوثق الجزء الثالث من سلسلة «ذاكرتهم تاريخنا» الصادر عن الأرشيف والمكتبة الوطنية، ذكريات بعض الرواة عن شهر رمضان قديماً في الإمارات، فتقول الراوية ناعمة حمد سلطان العرياني: كنا نسكن في منطقة المشرف في أبوظبي. وفي شهر رمضان يكثر تبادل الأطعمة بين الأسر والجيران، وكانت والدتي تطبخ الهريس بكمية كبيرة وكأنها وليمة، إضافة إلى العيش أو الأرز البرياني وهو طبق هندي اشتهر في الإمارات، وفي كل مرة يأتي أناس لا نعرفهم للحصول على الوجبة التي تطبخها. وأذكر ذات مرة أني أحصيت عدد تلك الصحون فوجدتها 70 صحناً لأناس لا نعرفهم يأتون قبل أذان المغرب للحصول على ما تقدمه لهم من طعام للإفطار، وهذا العدد لا يشمل الجيران الذين نرسل إليهم الطعام، وهم في المقابل يجلبون لنا ما لديهم من مأكولات طبخوها لإفطار ذلك اليوم، وفي بعض الأحيان يجتمع الجيران في منزلنا لتناول الإفطار، ولكن ذلك لا يحدث يومياً. وبعد تناول الإفطار في شهر رمضان كان الناس يأتون لزيارة والدتي، وكانت هي تذهب للسلام على سمو الشيخة فاطمة بنت مبارك - حفظها الله - وفي يوم آخر تذهب لزيارة صديقاتها من عائلة الفهيم، ويبادلونها الزيارات... وهكذا. لم تكن لدينا زينة وفوانيس خاصة بشهر رمضان، لأن هذه العادة ترجع إلى المصريين وبعض الدول الأخرى؛ إذ إن ذلك يعبر عن فرحة الناس بحلول الشهر الكريم، وتزداد فرحتهم بزيارة الأهل وزيارات الأصدقاء، وتبادل الأطباق المعدّة للإفطار، وهكذا كان شهر رمضان في الماضي.كان الأطفال في النصف من شعبان يفرحون باحتفالية تسمى «حق الليلة» توزع فيها الحلويات والمكسرات والنقود، وتعد هذه المناسبة استقبالاً للشهر الفضيل.

من ذكريات الأمس

ويتذكر الراوي محمد علي سيف النايلي الشامسي تفاصيل الحياة في شهر رمضان، فيقول: في رمضان كان الرجال والنساء يعملون الفطور من الأطعمة المتوافرة لديهم. والسحور كذلك، وكان الرجل يأخذ فطوره ويذهب إلى الحظيرة مع جيرانه ويتجمعون، ويعملون القهوة ويفطرون، ثم يصلون صلاة المغرب، ويبقون في الحظيرة ويتسامرون إلى الليل وذلك في رمضان أثناء فصل الشتاء في الصحراء، أما في فصل الصيف في المدينة فيعمل أهل الحي حظيرة أيضاً. ولكنهم يذهبون أحياناً للفطور عند شخص؛ لأن ذلك الشخص يكون

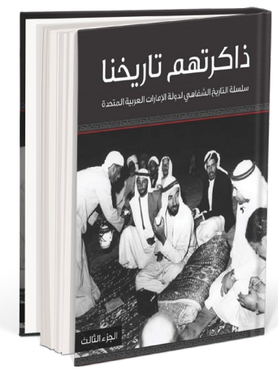

أكبر منهم سناً فيفطرون عنده احتراماً وتقديراً له. وفي نهار رمضان يذهب الرجال للعمل ولكن كانت رحلاتهم قصيرة. وفي ذلك الزمان كان الجو حاراً، ولم تكن هناك مكيفات للهواء. وإذا كان الرجل سيذهب إلى مكان فيذهب في الصباح قبل اشتداد حرارة الشمس، وكانت أمورهم مستقرة، لكنهم كانوا في حالة صعبة، فقد كانت أمورهم وحياتهم مختلفة.

لم يكن التلفاز أو المذياع متوافراً آنذاك، وكان الناس يعرفون وقت رمضان بالحساب، ومن خلال النظر إلى السماء أيضاً. كانوا يقولون: سيهللون «يتحرون هلال الشهر». فتجد الناس في وقت المغرب يقفون على رؤوس العراقيب، وينظرون إلى السماء للبحث عن الهلال، وإن لم يروه أخروا الصيام، ولكن إذا أتاهم أحد من بعيد وقال: إن أناساً رأوا الهلال، فيصبحون صائمين.

أطباق رمضانية في الإمارات

وفي سردها لذكرياتها تقول الراوية رفيعة محمد عبيد سيف الخميري من مدينة أبوظبي: لدينا مناسبتان دينيتان هما شهر رمضان والعيدان؛ ففي شهر رمضان كنا نطبخ ما لدينا من الأرز والسمك، أما اللحم فكان قليلاً، وكنا نعد الفطور من المحلى: وهو نوع من الخبز الرقيق من الدقيق والتمر، أو اللقيمات: وهي نوع من الحلويات، والثريد: وهو طعام يعد من الخبز والمرقة والخضراوات واللحم، والهريس: أكلة شعبية قوامها اللحم والقمح والسمن، ونجهز له الدهن الذي نحصل عليه من حليب البقر بعد وضعه في السقا أو القربة التي كانت من جلد الهوش أو الغنم ونعدّ العصيدة وهي أكلة شعبية من الطحين أو القمح أيضاً، وقد تؤكل مالحة مع الدجاج أو اللحم أو السمك، والمطبن أو المدفون الذي يوضع فيه الأرز فوق اللحم أو السمك الذي تحته السمك، والبلاليط: وهي أكلة شعبية أيضاً من الشعيرية مع الماء والسكر، ويضاف إليها الهيل والزعفران والبيض، والعيش أو الأرز بالسكر مع الزعفران نطلق عليه فلاو: وهو الرز البخاري، أما الأرز الذي نطبخه بالسكر فنسميه عيش محمر ونقدمه عادة مع سمك الصافي، والتمر واللبن، والرجال كانوا يفطرون جماعة، والنساء أيضاً. وبعد صلاة التراويح تتجمع النساء في منزل إحدى الجارات، ويخطن ملابس العيد على ضوء الفنر.

الموائد الرمضانية

وحديثاً صارت الموائد الرمضانية من أجمل ملامح التلاحم والإخاء الإنساني التي تبرز في شهر رمضان كل عام، وهي تقام في دولة الإمارات العربية المتحدة وفي معظم البلاد العربية والإسلامية موائد رمضانية جماعية يستضيف الراغبون بتشارك وجبة الإفطار مع إخوانهم جموع الصائمين، وفي دولة الإمارات العربية المتحدة - وعلى مدار أيام الشهر - تنتشر الموائد العامرة بما لذّ وطاب في ساحات المساجد والخيام الرمضانية يسهم بها الراغبون بالثواب، وذلك على هدي النبي صلى الله عليه وسلم: «.... فمن فطّر صائماً كان له مثل أجره....».

التسامح في شهر رمضان يسود المجتمع الإماراتي

التسامح بمعنى العفو والصفح، وعند التعمق في معناه السامي نجده باقة من المبادئ والقيم والأخلاقيات والجماليات الكثيرة، إنه قمة الفضائل فهو يجمع بين العفو والحلم، وهو مقياس الرقي في التعامل، والابتعاد عن القسوة في المواجهة، وهذا في حقيقته يعني قوة الشخصية، وهو يؤدي إلى تحمّل المسؤولية. قال صاحب السمو الشيخ محمد بن راشد آل مكتوم، نائب رئيس الدولة، رئيس مجلس الوزراء، حاكم دبي، رعاه الله: شهر رمضان محطة لتجديد الهمم والطاقات نحو نشر الخير وفرصة لتعزيز التواصل والتسامح حولنا ومع العالم، مؤكداً أن ديننا دين الرحمة والسلام والتسامح، ورمضان موسم العطاء والتسامح. ودَعَتِ القيادة الرشيدة في دولة الإمارات العربية المتحدة جميع فئات المجتمع الإماراتي إلى توجيه الطاقات للخير، ومضاعفة العطاء بما ينسجم مع القيم الرمضانية الأصيلة، وبما يسهم في تكريس ثقافة الخير والتسامح، ووجهت القطاعات الحكومية والخاصة كافة للمساهمة بأفكار مستدامة للعمل الإنساني والخيري، وتنمية المجتمع وترسيخ قيم التسامح.

ويغتنم أبناء المجتمع الإماراتي أجواء الصفاء في رمضان لمراجعة علاقاتهم بعضهم ببعض والتسامح فيما بينهم، وزيادة الترابط والتجاوز عن أخطاء بعضهم، فشهر الصيام فرصة عظيمة لترويض النفس والارتقاء بها، ولذلك فإن الشهر الفضيل يعزز انتشار فضيلة التسامح ويؤصلها في نفوس أبناء المجتمع بمختلف شرائحه، وهو يعيد شحن طاقات الشباب بقيم التسامح وقبول الآخر وحبّ العمل والحياة والابتكار والمنافسة في ميادين التطور والتقدم، فشهر رمضان الفضيل مدرسة للتقوى، وهو رسالة لفتح أبواب الصلح والعفو، والصفح والتسامح، والمحبة والسمو الروحي، ويجب أن ننقل إلى أبنائنا هذه القيم في هذا الشهر الكريم.

إن المبادرة بالتسامح في الشهر الفضيل تريح المتسامح وتجعله يشعر بالرضا، ويستمتع بالصوم وبالعبادة، وقد حثّ الإسلام على التسامح لتنقية القلوب من البغضاء، وهذا ما يزيد أيام الصيام روحانية وصفاء وحلاوة ■

إعلامي مقيم في الإمارات

بِيْدار اللَّهْجَةِ الإماراتيّة فيما طابق الفصيح

ألفاظُ الحزن والبكاء والصياح

محمد فاتح زغل
أكاديمي وباحث في التراث

تنطوي اللغة العربية على العديد من ألفاظ الحزن والبكاء وفي لسان العرب، قال ابن منظور: «الحزن نقيض الفرح، ويجمع على أحزان، وهو حالة من الغم والكآبة باطناً، ويترجم عنه الظاهر في الغالب بالبكاء، أو الكمد: الحزن الذي يبقى مكتوماً، أو البثّ: الحزن والغمّ الذي نفضي به لأصحابنا أو الجَوَى: الحزن من شِدَّة العشق، وألفاظ كثيرة مثل الصياح والكرب والوجوم والمأق وهو شدة البكاء ونشيجه، وقد حفلت ألفاظ اللهجة الإماراتية بالعديد من الألفاظ التي تدور في فلك هذه المعاني وطابقت الفصيح من العربية منها:

مُستغبن (مِستغبن): تستعمل هذه اللفظة في هذه اللهجة للدلالة على من يريد البكاء لأمر ما، كما قولهم: فلان مِستغبن، وهي دلالة يمكن أن تبين من القبين، وهو المنكمش في أموره، أو المقبئن، وهو المنقبض، على أن القاف قلبت غيناً.

يصيح: من معاني هذا الفعل في هذه اللهجة: يبكي، والصياح فيها البكاء، كما في قولهم: فلان يصيح.

ومما يبين هذا المعنى في العربية: الصَّيح، والصَّيحة، والصياح (بكسر الصاد، وضمها) وهي ألفاظ تدور معانيها في فلك صوت كل شيء، والقول نفسه في: صح لي بفلان (ادعُه)، والصائحة (صيحة المناحة، أو النائحة).

يزاعق (يزاعج): هذا الفعل في قولهم: فلان يزاعج: يبكي بصوت عالٍ، ويصيح كما في قولهم: فلان يزاعج على فلان (يصيح به، أو يناديه بصوت مرتفع) وهو في العربية بمعنى الصّياح، كما في قولهم: زعق بدوابه (صاح بها، وطرها)، والزّعّاق: الذي يطرد الدواب، ويصيح في آثارها، وهو الناعق، والنّعّار.

مُستحجرٌ (مستحكر): يوسم من يريد البكاء فلا يستطيع لأمر ما في هذه اللهجة: بالمستحجر(مستحكر)، وهي دلالة يمكن أن تتبين من الحجر، وهو المنع من التصرف، لأنه يطلب عدم البكاء، على الرغم من رغبته فيه، لأمرٍ ما.

ومن معاني استحجر في العربية: اتخذ حجرةً لنفسه، واستحجر فلان لكلامي (اجترأ عليه)، واستحجر الطين (صار حجراً).

ولا يستبعد أن يكون من الحقر (الإذلال)، على أن المراد أنه يطلب ذلك لأمر ما.

مستحقفٌ: يوسم من توشك العبرة أن تخنقه، أو من فيه عبرة، ويريد البكاء، وفي هذه اللهجة بالمستحقف، كما في قولهم: فلان مستحقف، وهذا الوسم يمكن توهمه من الحقف، وهو المعوجُّ من الرمل، والحاقف، وهو الظبي الرابض في حقفٍ من الرمل، أو المنطوي كالحقف، أو الذي نام، وانحنى، وتثنى في نومه، أو من المحقف، وهو من لا يأكل، ولا يشرب، على أن ما يمكن أن يجمع بينهما التلوي، والتثني، والانطواء، وعدم الأكل والشرب بسبب ما أصابه، كما يظهر لي، على أن المستحقف من يطلب العبرة.

فحم، و فُحم (فُحّم): يستعمل هذا الفعل في هذه اللهجة، وبعض اللهجات العربية، كلهجة فلسطين والأردن وبلاد الشام عموماً، بمعنى بكى بكاءً شديداً حتى انقطع صوته، كما قولهم، فحّم الياهل (الجاهل - الطفل الصغير) من الصياح، وزرق ويهه (ازرق وجهه من شدة البكاء).

وفي اللغة العربية: فحم وفحِم، وأُفحم: بكى حتى ينقطع نفسه، وصوته، وفحم الكبش، وفحَم، وفحُم: صاح وثغا حتى صار في صوته بحوحةٌ.

يناعر (يناعِر): يستعمل هذا الفعل في اللهجة بمعنى: يبكي بصوت عالٍ، كما في قولهم: فلان يناعر، وفلان نِعر بشيء، والحمار ينعر.

وفي العربية: النعير: الصراخ والصياح في حربٍ، أو شرّ، ونعر الرجل نعيراً، ونعاراً: صاح، وصوّت بخيشومه، ونعر العِرق: فار منه الدم، أو صوّت. ويستعمل هذا الفعل بهذا المعنى في لهجة فلسطين والأردن ■

فن القوما» شعر شعبي يتضمن أدعية وتهيئة للسحور

«المسحراتي» ثيمة رمضانية تؤصل القيم الإنسانية

أماني ياسين

«المسحراتي» أحد المظاهر التي ارتبطت بشهر رمضان المبارك، وباتت جزءاً من طقوسه الشعبية، وهو الشخص الذي يأخذ على عاتقه إيقاظ المسلمين كل ليلة في الشهر الكريم لتناول وجبة السحور قبل الإمساك عند أذان الفجر. وظهرت هذه الشخصية في العديد من الدول العربية والإسلامية، ولكن بألقاب مختلفة، ففي مصر يسمى «المسحراتي»، وفي بلاد المغرب يسمى «النفار»، وفي الإمارات يعرف بـ «أبو طبيلة»، وفي اليمن يسمى «المُفَلّح»، وفي السعودية يطلق عليه «المسحّر»، فيما يطلق عليه في العراق «أبو الطبل»، وفي لبنان يسمى «الطبّال»[1].

وتتعدد وسائل الإيقاظ التي يستخدمها المسحراتي من دولة إلى أخرى، ففي اليمن والمغرب كانوا يدقون الأبواب بالنبابيت (العصا الطويلة)، بينما يطوف مسحراتية أهل الشام على البيوت ويعزفون على طبلة صنعت لهذا الغرض، ويقرعون الطبلة بعصا الخيزران أو بقطعة من الجلد المتين صممت لهذا الغرض، وفي مصر يقرع المسحراتي على «الطبلة»، وفي الإمارات يقرع «أبوطبيلة» الطبلة التي تعرف باسم «البازة».

وفيما كان التسحير في الغالب مهمة فردية يقوم بها مسحراتي واحد، يأخذ التسحير في لبنان شكلاً جماعياً، «ففي أحياء بيروت القديمة تتجول جوقة من المسحراتية، وهي عبارة عن مجموعة من المنشدين ينشدون أشعار التسحير على أنغام الرق والمزاهر[2]».

ويرتدي المسحراتي عادة ملابس تقليدية، ويحمل في يده «طبلة»، يدق عليها بعصا صغيرة، وقبيل الفجر يمر على الحارات والأزقة والشوارع، لإيقاظ النائمين وتنبيههم بأن الفجر وقت الإمساك عن الطعام قد اقترب، ويستخدم في ذلك قرع الطبل والنداء، والتهليلات أو الأناشيد الدينية التي تحث على الصوم، وكانت عبارته الأساسية «اصحى يا نايم» «ووحّد الدايم».

والتسحير في الغالب مهمة تطوعية، ولكن لا يمنع أن يتلقى المسحراتي شيئاً من الأموال والهدايا والحلوى في عدد من البلدان، وفي بعض الأحيان تتفق القرى وتمنح المسحراتي أجرة محددة.

مهنة قديمة

تعود مهنة المسحراتي إلى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، فكان المسلمون يعرفون وقت السحور في عهد الرسول عليه الصلاة والسلام بأذان «بلال بن رباح» أول مسحراتي في التاريخ الإسلامي، كان بلال يؤذّن الأذان الأول فيتناول المسلمون السحور، و«ابن أم كلثوم» يؤذن بعد ذلك الأذان الثاني فيمتنعون عن تناول الطعام.

أما «مهنة المسحراتي فظهرت بشكل رسمي في عهد الحاكم بأمر الله الفاطمي، حيث كان قد أصدر أمراً بأن ينام الناس مبكراً بعد صلاة التراويح، وكان جنوده يمرون على البيوت ويوقظون الناس لتناول السحور، وفي عصر الدولة العباسية يعتبر عتبة بن إسحاق والي مصر أول من سحّر الناس عام 228 هجرية، فكان يخرج بنفسه سيراً على قدميه من مدينة العسكر في الفسطاط إلى جامع عمرو بن العاص لإيقاظ الناس مردداً «يا عباد الله تسحّروا، فإن في السحور بركة»، ومنذ ذلك الحين أصبحت هذه المهنة تلقى قبولاً عند عامة الناس»[3].

مسحراتي فؤاد حداد

استلهم المبدعون العرب شخصية المسحراتي، فظهرت في الشعر والسرد، والفنون الشفهية والقولية والأعمال الدرامية والمسرحية المرئية والإذاعية، كجزء ملهم من تراث رمضان وثقافة الشعوب المحلية، وفي مجال الشعر ظهرت العديد من القصائد التي توثق هذه الشخصية وتترجم دلالاتها الشعبية.

ولعل أبرز من استلهموا هذه الشخصية، وكتبوا عنها الشاعر المصري فؤاد حداد (1928- 1985) الذي جعل ثيمة المسحراتي مدخلاً لإيصال العديد من الأفكار والقيم وتوجيههما، وذلك من خلال برنامج إذاعي يومي يذاع في شهر رمضان، يكتبه حداد، ويؤديه الفنان سيد مكاوي (1928- 1997).

انطلق برنامج «المسحراتي» عام 1964، وكان في الأساس فكرة الشاعر صلاح جاهين، الذي يروي هذه القصة، ويكشف عن العلاقات الجميلة التي كانت تربط بين هذا الجيل من الرواد والتي كان يغمرها الحب والإيثار والتواصل الجميل بين الأجيال، ويقول: «عندما طلبت مني الإذاعة المصرية كتابة (المسحراتي)، قلت لهم هناك شاعر سيكتب هذا البرنامج أفضل مني وهو فؤاد حداد، وعندما اقترحوا علي اسم مطرب لأداء البرنامج رفضت ورشحت الفنان سيد مكاوي. وفؤاد حداد شاعر مبدع، سرّه في شعره الذي يتدفق مثل الشلال، فالمسحراتي يجب أن يقول كلاماً كثيراً ويكون مثل مساقط المياة[4]». وهكذا كلّفت الإذاعة المصرية الشاعر فؤاد حداد بكتابة أشعار حلقات «المسحراتي» اليومية، وكتب حينها 31 حلقة للإذاعة، وفي عام 1968 كتب 30 حلقة أخرى، وبعدها في عام 1974 كتب 16 حلقة، واستمر برنامج «المسحراتي» بنجاح حتى وصلت حلقاته إلى 111 حلقة، وتم تجميعها بعد

فؤاد حداد

ذلك في ديوان اسمه «المسحراتي»[5]، وكان من المنتظر أن يقوم ثلاثة ملحنين بتلحين البرنامج، إلا أن «مكاوي» رفض الاستعانة بملحنين، وأصرّ على الأداء على إيقاع الطبلة فقط، ونجح البرنامج، وأصبح سمة من سمات الشهر الفضيل. يقول «مسحراتي» فؤاد حداد، داعياً الناس إلى الاستيقاظ وتوحيد الله، واصفاً نجوم ليالي رمضان بالسبحة:

«اصحى يا نايم
وحّد الدايم
وقول نويت .. بكرة إن حييت
الشهر صايم والفجر قايم
اصحى يا نايم وحّد الرزاق
رمضان كريم
دي ليالي سمْحة
نجومها سبْحة
اصحى يا نايم يا نايم اصحى
وحّد الرزّاق»[6]

- ويعرّف الشاعر بنفسه، فهو مسحراتي جوّال عاشق للحياة

والوطن، العشق دليله، لا يمشى إلا في الأماكن التي يحبها، مستلهماً مثلاً شعبياً يقول «الرجل تدبّ مطرح ما تحبّ»، ويقول:

«المشي طاب لي
والدقّ على طبلي
ناس كانوا قبلي
قالوا في الأمثال
الرجُل تدبّ مطرح ماتحبّ
وأنا صنعتي مسحّراتي في البلد جوّال
حبّيت ودبّيت كما العاشق ليالي طوال
وكل شبر وحتّه من بلدي
حتّه من كبدي
حته من موّال»[7]

التفاؤل وحب الحياة

ويتحد المسحراتي مع الشاعر، فتظهر شخصية فؤاد حداد المثقفة التي تقرأ لطه حسين وتوفيق الحكيم، وبيرم التونسي، وتبدو لنا صورة شخص يتجول في شوارع القاهرة يحتضن البنايات والمناطق، يملؤه التفاؤل وحب الحياة، ويقول:

«مسحّراتي قديم جديد
منقّراتي خفيف شديد
فاتح مدارس على السحور
وطبلتي طبلة الحضور
خدت الثقافة على أساس
إن الثقافة كتب وناس
قريت لطه وللحكيم
ولعم بيرم وللنديم
ومن المعرة على بولاق
أبو العلا من أبو العلاء»[8]

كعك العيد

ويرسم الشاعر لوحة بديعة لتجمع سيدات العائلة لإعداد كعك العيد، وهي عادة شعبية، تتم قبل العيد بأيام، وينجح في أن يوصّل لنا دفء العائلة المصرية، ويقول:

«مسحراتي منقراتي
خالاتي عمّاتي سيّداتي
على تلّ عجوة وعسل وسمنْ
ولا مجلس الأمنْ
سهرانين لتّ وعجين يبنوا الهرم
قالت حماتي المحترمْ
يا كحك يا سيد الكرمْ
نبطّلك في المشمشي
يا بنتي قومي وفرفشي
لا تحوّشي ولا تختشي
احمى الوابور واستحمّشي
إشي وإشي تلاقيه مشي
واشي نغبشي واشي حبّشي
واشي دندشي واشي انقشي
وشي ينحشي واشي رشرشي
سكر عليه بكرة إديه
فرحة عينيه
قال إيه وإيه»[9]

- ويكشف المسحراتي عن عشقه للبيئة المصرية البسيطة، والعمال الذين يسعون للحصول على الرزق، ويذكر منهم أصحاب مهن بسيطة وجميلة مثل «المراكبية»، و«الصنايعية»، يقول:

«سهرت ورديتين والصبح ورديّه
رجعت للبحر ألحان المراكبيه
والزند شمر وزف الأرض والميه
من شط للتاني والعالم معديّه
والقلب دقاته دقات الصنايعيه»[10]

البيئة الشعبية

يواصل المسحراتي مهمته ويدق على طبلته لإيقاظ الناس لتناول السحور، ويواصل مقاطعه الشعرية العذبة التي تكشف عن ارتباطه الشديد بالبيئة الشعبية، ويستدعي هذه المرة شخصية «النجار» الذي يدق بالشاكوش ويصنع الدواليب، ويقول:

«مسحراتي
منقراتي
منجراتي
دواليب زمان
ماتشتكوشي

دقة شاكوشي
جت في الأوان
يا ناس حبايب
يا ناس جيران
أنا قلبي دايب
على البيبان
عجوز شويه
لكن عينيه
روحين حنان»[11]

فن القوما

ورغم تجذر المسحراتي كأحد مظاهر التراث الرمضاني التي تثير الحنين وتعكس القيم الاجتماعية، فإنه بدأ يختفي أمام التغيرات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والثقافية، وخاصة في ظل التقدم التكنولوجي والانفتاح على الآخر.

من هنا يبرز دور الفن في التأكيد على هذا التراث وحفظه، وتقديمه بأدوات العصر في أشكال وأنماط حديثة ومبتكرة، ليظل حياً في ذاكرة الأجيال ليقوم بدوره في إبراز الهوية الوطنية وتعزيز التلاحم الاجتماعي والتكاتف والتراحم، بما يحمله من مبادئ وقيم إنسانية مختلفة.

يؤكد ذلك ما كتبه الأديب خيري شلبي في مقال عن برنامج «المسحراتي» نشر عام 1979، قال فيه، إن «الفكرة لدى فؤاد حداد ليست عمل المسحراتي وإيقاظ النائمين، بل إيقاظ الهمم للتقدم وإنقاذهم من الغفلة والانتكاس[12]».

أضف إلى ذلك أن «مسحراتي» فؤاد حداد أثرى فن «القوما» وهو أحد الفنون التي نشأت مع «التسحير» والمشتق من «قوم للسحور»[13] و«فن القوما شعر شعبي نُظم لدعاء السّحور في

شهر رمضان، وأخذت تسميته من قول المسحُر: «قوما نسحّر قوما» (هيّا للسحور) ومن هنا أطلق عليه «القوما»؛ وقد نشأ هذا اللون من فنون الأدب الشعبي في العراق، وشاع هذا النَظم في الدولة العباسية بين أهل بغداد، وكان مألوفاً في القرن السادس الهجري وما بعده»[14].

وهكذا، أكد برنامج «المسحراتي» - الذي أصبح جزءاً من الثقافة الشعبية الرمضانية - قدرة الفن على توثيق التراث الرمضاني، وتوظيفه لتأصيل الأفكار والقيم الإنسانية، ليس ذلك فقط، بل أسهم هذا «البرنامج» أيضاً على مدى ستين عاماً، في ترسيخ غرض شعري رمضاني جديد، أنتج كماً هائلاً من القصائد التي أثرت الشعر الشعبي من ناحية، وعززت القيم الرمضانية من جهة أخرى ■

كاتبة وصحفية مصرية

المصادر والمراجع:

1. «أسماء المسحراتي في الدول العربية»، بسمة أبوظالب، موقع مصراوي: www.masrawy.com
2. «رمضان في التراث البيروتي»، جمعية تراثنا بيروت: www.beirutheritage.org
3. كتاب «رياض المعرفة»، تأليف: عبد الله أبو علم، الناشر، دار الفلاح للنشر والتوزيع، 2013.
4. لقاء نادر مع صلاح جاهين وفؤاد حداد تقديم طارق حبيب: المصدر موقع يوتيوب: www.youtube.com شوهد في 24/ 2024/1.
5. «المسحراتي أيقونة تراثية رمضانية»، برنامج «أون لاين» على قناة إكسترا نيوز، تقديم حسام حداد حفيد الشاعر فؤاد حداد: موقع يوتيوب: www.youtube.com شوهد في 2024/1/24.
6. برنامج المسحراتي، أشعار فؤاد حداد، أداء سيد مكاوي «نسخة مسموعة»: www.soundcloud.com
7. المصدر السابق نفسه.
8. المصدر السابق نفسه.
9. المسحراتي، كعك العيد، قناة الهيئة الوطنية للإعلام على يوتيوب: www.youtube.com
10. برنامج المسحراتي، أشعار فؤاد حداد، أداء سيد مكاوي «نسخة مسموعة»: www.soundcloud.com
11. المصدر السابق نفسه.
12. رواية لحسام حداد حفيد الشاعر فؤاد حداد في برنامج «المسحراتي أيقونة تراثية رمضانية»، برنامج «أون لاين» على قناة إكسترا نيوز: موقع يوتيوب: www.youtube.com شوهد في 2024/1/24.
13. تصريح لمسعود شومان، الباحث في التراث الشعبي المصري، «المسحراتي».. من «بلال بن رباح» إلى سيد مكاوي، موقع سبوتنيك: www.sputnikarabic.ae. شوهد في 24 / 2024/1.
14. فن القوما، مكتبة مصر العامة: www.mpl.org.eg. شوهد في 2024/1/24.

كلمات وتعابير شعبية إماراتية

إبراهيم أحمد ملحم
أكاديمي من الأردن

تزخر الحياة الاجتماعية الإماراتية بكلمات وتعبيرات شعبية كثيرة (تقال باللهجة العامية المحلية)، تشكل قوالب مألوفة ومتعارف عليها في الاستخدام وفق سياقات متنوعة تقتضيها طبيعة الحال التي يعبر عنها. ففي التواصل الاجتماعي يقال: (بيض الله ويهك) حين يؤدي شخص ما فعلاً معيناً يستحق عليه الثناء، فيكون رده: ويهك أبيض. والتعبير مستوحى من قوله تعالى: "يوم تبيض وجوه وتسود وجوه" (آل عمران 106) في تمييز وجوه أهل الجنة وأهل النار، فيكون معنى هذا التعبير: جعلك الله من ذوي الوجوه المضيئة البيضاء بسبب أفعالك الحسنة. ويقال (تهناكم الرحمة): حين يهطل المطر، فيكون رده: يهناك خير. والتعبير مستوحى من قوله تعالى: "وهو الذي ينزل الغيث من بعد ما قنطوا وينشر رحمته وهو الولي الحميد" (الشورى 28). وتقال كلمة (هَني) حين يشرب أحدهم الماء، فيكون رده: هنّاك الله بالإيمان. والتعبير مستوحى من قوله تعالى: "فكلوه هنيئاً مريئاً" (النساء 4). وفي التضامن الاجتماعي تقال كلمة (المعونة) حين يطلب أحدهم المساعدة من الآخر، وتكون هذه المساعدة تحتاج إلى بذل الجهد والمشقة أو المال، فيكون الرد: عونك. ويقال (فالك طيّب) حين يستجيب الشخص لطلب التمسه أحدهم، فيكون الرد معبراً عن الثقة في قدرته على ذلك: فالك ما يخيب؛ أي إنني على ثقة من اقتدارك على فعل ذلك. وفي التعايش الاجتماعي تقال كلمة (اقْرَب) حين يأتي أحدهم زائراً، بمعنى: تفضل. ويكون رده: (قريب) بمعنى سأفعل ذلك. ويقال (زارتنا البركة) حين يأتي الضيف إلى البيت. والتعبير مستوحى من قوله تعالى: "وقل رب أنزلني منزلاً مباركاً" (المؤمنون 29). ونستنج من خلال النماذج السابقة وتتبع مصادرها: أن تحديد المصادر التي انبثقت عنها نسبة عالية من الكلمات والتعبيرات، تؤكد ارتباطها القوي بالدين لدى مجتمع الإمارات، بوصفه مجتمعاً محافظاً، وأن الثقافة الاجتماعية المشتركة جعلت هذه الكلمات جاهزة على ألسنة الناس من حيث الطرح والرد، وجعلتها محببة إلى النفوس، ومن المنتقد حدوث المناسبة في الحياة الاجتماعية وعدم قولها. كما أن وجود هذه الكلمات والتعبيرات بوصفها نماذجاً من كمٍّ هائلٍ، يؤكد مصطلحات مهمة جداً في علم الاجتماع، أهمها: التواصل الاجتماعي الفعال، والتضامن الاجتماعي الذي يجعل الفرد قوياً بقوة المجتمع الذي ينتمي إليه، والتعايش الاجتماعي الذي يجعل الفرد مسهماً في بناء مجتمعه، وعلى علاقة وطيدة بكل أفراده المتماسكين في نسيج واحد. بالإضافة إلى أن علم اللغة الاجتماعي Sociolinguistics ليس يعني، في هذا السياق انحصار "دراسة اللغة في علاقتها بالمجتمع" من حيث كونها إشارات تخاطبية تمكّن من التواصل، وتحمل خصائص صوتية معينة، إضافة إلى كونها تحمل ذوقاً جمالياً يكشف عن النمو اللغوي في مجتمع معين فحسب؛ فاللهجة تتطور بفعل احتكاكها باللغة الأخرى، والابتعاد عن البداوة نتيجة العمل والسكن في المدن، والاعتماد الكلي على المشافهة والكتابة والوسائط المتعددة، وغير ذلك، ولكن الحفاظ على الكلمات والتعبيرات بوصفها قوالب لغوية تجسد المضمون هو ما ينبغي توجيه الاهتمام إليه. لقد اتبعت هذه الكلمات والتعبيرات أقصى معايير اللباقة في التعامل، وعكست العلاقات الاجتماعية الدافئة، وتأثرت العادات والتقاليد بما يكشف عن مدى حساسية اللهجة للنهوض بحملها في المجمع، وديمومتها على الرغم من التغيرات التنموية في مجتمع الإمارات الحديث، وهو ما يؤكد الحفاظ على الأصالة، وفي الوقت نفسه، التنمية غير المؤثرة سلباً بهذه الأصالة. ومن زاوية أخرى، فإن غياب كم كبير من المفردات التراثية المولدة، يؤكد أن الحياة المعاصرة وما فيها من تنمية وتقنية، ونمو لغوي بفعل الابتعاد عن تلك الفترة، قد جعلت مفردات أخرى أكثر دقة واستخداماً تحل مكانها ■

التقاليد الرمضانية في الإمارات ودول أخرى: جولة عالمية

صديق جوهر

ذكر المؤرخون أن أول من مارس عبادة الصوم كان أبو البشر آدم عليه السلام ثم تبعه سيدنا نوح. وقد ورد في السيرة النبوية المشرفة أن النبي محمد صلى الله عليه وسلم قد أمر المسلمين بالصيام في رمضان لأول مرة في السنة الثانية من الهجرة بعد عودة جيش المسلمين من غزوة تبوك. إن شهر رمضان المبارك هو وقت للتأمل الروحي والتفاني في أعمال الخير وتقديم الصدقات تقرباً إلى الله. ولشهر رمضان شأن عظيم في الدين الإسلامي. قال تعالى في سورة البقرة في الآية 185: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدىً لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾. يُعَدُّ رمضان من الشهور المهمة في التقويم الإسلامي حيث يحتفل به المسلمون في جميع أنحاء العالم وتتمتع دولة الإمارات العربية المتحدة بتاريخ وثقافة رمضانية ثرية ترتكز على العديد من التقاليد الفريدة التي تنتقل من جيل إلى جيل.

رمضان في الإمارات

بدأت الاحتفالات بشهر رمضان في دولة الإمارات العربية المتحدة منذ قرون عدة ترجع إلى العهد الإسلامي الأول حيث يتشابك تاريخ وأهمية التقاليد الرمضانية في دولة الإمارات العربية المتحدة بشكل عميق مع ثقافة الدولة وهويتها. في الوقت الراهن تبدأ الاستعدادات في دولة الإمارات العربية المتحدة لاستقبال شهر رمضان قبل بداية الشهر بوقت طويل. تاريخياً كان الإماراتيون يستعدون لشهر رمضان بتنظيف منازلهم وشراء الملابس الجديدة. وقبل حلول شهر رمضان هناك العديد من الطقوس ومنها تقليد (حق الليلة) يتم في الخامس عشر من شعبان أي الشهر الذي يسبق شهر رمضان وتشترك في هذا اليوم العديد من دول الخليج حيث يُرى الأطفال وهم يتجولون في أحيائهم يرتدون ملابس زاهية ويجمعون الحلويات والمكسرات في أكياس كبيرة أثناء غناء الأغاني المحلية التقليدية. وفي دولة الإمارات العربية المتحدة، يعتبر هذا الاحتفال جزءاً لا يتجزأ من الهوية الوطنية الإماراتية، فهو يُذكّر الناس بالأيام الخوالي ويسلط الضوء على أهمية الروابط المجتمعية القوية والقيم العائلية خاصة في مجتمع يعيش في عصر ما بعد العولمة حيث أصبح البشر أكثر عزلة وأكثر فردية وأنانية.

وفي شهر رمضان يتبرع الإماراتيون بأموال باهظة لمساعدة فقراء المسلمين في شتى أرجاء المعمورة من خلال أموال الزكاة والصدقات. وتعتبر الأعمال الخيرية جزءاً مهماً من طقوس شهر رمضان في دولة الإمارات العربية المتحدة، حيث يقدم العديد من الأفراد والمنظمات المال والطعام للمحتاجين خلال الشهر وغالباً ما تنظم الحكومة فعاليات ومبادرات لتشجيع الناس على التبرع للجمعيات الخيرية والمنظمات غير الربحية.

وبالنسبة إلى عادات الطعام إبان الشهر الكريم في الإمارات فغالباً ما تتكوّن وجبة السحور من الأطعمة الخفيفة علاوة على الفواكه والتمر والماء. ويعتبر الإفطار الرمضاني حدثاً اجتماعياً رائعاً، حيث يلتقي الأصدقاء والعائلات معاً لتناول وجبة الإفطار التي عادة ما تشتمل على الأطعمة التقليدية مثل الهريس وحساء العدس والسمبوسة والبرياني وغيرها من الأطعمة وتختلف الأطباق وفقاً للمناطق والثقافات المتعددة. وهناك العديد من العادات والآداب التي يتسم بها الإماراتيون أثناء الشهر الكريم مثل ارتداء الملابس المحتشمة ومشاركة الطعام مع الآخرين. وفي رمضان يحتفي الإماراتيون بليلة القدر وهي واحدة من أهم الليالي في التقويم الإسلامي ويُعتقد أنها الليلة التي نزلت فيها أولى آيات القرآن ولذلك يتم الاحتفال بهذه الليلة من خلال الشعائر الدينية المختلفة خاصة قراءة القرآن والصلاة. وفي نهاية الشهر تبدأ الاستعدادات لعيد الفطر وغالباً ما يتسوق الناس من أجل شراء ملابس وإكسسوارات جديدة، ويزينون منازلهم بالأضواء والديكورات. وتقوم العديد من العائلات بإعداد أطباق تقليدية من الحلوى المصنوعة من الشعيرية والحليب والتمر لمشاركتها مع أحبائهم أيضاً. وفي أيام العيد تقيم معظم المدن في دولة الإمارات العربية المتحدة احتفالات عامة بما في ذلك المسيرات والحفلات الموسيقية وعروض الألعاب النارية.

نافذة على التقاليد الرمضانية عبر العالم

عالمياً اعترفت وكالة الثقافة التابعة للأمم المتحدة رسمياً بوجبة الإفطار التي تشير إلى الوجبة المسائية التي يتناولها المسلمون في إفطارهم اليومي بعد صيام يوم كامل من الفجر إلى المغرب خلال شهر رمضان المبارك، وأضافتها إلى قائمتها للتراث الثقافي غير المادي باعتبارها ممارسة دينية ومجتمعية تضرب بجذورها في أعماق التاريخ الإنساني. وأشارت الوكالة إلى أن رمضان هو أكثر من مجرد فترة صيام فهو شهر مقدس

متجذر في الثقافة والتاريخ يحتفل به الملايين من المسلمين في جميع أنحاء العالم كل عام خلال الشهر التاسع من التقويم الهجري القمري الإسلامي وهو أحد أركان الإسلام الخمسة وهو إلزامي لجميع المسلمين الأصحاء. ويتميز الشهر الفضيل بتقاليد مشتركة مثل الصيام وتقديم الصدقات والصلاة بالإضافة إلى الممارسات التي تختلف من ثقافة إلى أخرى مثل طقوس الاستحمام في إندونيسيا إلى إضاءة الفوانيس في مصر. تختلف التقاليد الرمضانية من بلد إلى آخر. مثلاً ينتشر تقليد (بادوسان) في إندونيسيا وهو دليل على تداخل الدين مع الثقافة الشعبية والكلمة تعني (الاغتسال) أو (الاستحمام) باللهجة المحلية وهو أحد الطقوس التي يمارسها أهل البلاد قبل البدء بصيام رمضان بهدف تطهير النفوس قبل شهر الصوم بيوم واحد حيث يستحم الناس في الينابيع المنتشرة في البلاد خاصة في إقليم جزيرة جاوة. وتحمل الينابيع أهمية روحية عميقة في الثقافة الجاوية، وهي جزء لا يتجزأ من عملية التطهير التي تسبق الشهر الكريم. ويُعتقد أن هذه الممارسة قد انتشرت على يد مجموعة من علماء الدين الموقرين الذين كانوا أول من نشروا الدين والتعاليم الإسلامية في جميع أنحاء جاوة منذ سنوات مضت، وكان من الشائع أن يقوم كبار السن المحليون والزعماء الدينيون باختيار وتخصيص الينابيع المقدسة حيث تتم عملية الاغتسال (بادوسان). في الوقت الحاضر، يذهب الكثيرون إلى البحيرات وحمامات السباحة القريبة، أو يتطهرون في منازلهم.

وفي العديد من دول العالم العربي والشرق الأوسط يتم إطلاق مدافع الإفطار عند آذان المغرب خلال شهر رمضان للإشارة إلى نهاية يوم من أيام الصيام. ويقال إن هذا التقليد العريق قد بدأ في مصر عندما كانت البلاد تحت حكم السلطان أبو سعيد سيف الدين خوشقدم الناصري أحد سلاطين دولة المماليك الجراكسة الذي تولى عرش مصر في عام 865 هجرية وتوفي عام 8 هجرية. وأثناء اختبار مدفع جديد عند غروب الشمس أطلقه خوشقدم (ويعني بالتركية قدم السعد) عن طريق الخطأ ودفع الصوت الذي تردد صداه في جميع أنحاء القاهرة العديد من المدنيين إلى افتراض أن هذه كانت طريقة جديدة للإشارة إلى نهاية الصيام. وقد شكره الكثيرون على ابتكاره وحثته ابنته الحاجة فاطمة على جعل هذا تقليداً طوال الشهر الفضيل. وقد وصلت هذه الممارسة إلى العديد من الأقطار حيث استخدم العثمانيون المدافع للاحتفال بالإفطار في جميع أنحاء البلاد التي سيطروا عليها في أنحاء الشرق الأوسط كله. وفي لبنان كانت هناك مخاوف من فقدان هذا التقليد العريق في عام 1982 بعد الغزو الإسرائيلي للبلاد الذي أدى إلى مصادرة بعض المدافع تحت ذريعة أنها أسلحة قتالية. لكن الجيش اللبناني أعاد مدافع رمضان وتم إحياء هذا التقليد بعد الحرب.

وفي الهند وبنجلاديش وباكستان تجتمع النساء المسلمات عشية العيد بعد ثبوت رؤية الهلال الجديد التي تشير إلى نهاية شهر رمضان وبداية أيام عيد الفطر، حيث تبدأ احتفالات جاند رات (ليلة القمر) أو (الليلة القمرية) وهي احتفالات الليلة الأخيرة من رمضان. بعد الإفطار الأخير تتدفق أعداد كبيرة من النساء والفتيات إلى الأسواق المحلية لشراء الأساور الملونة ورسم أيديهن وأقدامهن برسومات الحناء الجميلة.

وفي ضوء هذا التقليد، يقوم أصحاب المتاجر بتزيين أكشاكهم وتبقى مفتوحة حتى الساعات الأولى من الصباح. وأنشأت بعض النساء المحليات متاجر مؤقتة للحناء بالقرب من متاجر المجوهرات، حتى يتمكّنّ من جذب العملاء للتسوق ووضع الحناء على الأيدي والأقدام. وتتميز الأجواء في الأسواق المزدحمة إبان احتفالات جاند رات بالحيوية والابتهاج وروح التآلف تحسباً لاستقبال العيد في اليوم التالي.

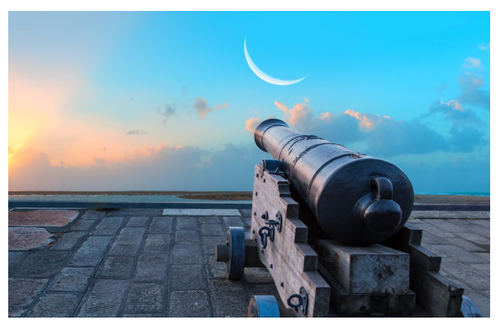

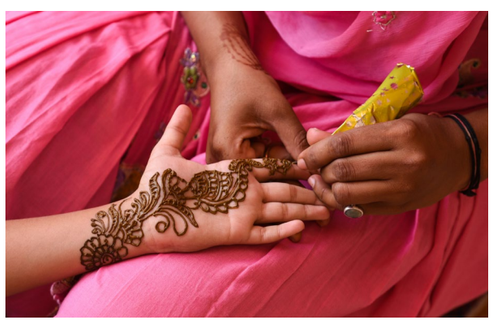

وفي أحياء المغرب يتجول المسحراتي أو النفار (نافخ المزمار أو البوق) خلال شهر رمضان وهو منادي المدينة الذي يرتدي الزي التقليدي المتمثل في الجلباب المغربي والنعال والجراب الجلدي والطربوش الأحمر. ويتم اختيار النفار من قِبل سكان المناطق لصدقه وتعاطفه وهو يسير في الشارع بينما ينفخ في البوق النحاسي لإيقاظهم على السحور ويُقابل بالعرفان والشكر ويتم تعويضه رسمياً من قِبل المجتمع في الليلة الأخيرة من شهر رمضان. ويعود هذا التقليد الذي انتشر عبر بلدان الشرق الأوسط بما في ذلك المغرب إلى القرن السابع الميلادي عندما كان أحد صحابة النبي يتجول في الشوارع عند الفجر وهو ينشد الأدعية والتواشيح. وفي جنوب أفريقيا يحتفل (مان كيكرز) برؤية هلال العيد والعبارة في اللغة الأفريكانية المحلية تعني (مراقبو القمر). وفي الليلة الأخيرة من شهر رمضان يتوجه المسلمون من جميع أنحاء جنوب أفريقيا إلى حضور فعاليات رؤية هلال العيد في مدينة كيب تاون حيث يتجمعون عند شاطئ البحر وفوق التلال. ولكن (مراقبي القمر) هم المعنيون فقط، من قِبل المجلس القضائي الإسلامي في جنوب أفريقيا، بإعلان الرؤية الرسمية لهلال شوال وبدء أيام عيد الفطر السعيد وانتهاء شهر رمضان. وفي تركيا يتناول الناس السحور على صوت الطبول. ومنذ أيام الدولة العثمانية كان الصائمون في شهر رمضان يستيقظون على صوت قرع الطبول قبل الفجر لتناول وجبة السحور. وعلى الرغم من مرور الوقت والاختراعات الحديثة فإنه لا يزال أكثر من ألفي قارع طبول يجوبون شوارع تركيا خلال الشهر الفضيل. ويرتدي عازفو الطبول الزي العثماني التقليدي بما في ذلك الطربوش والسترة المزينة بزخارف تقليدية. وأثناء تجولهم بالدافول (الطبل التركي ذو الرأسين)، يعتمد قارعو الطبول في شهر رمضان على كرم السكان لتزويدهم بالبقشيش أو حتى دعوتهم للمشاركة في وجبة السحور. ويعتقد العديد من السكان أنهم سيحصلون على الحظ السعيد مقابل تبرعاتهم لقارعي الطبول. وفي الآونة الأخيرة قدّم المسؤولون الأتراك بطاقة عضوية لقارعي الطبول من أجل غرس الشعور بالفخر في نفوس أولئك الذين يقومون بهذه الخدمة في سبيل الحفاظ على هذا التقليد القديم في دولة سريعة التغير.

أكاديمي وناقد: خبير الترجمة في الأرشيف والمكتبة الوطنية

تراث رمضان راسخ ولا خوف عليه

فاطمة عطفة

ننتظر شهر رمضان المبارك بلهفة ومحبة، لأنه يجعل حياتنا العائلية حافلة بالألفة والبهجة، وخاصة حين نلتقي جميعاً في ساعة الإفطار، وكأننا قادمون من سفر بعيد، حيث تطيب الأحاديث وذكريات السنين الماضية، وخاصة مع الأمهات والجدات. ولا يمكن لمرور الزمن وتغير الظروف أن تنسينا أدبيات هذا الشهر الكريم وتقاليده العائلية والاجتماعية. وفي لقاء الكاتب الروائي حارب الظاهري يستحضر ذكرياته العزيزة في رمضان قائلاً: "أنظر إلى التراث الرمضاني ما بين الحاضر والماضي بأنه يتجدد بكرمه وخاصيته، وما زال يختلف عن سائر الشهور لمكانة الشهر العظيمة من ناحية دينية، ومن ناحية اجتماعية ما زال الحرص على الموائد الرمضانية في الإمارات تنتشر من خلال البيوت والخيم التي يفد إليها سائر البشر من مسلمين وغير مسلمين، وهذا كرم الشهر وتراثه الأصيل في بلدنا الإمارات".

ويضيف الظاهري موضحاً: "هنا يمتزج التراث المجتمعي والديني معاً لينسج بانوراما خلابة في كرم الشهر يجعل من الحياة مثالاً أعلى في سكينة وخشوع واطمئنان وتلاحم ما بين الشعوب المسلمة في الزيارات وتقاسم التراحم والعبادة وتعميق أواصر المحبة والاحترام والقيم الإنسانية التي يدعو إليها الشهر الكريم، وهي من فضائله الجميلة.

فاطمة عطفة بريشة الفنان ناصر بخيت

الكاتب حارب الظاهري

ويرى الظاهري أن للماضي رونقه في شهر رمضان وله طعم مختلف ومحبب أكثر، لأن الألفة الأهلية يمكن أن تتغير أو تفقد بعامل الزمن والحياة، لأن هناك من رحل وترك ذكرى وأثراً رمضانياً تحضر مع مرور المناسبة من خلال الإفطار المتبادل بين البيوت والجيران وحوارات المجالس التي تجسد حميمية مختلفة. والجميل أن بعض هذه العادات ما زالت ماثلة وبعضها تجددت بشكل أو آخر، وبعضها انتهت ولم تعد إلا في ذاكرة المجتمع.

وفي لقاء الروائية مريم الغفلي ومكانة الشهر المبارك في حياتها تقول: رمضان كان وما زال حاضراً في مجتمع دولة الإمارات العربية المتحدة ولم يتغير الوضع كثيراً، وما زال الجميع ينتظر هذا الشهر الفضيل ويخصه بكل ما هو جديد.. من ملابس وعطور وتنظيم المجالس وترتيبها وشراء الأدوات اللازمة لاستقبال الأهل والضيوف على موائد الإفطار والسهرات بهذا الشهر الفضيل .

وتتابع الغفلي حديثها مبينة أن الشهر الكريم ما زال حافلاً بموائد عامرة خاصة مثل الهريس طبق رمضان الأغنى والأغلى عندنا، حيث يتم اختيار اللحم لهذا الطبق من أجود أنواع لحم الضأن المربى في المزارع والعزب المحلية، وكذلك أجود أنواع حب القمح وتجهيز علب السمن البلدي، فكل شيء في

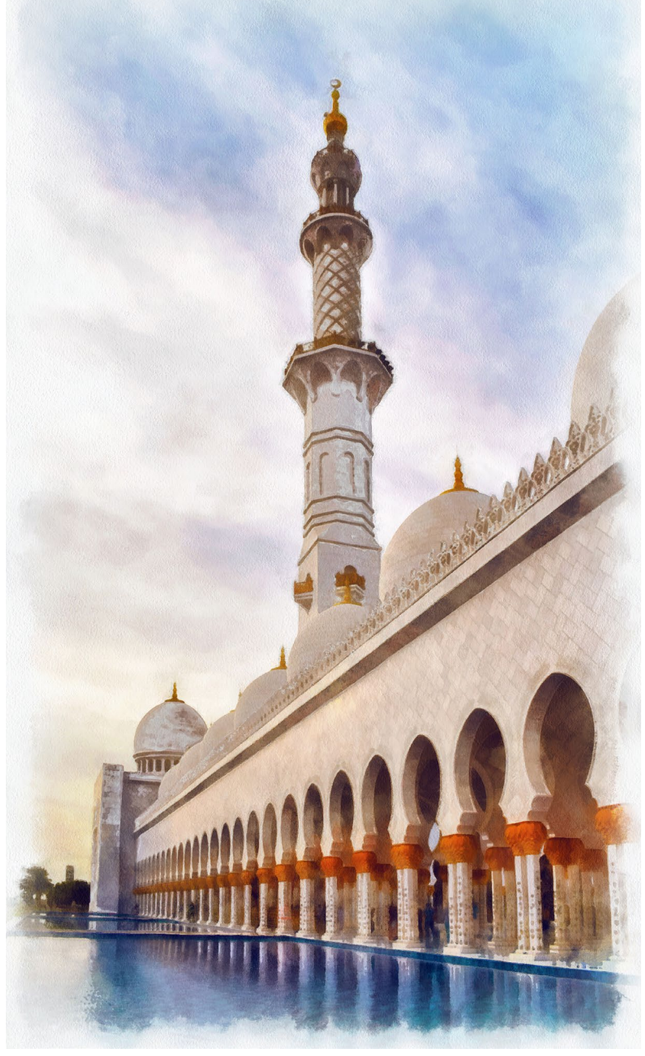

جودة هذا الطبق يعتمد على المكونات الطازجة المختارة بعناية، وكذلك طبق الثريد المشهور هنا، والأطباق الشعبية الأخرى مثل اللقيمات والخنفروش وغيره.

وتضيف الروائية الغفلي موضحة أن القهوة تجهز باختيار البن الممتاز وتحميصه وطحنه كما هي الحال في اختيار أدوات تقديم القهوة من دِلال وفناجين، وكذلك اختيار أجود أنواع العود لتبخير الضيوف بعد الفطور وقبل صلاة التراويح .رمضان في الإمارات شهر تتجلى فيه المحبة والتواصل والعطاء والروحانية حيث تعمر المساجد بالمصلين والمصليات وها هو مسجد الشيخ زايد - طيّب الله ثراه - خير مثال. فقد رسّخ مكانته كوجهة مهمة ورئيسية يؤمه المصلون من أنحاء الدولة كافة لصلاة التراويح، كما هي الحال مع باقي الجوامع في الدولة. أما الأسر فتحتفي وتحرص على الاجتماع والزيارات خلال هذا الشهر فهي تحرص على تعويد الصغار على عادات وتقاليد وسنع رمضان من احترام الكبير ولبس الزي المحلي من كندورة للبنات والصبيان .ومن التقاليد المهمة في رمضان تعويد الأطفال على توزيع وجبات الإفطار، والذهاب مع الوالدين لصلاة التراويح في المصليات.

وترى الغفلي أن شهر رمضان في الإمارات لم يختلف كثيراً عن السابق في التركيز على العبادات وصلة الرحم والعطاء، كما أن الاستعداد له لم يتغير، فما زال الحرص على الزيارات والتجمع للإفطار كسابق عهده، وإن اختلفت المظاهر من حيث اختلاف الموائد وتنوعها واختلاف الأزياء. والظاهرة الملاحظة التهافت على الأسواق والشراء والتجهيز لهذا الشهر قبل حلوله، فهو موسم خير وعطاء ولقاء، حتى بلديات الدولة أصبحت تولي رمضان أهمية كبرى من حيث الاهتمام بالمساجد والمصليات وفرشها وإضاءتها، وكذلك تزيين الشوارع والميادين بزينة رمضان ومراقبة الأسواق وتزويدها بمتطلبات هذا الشهر وتختم الروائية مريم الغفلي حديثها مشيرة إلى أن أجمل المظاهر في رمضان إقامة موائد الرحمن للفقراء والمنقطعين، وكذلك الفعاليات الرمضانية التي تتناسب مع أجواء هذا الشهر الفضيل، إنه شهر يحتفى به هنا كما هو في الماضي، ولكن الماضي كان متميزاً ببساطته وهدوئه واقتصاره على الفرجان والأحياء الصغيرة. ولكن حالياً أصبح رمضان موسماً لكل شيء جميل ومبهر، وكما هي الحال في معظم دول العالم الإسلامي، فهو شهر الخيرات والليالي المباركة والعبادات الخاصة. لا يمكن أن نخاف على تراث رمضان من الاندثار، فهو إرث متوارث وعادة مستمرّة تجدد وتواكب الحداثة بكل ما هو جميل، وهو متواصل ومستمر كإرث ثقافي للأجيال القادمة ■

صحفية من سوريا

كيف غيّرت الرحلة حياة الفنان التشكيلي الفرنسي «إيتيان دينيه» من إيتيان دينيه إلى الحاج ناصر الدين دينيه

لوحات بطقوس رمضانية

محمد فاتح صالح زغل

الصدفة وحدها هي التي قادته لهذه الرحلة، حيث حصل على جائزة كانت رحلة إلى الجزائر وذلك في سنة 1884، وهي الرحلة التي أثرت في نمط تفكيره وفي أسلوب حياته، انطلق إلى واحة «بوسعادة» في الجزائر فاندمج بحياة سكانها فصوّر يومياتهم وطقوسهم الدينية وبان حبه للإسلام وشغفه بالدين الإسلامي وعبّر عن ذلك في كتاباته وفي لوحاته ومن أبرزها أعماله عن الطقوس الرمضانية، وكذلك طقوس رحلته إلى الحج، عبر المزج مع بيئة الصحراء التي عاشها مع الناس.

جاء إيتيان دينيه إلى الجزائر من فرنسا المولود فيها سنة 1861م من أب مسيحي، ودرس وتعلم حتى حصل على شهادة البكالوريا، وحينها بدأت موهبة الرسم تبرز عنده، ونال أول جائزة في مسابقة الرسم سنة 1879م. ثم التحق بمدرسة الفنون الجميلة في باريس سنة 1881م، وفي سنة 1883م نال ميدالية الرتبة الثالثة.

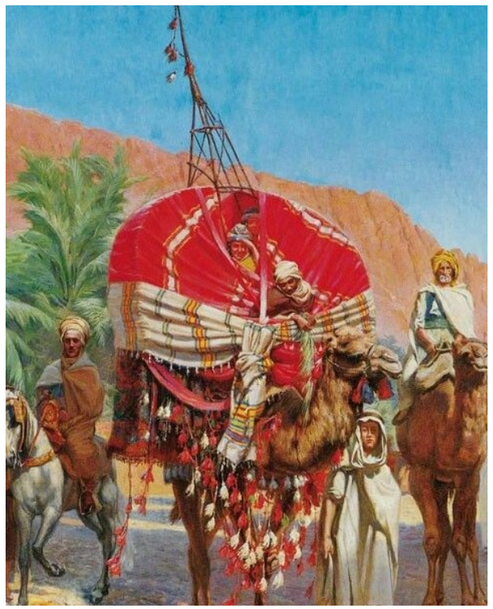

الرحلة الأولى في حياة دينيه إلى الجزائر

سافر إيتيان دينيه بموجب الجائزة الممنوحة له إلى الجزائر سنة 1884 مع نخبة من علماء منطقة «بوسعادة» في الجزائر، ويعد هذا العام هو بداية التحول في فكره وفي فنّه التشكيلي ومن وقتها تسربت الراحة النفسية إلى روحه، فتكررت سفراته إلى المكان نفسه ليستقر بعد ذلك في منطقتي الأغواط والبسكرة، ثم يستقر في «بوسعادة» التي وجد فيها راحته وطمأنينته، فصوّر طبيعتها التي سحرته، وبيوتاتها، وأزقتها، وناسها ببساطة عيشهم، وحبهم للآخرين، لدرجة أنه ألفهم، واقتفى أثرهم، وتعلّم لغتهم حتى أصبح بوسعادياً لا تفرق بينه وبين سكان أهلها الأصليين، يلبس لباسهم، ويأكل طعامهم، ويتطبع بطباعهم وعاداتهم وأخلاقهم التي وجد فيها ضالته، فأسلم سنة 1913م؛ ونطق بالشهادتين بحضور مفتي الجزائر. وهكذا أصبح دينيه الفرنسي ناصر الدين دينيه -وهو الاسم الذي فضّله بعد دخوله الإسلام- مسلماً يقرأ القرآن ويصلي، بل يحجّ إلى بيت الله الحرام، وقد سجل دينيه سبب إسلامه قائلاً: «عرفت الإسلام فأحسستُ بانجذاب نحوه، وميل إليه، فدرسته في كتاب الله، فوجدته هدايةً لعموم البشر، ووجدت فيه ما يكفل خير الإنسان روحياً ومادياً، فاعتقدت أنه أقوم الأديان لعبادة الله، واتخذته ديناً، وأعلنت ذلك رسمياً على رؤوس الملأ».

الطقوس الرمضانية والحج والصلاة في لوحات دينيه

شكّلت طقوس الإسلام كالصلاة والحج وخاصة شهر رمضان مادة تشكيلية خصبة فرسم العديد من هذه الطقوس بروح سكان أهلها أهل الصحراء حيث عاش معهم، ويعد شهر رمضان موضوعاً أثيراً لدى الرحالة المستشرقين الذين زاروا

المشرق العربي في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، لما يمثله من عمق روحي وقدسية، ولطقوسه وعاداته المختلفة أيضاً، ومن هؤلاء إيتيان دينيه الذي صوّر في لوحاته الكثير من طقوس رمضان الدينية، وهو مقيم بين أهل «بوسعادة»، ومن لوحاته الخاصة بطقوس رمضان:

لوحة «مراقبة هلال رمضان»

وهي تُمثّل ثلاثة رجال وطفل يراقبون السماء ويرفعون أيديهم بالدعاء، وتبدو ألوان اللوحة مضيئة ونورانية وشفافة ويطبعها الهدوء والدفء الدال على الانسجام بين الألوان والأحاسيس، وتعبّر عن دقة في نقل أحوال أصحابها النفسية والمشاعر الدالة على الخشوع وعلى عمق الإيمان.

لوحة رؤية الهلال والصلاة

ومن طقوس رمضان عند دينيه رؤية هلال رمضان التي جسّدها في لوحاته، وكان لها احتفالية خاصة عند السكان هناك ومراسم للاحتفال الشعبي والرسمي عبر إقامة الزينات والفرح والابتهاج بقدوم شهر رمضان، ومن طقوس رمضان الأخرى في أعمال إيتيان دينيه، الصلاة، فرغم حضورها كطقس يومي في حياة المسلمين فإن الحرص على أدائها في الشهر الكريم كمظهر من مظاهر الإيمان العميق يكون أكثر، فأنجز العديد من اللوحات في الموضوع ومنها لوحة صلاة الفجر، فيبدو فيها الأب والابن والجد يؤدون الصلاة واللوحة زاخرة بمشاعر الإيمان والخشوع مع دقة في التفاصيل وتلاعب بالظل والضوء الذي يضفي مسحة من الرومانسية والسحر على المشهد، كما بدت لوحاته مفعمة بالحركة، حيث صوّر الحركات التي يقوم بها المسلم في أثناء الصلاة، وله لوحة صلاة العيد التي يؤديها المسلمون في الهواء الطلق أيضاً، والملاحظ على لوحاته الخاصة بالصلاة أنها تمارس في حضن الطبيعة، وليس داخل المساجد كما هو الأمر في لوحات المستشرقين الآخرين، وذلك لطبيعة "بوسعادة" الصحراوية حيث يفضل الإنسان أداء الصلاة في أي مكان يدركه وقتها، أما لوحة «لباس العيد» وتمثله طفلة تحيط بها نساء عدة يلبسنها الملابس الجديدة، ويبدو الفرح والسعادة على محيا الجميع، وتبدو الألوان زاهية وضاجّة بالحياة مع اقتناص لحظة الفرح التي تبدو على ملامح الشخصيات، كما غلب الطابع الصحراوي كدلالة على الصفاء والطهر والتصوف الذي يسم الصحراء وأهلها.

الرحلة الثانية في حياة دينيه رحلة الحج

الرحلة الثانية في حياة دينيه كان لها الأثر الكبير على حياته وفكره وأعماله، فعند بلوغه الـ 68 من عمره حجّ إلى بيت الله الحرام برفقة صديقه باعامرسنة 1929م، وبعد أن أنهى مناسك الحج كتب رسالته الشهيرة من المملكة العربية السعودية، وتحديداً من محافظة جدة، يقول فيها: «هذه الرحلة تركت في نفسي انطباعات لم أشعر بما هو أسمى منها في كل حياتي؛ فلا أحد في العالم يمكنه أن يعطي فكرة عما شاهدته من جوانب هذه العقيدة الوحدانية، من حيث المساواة والإخوة بين نحو 250 ألفاً من الناس من مختلف الأجناس كانوا مزدحمين الواحد بجانب الآخر في صحراء موحشة».

وبعد رجوعه من الحج سُمِّي بـ (الحاج ناصر الدين)، وعاد بعدها إلى باريس، ولم يتمكن من العودة إلى الجزائر؛ لأن المرض لازمه، فعاد إليها ميتاً بعد أن صلّى عليه كثير من الشخصيات الإسلامية، وممثّلون عن الحكومة الفرنسية في مسجد باريس الكبير، ثم نقل جثمانه - حسب وصيته - إلى الجزائر، ودفن في مقبرة (الدشرة القبلية) في «بوسعادة» في ضريحه الذي بناه لنفسه بجوار قبر رفيق دربه باعامر. وكُتب على شاهدة قبره بالخط الثلث: «هذا قبر المرحوم بمنة الحيّ القيوم

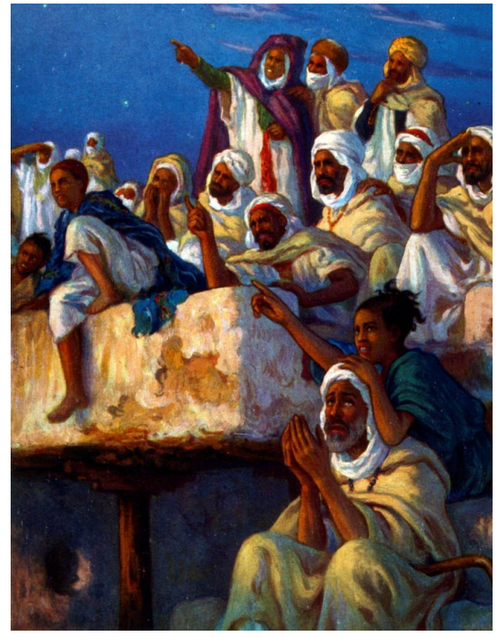

الحاج ناصر الدين، وُلد بتاريخ مارس سنة 1861م، واعتنق دين الإسلام سنة 1913م، ولبّى دعوة ربّه بتاريخ ديسمبر سنة 1929م».

تحولات جذرية في منتجه التشكيلي

مما لاشك فيه أن المتابع لأعمال دينيه يلحظ أنها تنتمي إلى مرحلتين من حياته: مرحلة ما قبل الإسلام، ومرحلة ما بعد الإسلام؛ إذ تصور أعماله التي رسمها قبل الإسلام النمط الفني الذي كان سائداً عند رسامي فرنسا من حيث رسم المرأة عارية، لكنه بعد أن أعلن إسلامه تغير هذا المنحى عنده فأصبحت ريشته لا ترسم إلا الجمال والطهر والعفاف. كما صوّرت ريشته مدينة «بوسعادة» التي أحبها وفق أسلوب فني يقول عنه المؤرخ الدكتور عفيف البهنسي: «امتاز أسلوب الحاج ناصر الدين بالواقعية التقريرية التي فرضتها قوة ملاحظته، وبذلك كان قريب الصلة بالناس، ومع أنه رسّام دقيق إلا أن مقدرته التلوينية الخارقة قد أعطت واقعيته معنى خاصاً».

متاحف العالم تقتني إبداعاته

أهم أعماله

كان ألفونس إيتيان دينيه رساماً يعمل بالأسلوب الاستشراقي الذي كان شائعاً خلال فترة وجوده، لكن الإسلام وتأثيراته المختلفة الروحية أثرت في أعماله فقد ترك دينيه لوحات خالدة، وتعدّ لوحات: الصلاة، والعودة، وغداة رمضان، ولوحة امرأة مطلقة طردها زوجها مع أطفالها، ولوحة سطوح الأغوار، ولوحة الخروج من المدرسة القرآنية، التي يصوّر فيها أطفالاً يلعبون مع أحد أقرانهم بعد خروجهم من مدرسة تحفيظ القرآن، ولوحة الراقصة ذات الوشاح. لم يكن دينيه رساماً مشهوراً فقط، بل كان مفكراً وكاتباً، سخّر قلمه لنصرة الإسلام والمسلمين؛ إذ نشر آراءه في كثير من الكتب التي يتحدث فيها عن الإسلام، وعظمته. ومن كتبه (الحج إلى بيت الله الحرام)، الذي كتبه بعد عودته من الحج، أما كتابه (محمد رسول الله)، الذي يصوّر فيه سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم، والذي شاركه في تأليفه سليمان بن إبراهيم، فيعدّ من أهم مؤلفاته، وكان قد وضع مقدمة هذا الكتاب الشهير شيخ الأزهر الدكتور عبد الحليم محمود في مارس سنة 1956م ■

أكاديمي وباحث في التراث

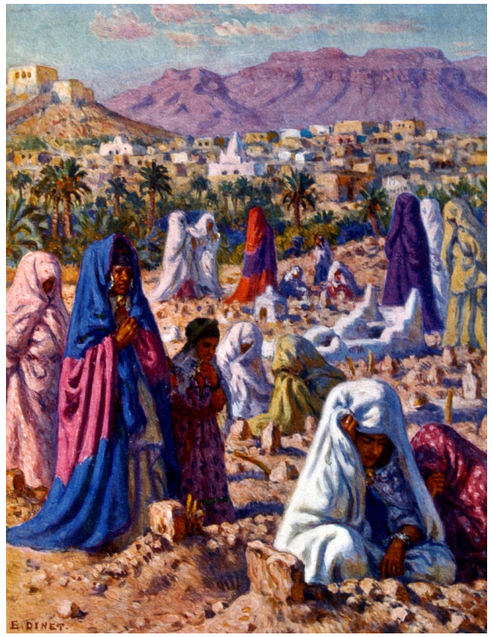

رحّالة ومستشرقون

يوثّقون المظاهر الرمضانية في القاهرة قديماً

علي تهامي

لليل القاهرة في شهر رمضان مذاق خاص، وصورة متفردة جعلتا لشهر الصوم في العاصمة المصرية، طابعاً خاصاً، جذب أعين الرحالة العرب، والمستشرقين الأوروبيين، طوال قرون مضت. وفرضت عوالم القاهرة وروحها الشعبية، سطوتها على الكثيرين من الكتّاب والمثقفين المعاصرين، الذين وقعوا في عشق مقاهيها ومعالمها التراثية، ومبانيها التاريخية، وعمارة «القاهرة المعزية» أو القاهرة الفاطمية. لكن تبقى ليالي شهر رمضان هي الأكثر عبقاً، والأكبر تأثيراً في أعين وقلوب الرحّالة والمستشرقين الذين وثّقت كتاباتهم الكثير من المظاهر الرمضانية في نهار القاهرة وليله قديماً. مثل البريطاني «إدوارد لين» عن رمضان قائلاً «والليلة التي يُتوقع أن صبيحتها رمضان تسمى ليلة الرؤية.. فيرسل عدد من الأشخاص الموثوق بهم إلى مسافة أميال عدة في الصحراء حيث يصفو الجو لكي يروا هلال رمضان».

والرحالة الإيطالي «فيلكس فابري» الذي زار مصر عام 1483 ميلادية، والذي عبّر في كتاباته عن دهشته ليلة دخوله القاهرة لكثرة ما رأى في شوارعها من الأنوار والمشاعل والفوانيس مختلفة الألوان والأشكال، يحملها الكبار والصغار ولمّا استفسر عن ذلك الصخب، قيل إنه شهر رمضان وإن المسلمين يحتفلون به على هذا النحو. والرحالة الفرنسي «جان باليرن» الذي زار مصر عام 581 ميلادية، والذي قال في مذكراته بأن المصريين يحرصون في رمضان، على توزيع اللحوم والصدقات على الفقراء ويتبادلون الزيارات والسهرات ويقومون بإنارة فوانيس كبيرة ملونة أمام المنازل والحوانيت وفي المساجد.

والرحالة «برناردي بريد باخ» الذي قَدِم إلى مصر من مدينة البندقية في منتصف القرن الخامس عشر الميلادي، ووصف مظاهر بهجة الناس بشهر رمضان، مثل إنارة المساجد والدروب والإنشاد وحلقات الذكر. والأيرلندي «ريتشارد بيرتون» الذي وصل إلى مصر في عام 1853 ميلادية، وكتب عن مظاهر شهر رمضان في مدينة القاهرة قائلاً: «تراعي مختلف الطبقات شعائر هذا الشهر بإخلاص شديد رغم قسوتها - على حد قوله - فلم أجد مريضاً اضطر ليأكل حتى لمجرد الحفاظ على حياته.. وحتى الآثمين الذين كانوا قبل رمضان قد اعتادوا السكر والعربدة حتى في أوقات الصلاة قد تركوا ما كانوا فيه من إثم فصاموا وصلّوا. والأثر الواضح على هذا الشهر على المؤمنين هو الوقار الذي يغلف طابعهم وعند اقتراب المغرب تبدو القاهرة وكأنها قد أفاقت من غشيتها فيطل الناس من النوافذ والمشربيات بينما بعضهم منهمك في صلاته وتسبيحه وأخيراً ينطلق مدفع الإفطار من القلعة، ويجلجل صوت

المؤذن جميلاً داعياً الناس إلى الصلاة، ثم ينطلق المدفع من قصر العباسية، فتعم الفرحة أرجاء القاهرة التي كانت صامتة، وينتقل إحساس الترقب المبهج إلى اللسان الجاف، والمعدة الخاوية، والشفاه الواهنة، فيشرب الناس من «قُلّةْ» الماء، ويطلبون في عجلة الشيشة، مع قدحٍ من القهوة ثم ينتظرون مباهج المساء. ومن المعروف أن العاصمة المصرية القاهرة، اهتمت على مرّ العصور، باستقبال شهر رمضان المبارك وأحاطته بأنواع من التكريم والتعظيم وأحيته بصنوف من العبادة وأغدقت فيه من الخير على الفقراء والمعوزين، كما اهتمت بالاحتفال برؤية هلاله، في مواكب كان يتقدمها الحكام والوزراء ورجال الشرطة والجيش. وكانت ما تسمى بـ «دار الفطرة» تنجز كميات كبيرة من الكعك والحلوى وكعب الغزال يبدأ الإعداد لها من شهر رجب حتى منتصف رمضان، وكانت الميزانية المقررة لدار الفطرة، تبلغ عادة ستة عشر ألف دينار، وذلك لشراء الدقيق وقناطير السكر واللوز والجوز والفستق والسيرج والسمسم والعسل وماء الورد والمسك والكافور، إلى جانب المناديل والمفارش الحريرية لإعداد السماط والفوط التي يغطي بها الكعك عند توزيعه على الخاصة والعامة.

كما عرفت القاهرة، مواكب استقبال شهر الصوم، ومواكب رؤية هلال رمضان، وقد عُرِفَت مصر الفاطمية، باحتفائها اللافت للنظر برؤية هلال شهر رمضان، إذ كان «يخرج الخليفة، في موكب، متحلياً بملابسه الفخمة، وحوله الوزراء بملابسهم المزركشة، وخيولهم المطعمة، بسروجها المذهبة، وفي أيديهم الرماح والأسلحة المذهبة، والأعلام الحريرية الملونة، وأمامه الجند، تتقدمهم فرق الموسيقى وهي تصدح بأنغام شجية، ويسير في موكب الرؤية التجار وصيّاغ الذهب والصيارفة وغيرهم من أصحاب المهن والحرف»، ولاتزال الكثير من المظاهر القديمة لمواكب استقبال شهر رمضان باقية في المواكب المعاصرة التي تقام ببعض الأحياء الشعبية في القاهرة، احتفاءً بقدوم شهر رمضان حتى اليوم.

وتشهد ساحات ميدان مسجد الإمام الحسين، في حي الحسين الشعبي الشهير في القاهرة، زخماً خاصاً في ليالي شهر رمضان، وتستقبل مقاهيها الآلاف من الزوار الأجانب والعرب والمصريين، ويُعد شهر رمضان مناسبة سنوية لحالة من الازدهار السياحي في المنطقة التي تفتح مطاعمها ومقاهيها في كل ليلة من ليالى رمضان، قبيل موعد الإفطار، وتظل عامرة بروادها حتى انطلاق أذان الفجر■

إعلامي مصري

الباب والتراث الشعبي

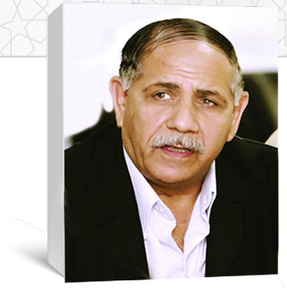

عبد الفتاح صبري
روائي وناقد مصري

يمثل الباب ذاكرة شعبية مهمة حيث دارت حوله القصص والحكايات الجمعية الشفهية في عموم الوطن العربي الكبير من أقصى الشرق العربي إلى مغربه، وتكاد تكون الحكايات واحدة وتحتفظ الذاكرة بالعديد من الممارسات الشعبية التي اهتمت بالباب بوصفه المدخل الأول والعتبة الأولى نحو الداخل ونحو مكونات الدار والسكن وبالتالي فإن الباب هو الوجاء الأول المانع للدخول من ناحية، ومانع نظر الرائي أو المتطلع بشر أو سوء أو حسد أو بعين لامة لأهل الداخل ومتاعهم ومحتويات دارهم وممتلكاتهم. ولذا سنجد للباب اهتماماً من الناس لدرء مخاطر القادم في شكل ممارسات متعددة.

الباب في التراث ومنع الحسد:

تم الاهتمام به من حيث الشكل وهندسته وإزجاء ألوان ونقوش ورسوم محفورة أو ملصوقة كعنوان للعز والفخامة والتعبير عن أهميته. ولم يتم الاكتفاء بذلك فتم استخدام الباب لدرء الحسد وعين الرائي القاصدة الضرر والإمعان في إنزال الخطر على أهل الداخل المتحصنين بالباب، فكان بعضهم يلجأ إلى صيد هدهد وذبحه ووضعه داخل كيس قماش ويعلق أعلى باب الدار أو المسكن، حيث إن الهدهد في اليقين الشعبي يمنع الحسد والغل والخطر من القادم الداخل للدار. والهدهد يحظى في الذاكرة الشعبية باهتمام كبير ويعد من أقرب الطيور البرية إلى الناس حتى إن المصريين القدماء لفرط حبهم كانوا يربون الهدهد في البيت ويربطون بينه وبين عين حورس التي كانوا يعتقدون على قدرتها على رؤية العوالم الخفية، وفي الحضارات كلها والذاكرة الإنسانية عموماً إجلالاً وحباً لهذا الطائر. واعتبره العرب رمزاً للبر بالوالدين ونسبوا تاج الهدهد إلى أسطورة تتحدث عن هذا البر. ففي الذاكرة الشعبية المصرية حتى عهد قريب كانوا يرون في دم الهدهد واقياً من الحسد والعين ولذا كانوا يعلقونه، أي الهدهد، على الباب درءاً للحسد وطرداً للعين الحسودة وبالطبع أنسب مكان لذلك هو حلق باب الدار وقبل دخول الحاسد لمنع حسده وقبل دخوله إلى الدار والنظر إلى مكنونها ومكتنزاتها.

ومن الممارسات المعروفة في الموروث الشعبي هو تعليق الخرزة الزرقاء على الباب وهو طقس شعبي كان إلى عهد غير بعيد مستخدم في البيوت في الأحياء الشعبية أو في بعض المنازل في الريف المصري، حيث يؤمن بعضهم أن الخرزة الزرقاء تمنع العين اللامة والحسودة وترد شر الحاسد عليه.. وتعود أصول هذا المعتقد إلى المصريين القدماء حيث ورثها بعضهم ظناً منهم بأن القوى الخفية الشريرة تسبب الأذى والضرر، لذا تلجأ مجموعة منهم إلى نوع من التمائم لدرء هذا الأذى وتلك الأضرار المتوقعة والحماية وتوفير الأمن والأمان من تلك القوى الخفية ومن الحسد والعين اللامة أيضاً؛ ولذلك اعتقدوا بالخرزة الزرقاء الموروثة من المعتقدات المصرية القديمة وقاموا بتعليقها على الأبواب كوجاء وحماية.

ومن أشكال تحصين الباب ضد الرائين والحاسدين وأصحاب ضمائر السوء العابرين لأهل الداخل تتعدد أشكال هذا التحصين، حيث يتم وضع يد على شكل كف مفتوح وهذا الكف ترفع في وجه الآخر، فحين يرى أحدهم أن الآخر يلمز بحسده فإنه يرفع كفه المفتوح قائلاً خمسة وخميسة درءاً لهذا الحسد الذي يراه متقصداً من الطريق الآخر، وهذا التعبير مستخدم في الموروث الشعبي العربي، وخمسة وخميسة تقال في وجه الحاسد وحولوا هذه الكف إلى شكل ملموس مصنوع من الخشب أو الحديد أو الخزف أو الطين المحروق وعلقوه أعلى أبوابهم كحماية من عين الحاسد قبل ولوجه إلى أعماق الداخل ورفع خطره وإبطال مفعول عينه من العتبة الأولى ومن عند الباب وقبل عبوره له. وهذه الخمسة أو خمسة وخميسة التي يعلقها بعضهم على بابه لدرء الحسد أو السحر.. هي رمز يهودي ويستخدم كتعويذة لصد الحسد والسحر وموجودة في التراث اليهودي والمسيحي وتستخدم في عموم الوطن العربي وبعض دول أفريقيا، وتستخدم هذه التميمة تسميات مختلفة لدى الديانات والمذاهب. المهم أنه يعلق على الباب في بعض المناطق الشعبية العربية والريفية كرمز للحماية من الشرور وجلب الرزق في آن.

الباب مدخل الدار مسؤول عن الأمان المادي والمعنوي لأهل الداخل، ولذلك فإنه استخدم وطبقاً للمعتقد الشعبي ليكون أهلاً لهذا الأمان المنتظر ومن الأمور الغريبة الموجودة في الموروث الشعبي هو أهمية أن يعلق حذاء قديم على باب الدار ليكون في استقبال الأشرار وأصحاب النوايا السيئة ويعتقد بعض الناس أن هذا الحذاء يرد العين ويدفع الحوادث ويبدو أن الحذاء القديم هو رمز للرد والدفع والحماية التي تسهم في تغليف الباب وتحصينه ضد القادم الذي ينوي الشر، ولا يؤمن جانب الخطر القادم من عينه اللامة أو سوء ظنه الحاسد للنعمة التي يرفل فيها أهل الداخل إلا بوضعه أو بوضع غيره من المعوذات المانعة للحسد والأذى.

هناك أشياء ومواد أخرى يرى الناس في المناطق الشعبية ووفقاً لذاكرتهم وموروثهم الثقافي والتراثي أن هذه المواد يجب أن يكون الباب متعانقاً معها أو بها ليكون الحصن الآمن المادي والمعنوي. ومن هذه الأشياء التي ما زالت متوارثة وموجودة في صعيد مصر أن بعض الصعيديين يحصنون باب دارهم بـ «قرون الخروف» ويعلقونها أعلى الباب كوجاء وحماية وحفظ البيوت من الشر وفلق العين الحسودة وتعتبر القرون هذه إحدى أدوات الحماية والدرء في يقين الذاكرة الجمعية الشعبية ولها دلالات مستلة من تاريخ طويل من ممارسات شعبية تهتم بدرء الحسد واستخدام واجهة الباب الرئيسية للدار منعاً من شر الحاسدين وبالتأكيد هذه الممارسات أو دلالات هذه القرون مرتبط بجذر عميق متوارث أجيال عن أجيال وبالتوازي مع هذه الأشياء تعتبر حدوة الحصان رمزاً متوازناً لدرء الشر والحسد والعين أيضاً، حيث إن الحسد يمثل أحد الشرور التي يحاول الناس اتقاءها فيضطرون إلى اللجوء إلى الأساليب الشعبية والمعتقدات لمنع عين الحاسد الحاقد وفق ما يجده في الموروث الشعبي من أدوات وآليات، ولذا فإنهم وفق هذه الموروثات يرون في حدوة الحصان أداة لها تأثيرها الفعال في منع العين والحسد والسحر، ولذا علقوها على باب الدار لمنع الأذى والحسد والشر وفق معتقداتهم.

الباب أداة الدخول للدار والأمان والحصن والعتبة الأولى، ولذا فإن مسؤوليته كبيرة لدرء الأخطار المعنوية كالحسد والشر، ولذا ربط الإنسان بينه وبين المنع بتداول مثل هذه الأشياء التي يعلقها على الباب لاستكمال تحصينه المعنوي ضد هذه الأخطار.

الباب هنا يمثل رسمياً في الموروث الشعبي عيناً ساهرة ويعتقدون به مسؤولاً أمنياً عن حمايتهم، ليس عن اللصوص والباغين والعادين ولكن من العادين معنوياً أيضاً والمستخدمين لأساليب معنوية في إنزال الضرر والحسد الذي هو شر مستطير في عرف الذاكرة الشعبية المتدينة والمؤمنة بعمقٍ، حيث إن الحسد مذكور في القرآن وموجود في ذاكرة الناس بعمق على مدى التاريخ، ولذا فإن الحماية منه هي مسؤولية الباب إضافة إلى مسؤولياته المتعددة الأخرى، ومن أجل ذلك تُعلق عليه التمائم والأحجبة ورموز المنع وقتل العين الرائية ومنع الحسد ■

مدينة الأضواء والألوان
(شتوتغارت)

ضياء الدين الحفناوي

يتشكل تاريخ شتوتغارت إلى حدٍّ كبير من خلال تضاريسها ووظيفتها المزدوجة كبلدية ومقر إقامة أو عاصمة، وبالتالي من خلال العلاقة المتبادلة بين المدينة والحكومة من ناحية، والمدينة والدولة من ناحية أخرى، ولا شك أن تطوير مدينة شتوتغارت بعيداً عن النهر وطرق المرور الرئيسية يُمثّل حالة خاصة من حيث جغرافية الاستيطان ما جعلها ملتقى الفنون والأدب على مر العصور أيضاً.

تاريخ المدينة

اسم مدينة شتوتغارت مشتق من مصطلح «شتوتنغارتن» تيمناً بمزرعة خيول تم انشاؤها في هذا المكان في القرن العاشر الميلادي. ويعتقد أن المدينة تأسست بين عامي 926 و 948 للميلاد مع بناء مزرعة الخيول هذه، التي كانت تقع في منطقة (نيسنباختال) على بُعد نحو 5 كيلومترات جنوب غرب مقاطعة (ألتنبورغ) وفي الواقع لم يتم اختيار موقع مزرعة الخيول هذه عن طريق الصدفة؛ نظراً لأن مدينة شتوتغارت تقع في وادٍ مغلق من ثلاث جهات، فقد اعتبرت هذه الظروف الجغرافية مثالية لتربية الخيول، حيث يمكن الاحتفاظ بالحيوانات في منطقة ضيقة دون إجراءات سياج معقدة، كما أن التلال المحيطة جعلت من السهل جداً مراقبة المنطقة ما يجعل من الصعب على اللصوص سرقة الخيول القيّمة، ومع ذلك ووفقاً للاكتشافات والحفريات المختلفة تم استيطان المنطقة المحيطة بعاصمة ولاية (بادن فورتمبيرغ) قبل ذلك بكثير. ويرجع ذلك أساساً إلى الموقع الاستراتيجي، حيث تلتقي العديد من طرق النقل هنا. وفي وقت مبكر جداً كانت مدينة ألتنبورغ المذكورة أعلاه والتي تُعرف الآن باسم (باد كانشتات) تقع في موقع استراتيجي جيد أيضاً لذلك كانت في الأصل المكان الأكثر أهمية في منطقة شتوتغارت الحضرية اليوم.

ويعود تاريخ منطقة مدينة شتوتغارت إلى أتوا عام 90 م، ولتأمين طرق المرور التي تلتقي هنا، تم بناء حصن روماني

للفروسية أطلق عليه اسم «كاستل كانشتات» وتشكَّلت فيما بعد مستوطنة حول هذا الحصن، وقد استفاد التجار من الفرص التي قدَّمها لهم مركز النقل هذا، لذا فلا عجب أنه مع مرور الوقت استقر المزيد والمزيد من الناس حول المستوطنة، وقد تم بناء مصنع كبير للطوب ينتج جميع أنواع الفخار والسيراميك. انتهت الفترة الرومانية أخيراً نحو عام 260 م، ويرجع ذلك إلى حد كبير إلى غزو الألمان على الرغم من تدمير العديد من المستوطنات وطرد سكانها، وخلال ذلك ظلت منطقة إقليم شتوتغارت مأهولة بالسكان بشكل مستمر في القرون التالية، ومن هنا يمكنك رؤية أهمية الموقع الاستراتيجي للمدينة أيضاً، واكتسبت المنطقة أهمية أكبر عندما تم بناء ما يسمى بكنيسة القديس مارتن في موقع المقبرة الحالية في القرن السابع الميلادي، وبعد وقت قصير من بنائها تم إعلانها الكنيسة الأم للمنطقة بأكملها، ومنذ ذلك الحين أصبحت تحت إدارة أبرشية كونستانس.

وفي عام 1495، أصبحت شتوتغارت أخيراً مقر إقامة الدوق. وحتى في العقود والقرون التي تلت ذلك، كانت هناك صراعات متكررة مع مدن أخرى في المنطقة لذلك في عام 1565 تم بناء حصن للمدينة جديد تماماً والذي يشمل الآن الضواحي أيضاً في بداية القرن التاسع عشر تمت تسمية شتوتغارت عاصمة لمملكة (فورتمبيرغ) مما جلب معها ازدهاراً اقتصادياً وسياسياً ودينياً هائلاً، وبدأ التصنيع في هذا الوقت ما أدى إلى زيادة عدد سكان شتوتغارت بشكل كبير أيضاً. وخلال الحرب العالمية الأولى كانت المدينة تنتج العديد من المواد والمعدَّات العسكرية والصناعية مثل الطائرات والمحركات والذخيرة والمعدَّات العسكرية الأخرى. كما استخدمت المدينة كمركز للتوريد واللوجستيات للقوات الألمانية بالإضافة إلى ذلك تعرضت شتوتغارت للقصف الجوي من قبل الحلفاء خلال الحرب خاصةً ففي عام 1918 كانت الغارات الجوية تستهدف الصناعات الحربية والبنية التحتية للمدينة مما تسبب في دمار كبير لبعض المناطق الصناعية والسكنية، وبعد انتهاء الحرب العالمية الأولى، شهدت شتوتغارت مثل الكثير من المدن الألمانية تدهوراً اقتصادياً واجتماعياً وبدأت عمليات إعادة الإعمار والترميم لتعود إلى الحياة الطبيعية.

وشهدت شتوتغارت نقطة تحول تاريخية خلال الحرب العالمية الثانية خاصة قرب نهاية الحرب فقد تم تنفيذ عدد لا يحصى من الغارات الجوية الأمريكية ضد المدينة وتم إسقاط أكثر من 180 ألف قنبلة في هذه العملية ولم ينجُ الآلاف من سكان شتوتغارت من ليالي القصف، كما دمرت نسبة كبيرة من المنازل والمباني العامة في المدينة بالكامل، وأخيراً في 22 إبريل

1945 تم احتلال المدينة من قِبل القوات الأمريكية والفرنسية. وبعد انتهاء الحرب العالمية الثانية تم إعلان المدينة منطقة تابعة للاحتلال الأمريكي في عام 1948، وتقدَّمت شتوتغارت بطلب لتصبح العاصمة الجديدة لجمهورية ألمانيا الاتحادية الجديدة لكنها فشلت لا سيَّما بسبب العبء المالي الكبير بعد انتهاء الحرب. وكانت ألمانيا مقسمة إلى قطاعين قطاع غربي وقطاع شرقي، حيث كانت شتوتغارت تقع في القطاع الغربي الذي كان تحت السيطرة الأمريكية، وتم تطبيق الديمقراطية والنظام الاقتصادي السوقي في هذا القطاع، وتمت عمليات إعادة الإعمار والترميم في المدينة لإعادة بناء المباني والبنية التحتية التي دمرها القصف الجوي، وتمت هذه العمليات بشكل متزايد على مر السنوات لإعادة إعمار المدينة وتطويرها. ومع تعافي الاقتصاد الألماني بعد الحرب شهدت شتوتغارت نمواً اقتصادياً ملحوظاً وبدأت الصناعات المحلية في التعافي والتوسع مرة أخرى، وأصبحت المدينة مركزاً مهماً للصناعات التقنية والسيارات والهندسة الميكانيكية، وشهدت شتوتغارت تطوراً ثقافياً واجتماعياً ملحوظاً بعد الحرب العالمية الثانية وتحولت المدينة إلى مركز ثقافي حيوي حيث تضم العديد من المتاحف والمسارح والفعاليات الثقافية.

أهم المعالم التاريخية والثقافية

في الواقع توفر مدينة شتوتغارت العديد من الأماكن التاريخية والسياحية الرائعة التي تستحق الزيارة لمحبي الطبيعة والفنون والثقافة، ويعتبر قصر(نيوشوانشتاين) واحداً من أبرز معالم المدينة ويعود تاريخ بنائه إلى القرن السادس عشر ويعتبر واحداً من أبرز معالم المدينة، حيث المعمار المتميز الذي يعكس الفترة التاريخية والحدائق الشاسعة المنسقة بشكل ملحوظ وكنيسة (سانتا كاتارينا) أيضاً، وهي واحدة من أهم المعالم الدينية في شتوتغارت، وتتميز بمزيج من الطراز الرومانسي والقوطي. وحديقة (شلوسقارتين) وهي واحدة من أكبر الحدائق العامة في ألمانيا، وتوفر مساحات خضراء رائعة للاسترخاء والتجول ويقام بها العديد من المهرجانات والفعاليات الفنية على مدار العام وتتميز المدينة بواحد من أكبر المتاحف وأشهرها في ألمانيا ومتحف شتوتغارت للفنون الجميلة، ويعرض هذا المتحف مجموعة رائعة من الأعمال الفنية التي تغطي فترات زمنية مختلفة بدءاً من العصور الوسطى حتى الفترة الحديثة، ويتوافد عليه الكثير من الزوار من مختلف دول أوروبا من محبي الفنون. ويُعتبر برج فرنسزيس أحد أهم نقاط الجذب السياحي في المدينة، حيث يمكن للزوار الاستمتاع بإطلالات خلابة على المدينة من أعلى برج البث التلفزيوني.

ومن الأماكن المتميزة في المدينة والتي لا يمكن للزائر التغاضي عن زيارتها أو تركها أو تجاوزها (متحف لودفيغسبورج) ويعتبر من أكبر القصور الباروكية في ألمانيا، ويقع في ضواحي شتوتغارت، ويضم القصر مجموعة من المعارض التاريخية والفنية وحدائق جميلة، ولمحبي السيارات يوجد متحف (مرسيدس بنز) أيضاً، ويعرض هذا المتحف تاريخ صناعة السيارات وتطورها مع التركيز بشكل خاص على العلامة التجارية «مرسيدس بنز»

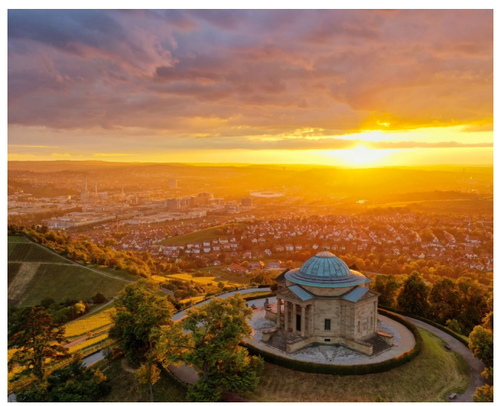

ويضم المتحف مجموعة مذهلة من السيارات التاريخية والحديثة. ومن الأماكن التي ينصح العائلات بزيارتها حديقة (زوو فيلهال) وهي إحدى أقدم الحدائق الحيوانية في ألمانيا، وتضم مجموعة متنوعة من الحيوانات والنباتات النادرة، بالإضافة إلى مسرح الدولة وهو من أهم المسارح في ألمانيا، ويقع في قلب شتوتغارت ويُقدم المسرح عروضاً متنوعة من الأوبرا والبالية والمسرحيات الشعبية التراثية والحديثة. أما سوق شتوتغارت فيعتبر واحداً من أقدم الأسواق في ألمانيا ويقع في وسط المدينة، ويوفر السوق تشكيلة متنوعة من المنتجات الطازجة والحرفية التي تعكس بشكل كبير الثقافة التراثية للمدينة. وتستضيف مدينة شتوتغارت العديد من المهرجانات والاحتفالات الشعبية طوال العام مثل مهرجان (فروهلينغ) ويُعتبر هذا المهرجان مهرجان الربيع في شتوتغارت، حيث يقام في شهري إبريل ومايو. ويتميز المهرجان بالعروض الترفيهية والألعاب والمأكولات الشعبية والبيرة البافارية الشهيرة، ومهرجان (فولكسفيست) الذي يعد أحد أكبر المهرجانات في شتوتغارت، ويقام في شهر سبتمبر من كل عام. ومهرجان (السواجي) الذي ينظم في مركز الفعاليات (سوابينلاندهاله) ويتضمن مهرجان الرقص التقليدي، والموسيقى، والعروض الفنية التي تعكس البُعد التاريخي والموروث الشعبي لأهل المدينة الأصليين.

في الحقيقة تعد مدينة شتوتغارت واحدة من أجمل المدن الأوروبية وأكثرها رقياً، وتبعث للمتأمل في جوانب المدينة روح الأمل، حيث يتجسد من حوله كيف أن الإنسان يستطيع خلق الجمال مرة بعد أخرى من رحم الحروب والأهوال ■

كاتب مصري

علّام الأحوال

إعداد: نايلة الأحبابي

يا اللـــه يا عـــلّام باحـــوال ناســه
يا واحـــدٍ يرجى على كـــل الأحـــوال
يا من نصلّـي له ونخشـى ل باســه
الحكـــم حكمــه في الدراهم والآجـال
ما مــن نصيــر لنـــا ولا هنا دساســه
نرجــوك يا مولاي تفــرح لنـــا البـــال
الكـــلّ منّـــا يشتكـــي عوق راســـه
واعواقنـــا ياتـــي بهـا خبـــر لاميـــال
إلطـــف بنا يا رب قبـــل الإياســـه
أدرك عبـــادك فانت لا خافيك حـــال
نظـــن الاول حظنـــا بالسياســـة
واثـــر المدبّـــر واحـد جـــلّ مـــا زال
يدبّـــر الأشيـــاء بحكمـــة قياســه
وحـــنا عبـــاده نطلبـــه دوم ونســـال
يا سامـــعٍ لدعـــاي زح ذي الغلاســـه
النـــور نورك ما تشـــا انـــت فعّـــال

القصيدة للشاعر الشيخ بطي آل مكتوم، حاكم دبي، في الفترة (1324 - 1330هـ)، ولد الشاعر في دبي عام 1851م، وتلقى العلم على يد بعض علماء البلاد وجالس الأدباء والشعراء فاستهواه الشعر وبرع في فن التغرودة وهو عبارة عن أشعار يحدو بها حادي الإبل. وهذه الأشعار أكثر ما تكون تداولاً لدى البدو إذ إنها تشبه إلى حدٍّ بعيد فن الرجز، من أشعار العرب القدامى، وأكثر هذه الأشعار تحتوي على ذكر الوقائع التي كانت تحدث في هذه المناطق وهي على شكل مساجلات بين الشعراء، وسرعان ما يسري انتشارها بين الناس فيحفظونها لسهولتها. وفي هذه القصيدة ابتدأ الشاعر بالابتهال بعلام الغيوب وعالم أحوال خلقه الذي نرجوه في الأحوال كلها، ثم يطلب الشاعر من الله النصر والفرج، ويسأل الله لطفه قبل أن يصل الحال لليأس ويستعين به سبحانه وتعالى الذي يعلم السر والخفاء، ويقول إننا نعتقد أن الحظ يكون بالسيادة ولكن هناك ما يعوق ما نصبو إليه. وبحكمة الله وقدرته أن يكشف هذه الغمة، فالله نور السموات والأرض، يا سامع الدعاء ويا فعال لما تريد. القصيدة ابتهالية جميلة واضحة المعنى سهلة المفردة متسلسلة السياق وهذا يدل على جزالة الشاعر وحكمته وتوجهه الكامل إلى الله سبحانه وتعالى في طلب العون والإرشاد وحقيقة التوكل عليه جلّ جلاله في الأمور جميعها

المفردات:

ناسه: خلقه. الدراهم: يقصد هنا الأرزاق. عوق راسه: مصابه من الهم. الإياسه: اليأس والقنوط. لا خافيك: لا يخفى عليك ولا يغيب عنك.

ارتياد الآفاق

د. نعيمة الحوسني.. أستاذة في جامعة الإمارات نقلت الرحلة إلى المكتبة العربية

أسفار في أعماق أفريقيا 1795-1797م

رحلة الجغرافي والمستكشف الأسكتلندي مونغو بارك

محمد عبد العزيز السقا

د. نعيمة الحوسني.. أستاذة في جامعة الإمارات نقلت الرحلة إلى المكتبة العربية

أسفار في أعماق أفريقيا 1795-1797م

رحلة الجغرافي والمستكشف الأسكتلندي مونغو بارك

محمد عبد العزيز السقا

رواية لمغامرة ورحلة بريطانية لاستكشاف الدواخل الأفريقية، حيث قام بتلك المهمة الصعبة الرحالة الأسكتلندي «مونغو بارك»، عوضاً عن الرحالة «هوغتون» الذي ضاع في دواخل أفريقيا ولم يُعرف عنه شيء، كان لدى بريطانيا رغبة ملحّة في سبر أغوار الدواخل الأفريقية وما تحويه من كنوز وثروات، متأثرة بأسطورة تيمبوكتو مدينة الذهب، التي كانت قد أشعلت الأطماع الأوروبية. وكان الهدف الآخر من الرحلة الخطرة استكشاف نهر غامبيا، وقد نجح «مونغو بارك» في الوصول إليه في 21 يونيو 1795م.

تغيَّب مونغو بارك عن إنكلترا زُهَاء عامَيْن ونصف العام، إنْ لم يزد، وعاد إلى الوطن قبل أيَّام قليلة من حلول عيد رأس السَّنَة الجديدة في عام 1797. كان عُمُره آنذاك يربو على ستَّة وعشرين عاماً. وقد نشرت الجمعية الأفريقية أوَّل طبعة من كتاب أسفاره تحت عنوان: (أسفار في أعماق أفريقيا 1795-1797) بقلم مونغو بارك مع ملحق يحوي خرائط توضيحية لأفريقيا من رسم الميجور رينل.

ارتحل مونغو بارك من القاعدة البريطانية في بيسانيا وتوغل في الدواخل المجهولة في أفريقيا مصحوباً بمرافقين زنوج، واختار الطريق الذي يعبر حوض السنغال الأعلى وخلال منطقة كارتا شبه الصحراوية كانت الرحلة مملوءة بالصعاب، وسُجن من قِبل زعيم مغاربي في لودامار لأربعة أشهر، وفي 1 يوليو 1796م استطاع الهرب وحده وليس معه أي شيء غير حصان وبوصلة جيب، وفي 21 من الشهر نفسه وصل إلى نهر النيجر في سيغو وكان أول أوروبي يشاهد مياهه.

تتبع مونغو بارك النهر إلى أسفل الجدول 80 ميلاً إلى سيلا، حيث اضطر للعودة بعدما انقطعت عنه الموارد اللازمة وأصبح منهكاً للغاية. وفي 30 يوليو بدأ رحلة العودة متخذاً أكثر الطرق انحرافاً إلى الجنوب من ذلك الطريق الذي بدأ به، حيث بقي قريباً من النيجر حتى باماكو، وهكذا تتبع مسار ذلك النهر لنحو خمسمئة كيلومتر.

في كاماليا وقع فريسة للمرض، ودان بحياته إلى شفقة زنجي عاش معه في بيته لسبعة أشهر. في النهاية وصل بيسانيا (القاعدة البريطانية) يوم 10 يونيو 1797، وعاد إلى إنجلترا عن طريق أمريكا في 22 ديسمبر. حيث كان يعتقد بأنه قد مات، وبعودته إلى الوطن بأخبار اكتشاف النيجر اشتعل الحماس بقوة في الأوساط الأوروبية، إلى أن رسمت السجلات عن رحلته لصالح الجمعية الأفريقية من قِبل بريان إدواردز، وظهرت قصته مفصلة بقلمه في عام 1799 (ترحال في دواخل أفريقيا). ونال العمل شعبية كبيرة لما تضمنه من وفرة في المعلومات والأحداث وبساطة في السرد، ولا يزال يحتل مونغو بارك ورحلته مكانته الخاصة كعمل كلاسيكي مشهور في هذا القسم من أدب الرحلات.

حصلت الدكتورة نعيمة الحوسني، أستاذة علم الخرائط بكلية العلوم الإنسانية والاجتماعية على جائزة ابن بطوطة لأدب الرحلة في دورتها العشرين، فئة «الرحلة المترجمة» لترجمتها الكتاب إلى اللغة العربية، وبوصفها رئيسة قسم الجغرافيا والاستدامة الحضرية في جامعة الإمارات العربية المتحدة، وكونها متخصصة في علم الجغرافيا، بخبرة أكاديمية طويلة، فقد سعت إلى تحقيق أهدافها في ترجمة الكتاب في نحو عامين، فهو يحتوي على 26 فصلاً، لتقدم تجربة ثرية أصابت فيها مبتغاها وكما يقولون: «أصابت عصفورين بحجر واحد» لأن الكتاب يقع ضمن خدمات المجتمع، كما أنه أضيف إلى المكتبة العربية وللمهتمين بأدب السفر.

الكتاب والسرد

يقدم الكتاب رحلة غنية ومشوقة ودسمة مشحونة بالوصف والسرد والحكايات والسجلات اليومية الدقيقة، تتضمن الرحلة الانطلاق من بورتسماوث إلى غامبيا، مع وصف عن لغة السكان الأصليين وديانتهم، ووقائع الرحلة إلى مملكة وولي (بوندو)، وأحداث سفر مونغو بارك من طاليكا إلى كاجاغا، إلى كاسون، ومقابلة الملك ديمبا سيغو جا، وبلدة جارا - ووقائع الاحتجاز عند البربر المغاربة، ثم يصف لنا حفل زفاف مغربي، ثم المعاناة في الأسر في الفصل الحادي عشر، ثم هروبه ومواصلة الرحلة إلى واورا، والقرى الواقعة على ضفاف نهر النيجر، ثم من مورزان إلى تافارا، مع وصف كامل في الفصل العشرين عن عادات الزنوج، وعقائد قبائل المانديغو، وبحث تفصيلي يقدمه مونغو بارك عن الحرب والعبودية، والذهب والعاج، وزيارة كينيتاكورو وبراري جالونكا حتى العودة إلى إنكلترا.

من الكتاب

ها أنذا الآن على وشك مفارقة صديقي المضياف (الذي طوَّقني بعطفه ورعايته حتى لحظة رحيلي)، والرحيل لمدة أشهر كثيرة إلى البلدان التي تقع على نهر غامبيا. ومن المناسب فيما أَحسِب وقبل أن أستطرد في روايتي أن أقدِّم وصفاً في هذا المقام للأقوام الزنجية التي تسكن على ضفاف هذا النهر الشهير، والتعريف بالعلاقات التجارية التي تربط بينهم والبلدان الأوروبية التي يمكن أن ترتبط تجارياً بهذا الجزء من القارة الأفريقية. سوف يجد القارئ ما عنَّ لي من ملاحظات حول هذه الموضوعات في الفصل التالي من الكتاب.

محامون في أراضي الزنوج

لقد حدا هذا الاحتكام الشائع إلى القوانين المكتوبة (وهو الأمر الذي يجهله الوثنيون من الأهالي بالقطع) في مداولات محاكمهم إلى نشوء طبقة من المحامين المحترفين ممَّنْ يضطلعون بشرح القوانين (وهو أمر لم أكن أتوقَّع وجوده في أفريقيا)... لقد جعل الزنوج المسلمون، أو سَعَوا لجَعْل

أحكام السُّنَّة المحمَّدية الإسلامية عِلْماً خاصاً بهم. ولو قمتُ بتقييم خُطبهم والحُكْم عليها، وكثيراً ما استمعتُ إليها، فإنني أشهد بأن طرائقهم القضائية في التسويف وإثارة الاعتراضات وأساليبهم في الإفحام والتشويش لا تقلُّ كفاءة عمَّا يقوم به أَمْهَرُ المحامين الأوروبيين وأَقْدَرُهُم.

وصف سكان المانديغو

يتمتع السكان المانديغو على العموم بطبائع دمثة سمحة ودودة.. وهم أشداء أقوياء قادرون على تحمُّل أشقِّ الأعمال. أمَّا نساؤهم، فإنهنَّ طلقات المُحَيَّا مرحات لطيفات. تتكوَّن ثياب الجنسَيْن من ثوب قطني محلّي يدوي الصُّنْع: الثوب الرجالي عَبَاءَة فضفاضة، تشبه عَبَاءَة الكَهَنَة المسيحيِّيْن، وسروال يبلغ منتصف الساق، وهم ينتعلون الصنادل، ويعتمرون أغطية رأس قطنية بيضاء. أمَّا ثياب النساء، فتتكون من قطعتَيْن من القماش، واحدة منها يلفُّونها حول خصورهنَّ، أمَّا الأخرى، فتستر بعض الشيء الصدر والأكتاف...

ألبسة النساء في أفريقيا

والنساء في بلدان نهر غامبيا يعتمرنَ فوق الرأس نوعاً من العصائب يُسمُّونها جَلَلاً. والجَلَلا هي شريط قطني محدود العرض، يُلفُّ حول الرأس مرات عدة، ويغطي الجبهة كلها. في (بوندو) تلفُّ النساء الرؤوس بعصائب من الخَرَز الأبيض، كما تضعنَ رقيقة ذهبية صغيرة في وسط الجبهة. أمَّا في منطقة (كاسون)، فإن النساء يزيّنَ رؤوسهنَّ بأصداف البحر البيضاء

على نحو يتجلَّى فيه حُسْن الذوق والرقَّة البالغَيْن. وفي ناحيَتَي (كاراتا) و(لودامار) ترفع النساء كتل شعورهنَّ فوق رؤوسهنَّ باستخدام وتد خشبي رفيع، لتبلغ ارتفاعاً وهنَّ يزينَ شعورهنَّ بأنواع من المَرْجَان المُستخرَج من البحر الأحمر الذي يَجلِبه الحُجَّاج المسلمون من التجَّار عند عودتهم من مكَّة، وهو يباع بأثمان مرتفعة.

منازل المانديغو

أكواخ صغيرة ضيِّقة.. حائط طيني مدوَّر يبلغ ارتفاعه أربعة أقدام، عليه سقف مخروطي مؤلَّف من عِصِيّ البامبو المغطَّاة بالنَّجِيْل، لا يختلف في ذلك قصر الملك عن أيّ كوخ يسكنه عبد رقيق. أثاث المنازل بسيط وثمَّة سياج حاجز من العِصِيّ مُثبَّت فوق دعامات عمودية، بارتفاع قَدَمَيْن، تغطيه حصيرة ساترة، تقضي حاجتهم كسرير، وجَرَّة ماء وبعض الأواني

الخزفية لتناوُل الطعام والقليل من السلطانيَّات الخشبية وثمار القَرْع الجافَّة المجوَّفة انتهاءً بمَقْعَد أو مَقْعَدَيْن بلا ظهر أو ذراعَيْن... لكن القاعدة الوحيدة التي لا يشذُّ عنها أحد تتمثَّل في جَعْل باب الكوخ مواجهاً للجهة الجنوبية الغربية للتمتُّع بنسيم البحر.

وفي كلّ بلدة ثمَّة منصَّة واسعة يُسمُّونها بلغتهم (البِنتانغ) توفِّر للجمهور داراً للمناسبات عامة، وعادة ما ينصبونها في ظلّ شجرة ضخمة وفوق هذه المنصة يتمُّ إجراء الشؤون العامة كلها، وتُجرى المحاكمات. وفوقها يلتقي المُتنطِّعُون من الكسالى والخاملين ليمارسوا تدخين الغلايين، ويسمعوا نشرة الأخبار اليومية. وفي أغلب بلدات المسلمين ثمَّة (الميسّورا) أو المسجد، حيث يتجمَّعون ويؤدُّون صلواتهم اليومية وَفْقَاً لأحكام القرآن.

على القارئ أن يعلم أن جميع ما سُقتُهُ من وصف وتعليقات سابقة إنما يتعلَّق فقط وأساساً بالأهالي الزنوج الأحرار الذين يشكِّلون فيما أحسب نحو ربع عدد السكَّان. أمَّا الثلاثة أرباع المتبقية، فهم عبيد بالوراثة، ويعانون الأَمَرَّيْن في حمل نِيْر العبودية، وهم يُستخدمون في زراعة الأرض ورعي الماشية، ويعملون كَخَدَم في المكاتب بأنواعها على غِرَار ما يقوم به العبيد في جُزُر الهند الغربية. ومع ذلك فقد نما إلى علْمي أن السادة من المانديغو لا يملكون حقَّ حرمان عبيدهم من الحياة، ولا بيعهم للغرباء.. لكنَّ أسرى الحرب جميعهم ومَنْ أوقعهم الحظُّ العاثر في نِيْر العبودية جرَّاء جرائم ارتكبوها أو عجز عن الوفاء بدَيْن، فيتمُّ التعامل معهم بطُرُق أخرى. وحتى لا أطيل في تعداد صنوف هؤلاء البشر البائسين ممَّنْ تمَّ جلبهم قسراً من الأعماق الداخلية لبلدان المنطقة، ليُباعوا في سوق النخاسة، فهؤلاء وأولئك كلُّهم لا يتمتعون بأيّ حماية

مملكة وولي: رحلة إلى بوندو

وصلتُ الآن إلى عاصمة المملكة، وهم يطلقون عليها اسم (المدينة)، وتمتدُّ على مساحة كبيرة من الأرض، ويتراوح عدد منازلها ما بين ثمانمئة إلى ألف منزل. وقد قام السكان وفقاً لتقليد أفريقي شائع ببناء حائط طيني مرتفع حولها لحمايتها من أيّ هجوم أو عدوان علاوة على إقامة سياج من أوتاد خشبية مُدبَّبة وأَجَمَات من الطوب. لكن الحوائط أُهمِلَت، ودأبت الزوجات اللواتي يعبثنَ بكلّ شيء استطلاعاً وفضولاً أن ينتزعنَ أوتاد السياج الخشبية، ويجعلنَ منها حطباً للوقود، ما جعل السياج يبدو في حالة مُزرية. وهناك أقمتُ في منزل أحد أقارب الملك المقرَّبين، وهو الذي أَفهَمَني أنه ليس من اللائق إطلاقاً أن أُصافح الملك عند دخولي عليه ووقوفي بين يَدَيْه، إذ قال لي: «هذا أمر غير مألوف وغير مسموح للغرباء التصرُّف بهذه البساطة ورَفْع للتكليف».

قصة عجيبة: الملك الأسير!

يحكي لنا مونغو طرفاً من أخبار حرب ناشبة بين (المامي عبد

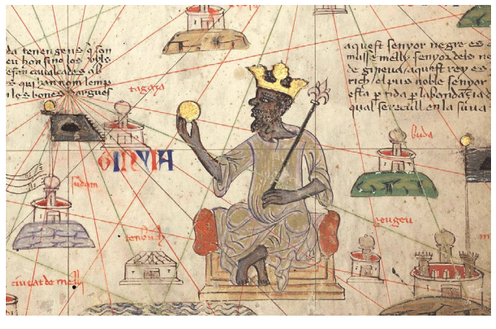

القادر) ملك (فوتا - تورا) و(دامل) ملك (الجالوفيّين)، يقول في نهايتها: ... ومن ضمن مَنْ تم أسرهم كان الملك (عبد القادر) نفسه. وها هو الأمير الطموح المتعصّب الذي كان قبل شهر قد أرسل رسالة تهديد ووعيد إلى (دامل) يُساق إلى مجلس غريمه (دامل) أسيراً ذليلاً مهاناً. كان مسلك (دامل) في هذه الواقعة محلّ مدح المغنّين المَدّاحين وتبجيلهم، وإنه لأمر خارق حقّاً ما أتاه ذلك الأمير الأفريقي، ما يجعل تصديق القارئ للرواية أمراً شبه مستحيل. فما إن سيق الأسير المَلَكِي مُكبّلاً بالأغلال إلى حضرة الأمير (دامل)، وطُرح أمامه فوق الأرض، وعوض أن يضع الأمير وَفْقاً للعادات السائدة قَدَمَهُ فوق عُنق غريمه، ويطعنه برُمحه وجَّه الأمير الشهم الواسع الأُفُق كلامه إلى خصمه الأسير كالتالي: (أجبْ عن هذا السؤال، يا عبد القادر. إن كانت واتتكَ الفرصة لتكون في مكاني فماذا كنتَ فاعلاً؟) «كنتُ غرستُ رُمحي في قلبكَ»، قالها عبد القادر بتوكيد وثقة، وأردف: «وأنا أعلم أن هذا المصير ينتظرني». فقال دامل: «لا، ليس هكذا، فرُمحي مخضّب بدماء رعاياكَ وجنودكَ الذين لاقوا حتفهم في المعركة، وبوسعي الآن أن أُخضّبه أكثر بدمائكَ، لكن هذا لن يعيد بناء بلداتي المخرَّبة، ولن يعيد الحياة إلى آلاف القتلى في الغابات. ولهذا فأنا لن أقتلكَ بدم بارد، ولكنني سأحتفظ بكَ كعبد لي حتى أتأكد من أن عودتكَ لمملكتك لن تكون مصدر خطر على جيرانك، وعندها سأقرّر أفضل طُرُق التعامل معكَ». وعليه فقد تمَّ احتجاز (عبد القادر) فعمل كعبد لمدَّة ثلاثة أشهر، وفي نهايتها أصغى (دامل) لتوسُّلات أهالي (فوتا - تورا)، وأعاد لهم ملكهم. ومهما بدت لكم تلك القصّة غريبة عجيبة، فأنا أشهد بصِدْقها..

صاحب الرحلة المولد والرحيل:

وُلد مونغو بارك في العاشر من سبتمبر 1771 للميلاد لأب مزارع من بلدة فاولشيلز بعد أن أنهى دراسته للطبّ في مقاطعة إدنبرة الإنكليزية وهو لم يتجاوز الحادية والعشرين عاماً، غادر إنجلترا كمساعد جرّاح على مَتْن سفينة متّجهة إلى الهند الشرقية. وعند رجوعه كانت الجمعية الأفريقية بحاجة إلى مستكشف يحلُّ محلّ الرائد (الميجور) هوتون الذي فقد أثره. تطوّع مونغو بارك، وكان حينها في الرابعة والعشرين من العُمُر، لأداء المهمّة، وقبلت الجمعية تطوعه. وفي اليوم الثاني والعشرين من مايو 1795م ركب السفينة المتّجهة صوب سواحل السنغال، حيث وصل إليها في شهر يونيو من العام نفسه.

ومن السنغال بدأ بارك أسفاره التي يوثّقها هذا الكتاب. تزوَّج بارك واستقرَّ به المقام في منطقة (بيبلز) حيث كان يمارس مهنة الطبّ، لكن الحكومة البريطانية أقنعتْهُ بالسفر مجدَّداً. أبحرت السفينة المُقِلّة له من ميناء (بورتسماوث) الإنكليزي في الثلاثين من يناير عام 1805م وقد خطّط بارك أن يقتفي أثر نهر النيجر إلى حيث منبعه أو أن يقضي نحبه خلال المحاولة، فكانت الأخيرة، حيث هاجمه السكّان الأصليون خلال عبوره مجرى ضيقاً من مجاري النهر في منطقة (بوسا)، وقاموا بقتله مع مُرافقيه جميعهم عدا أحد الزنوج المصاحبين له. حفظت لنا يوميّات مونغو بارك جانباً من سجلّ هذه السفرة المميتة، وهو يَختِم بما يشي بأنه سوف يلقى حتفه، وهو السجلُّ الذي نُشر أوّل مرّة في عام 1815م تحت عنوان «يوميّات بعثة إلى أدغال أفريقيا في عام 1805 بقلم مونغو بارك، وأرفقها بوثائق أخرى رسمية وخاصة متعلقة بالبعثة ذاتها علاوة على تصدير يتضمن وقائع حياة السيّد بارك» ■

باحث في أدب الرحلة

المصادر والمراجع:

1. الكتاب الأصلي باللغة الإنجليزية:
Travels in the Interior of Africa (1795-7) Vol.1, Author: Mungo Park, Editor: Henry Morley, London-Paris-Melbournem Cassell & Company edition-1893.
2. أسفار في أعماق أفريقي 1795 - 1797 ، تأليف مونغو بارك، ترجمة ودراسة د. نعيمة الحوسني، طبعة دار المتوسط ودار السويدي للنشر، 2022م.
3. تاريخ أفريقيا العام - المجلد السادس، ج . ف، أديآجايي، منشورات اليونسكو، 1997، م . ط، حسيب درغام، لبنان.

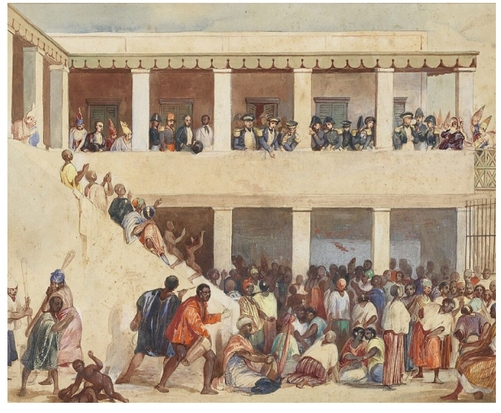

أماكن في القلب

حمزة قناوي
شاعر وناقد مصري

في رحلة الإنسان مع الحياة، في تقاطعات أسفاره وتنقلاته، وفي تغيير مواضع إقامته من مدينةٍ إلى أخرى، يلتقي أماكن لم يرها من قبل، يشعر إزاءها بحميميةٍ ودفءٍ غريبين، ومصدر الغرابة هنا أنه يشعر بأنها قريبة منه كثيراً وأنه رآها من قبل، وعاش فيها، وسكنها، وكوّن ذكرياتٍ في أرجائها، بينما في الحقيقة تكون المرة الأولى التي يرى فيها هذه الأماكن!

كثيرونَ منّا عاشوا هذا الشعور في أماكن يرونها لأول مرة، ويشعرون إزاءها بالحنين، وبتواصلٍ روحاني شفيف ومحير مع تفاصيلها، تستقر النفس وتشعر بالسكينة بينما تتجول في أنحاء هذه الأماكن، فهل للأماكن روحٌ وألفة؟ وهل للحسِ الإنساني بعدٌ غير مرئيٍ في عمق اللاوعي يكوّن صوراً لأماكن لم يرها أو يستكشفها من قبل، ولكنّ حدسه صوّرها له في عالمٍ آخرٍ؟

تبقى هذه الأماكن في روح الإنسان أينما حلّ وارتحل، يحملها في تنقلاتهِ وأسفاره، ويحيا بتفاصيلها، وتظل حيةً في ذاكرته، بصورها ورحابتها، وأدق خفاياها، تحفزه دائماً لارتياد الآفاق ليبحث عن مثيلها، مدفوعاً بالحنين وبالدهشة والرغبة في الاستكشاف ومعرفة نفسه، فالإنسان يعرف نفسه بالأسفار والتقاء الأماكن الجديدة، وبالآخرين، وبتقدم الزمن، وبإحساسه المتغير في العالم.

ما الذي يمنح الأماكن خصوصيةً وتميزاً عن غيرها؟ هل هو التاريخ وما عاشته من أحداثٍ ووقائعَ منحتها صفاتٍ أكسبتها فرادةً عن سواها؟ هل هي الطبيعة في حوارها المستمر والهادئ الخلّاق مع هذه الأماكن، في نحتها زواياها وصقلها أركان بيوتها وساحاتها؟

هل هم البشر في مرورهم عليها بما منحوه إياها من ضجيجٍ وحيواتٍ صاخبةٍ وآمالٍ وأحلامٍ وانكساراتٍ قبل أن يرحلوا عنها وقد تركوها شاهدةً على ذكرياتٍ تختزنها في أركانِها التي عايشت كل تفصيلةٍ لهم؟

هل تبدُّل الفصول والأيام واندفاع الزمن في تفاعله مع طبيعة هذه الأماكن هو ما يمنحها خصوصيتها؟ هل هو الوقت؟ ذلك الزائر الساحر الغريب، يمر بالأشياء فيغير طبيعتها ولا يغيره أحد أو يستطيع إيقافه أو إبقاءه ولو برهةً بلا اندفاع؟!

ما الذي يُكسب الأماكن سحرها؟ ولماذا ننجذب إلى بعضها بصورةٍ آسرةٍ كالمسحورين، ولا يشدنا الآخر؟

إن ما ينطبق على الأماكن ينسحب على مُدنٍ بأكملها، ما إن يصل إليها المرء حتى يستشعر ألفةً وحنيناً غير مألوفين في روحه لها، كأنما يعرفها منذ زمن، وعاش فيها وكوّن ذكرياتٍ وصداقاتٍ رغم أنها المرة الأولى التي يفِدُ إليها!

يتعمق الإحساس بالمكان - أو يخف ويتراجع - وفق أوقاتٍ معينةٍ أيضاً، فثمة أماكن يتلمس فيها الإنسان هذا الحس العميق بتواصله الروحي معها مع أول خيوط الفجر وإشراقة النهار، فتبدأ في البوح له بأسرارٍ آسرةٍ لا تبوح له بها إلا مع تسلل ضوء الشمس بين ظلمة الليل المنسحب، مفسحاً المساحات كلها للنور والتماس الضوء، وثمة أماكن أخرى لا يجد الإنسان فيها ذلك الصدى الروحي العذب سوى مع بدء المساء والليل المنسدل على الطرقات والبيوت والساحات والزوايا والأرصفة، حينها يبدأ حوارٌ خافتٌ بين روحهِ وهذه الأماكن، كأنما يتعرف إليها للمرة الأولى، وكأنما تعرفه منذ زمن.

للأماكن سحرٌ لا يبوح بخفاياه وأسراره إلا لمن ينصت ويصغي لأعماقها البعيدة وتفاصيلها القديمة الضاربة في التاريخ، تاريخ البشر والطبيعة والتواصل مع تفاصيلهما التي لا تُمحى.

والإنسان في عبوره بها وانتقاله منها إلى غيرها إنما يترك بعض روحه فيها، ناسياً ذاته، وعائداً إلى نفسه في الوقت ذاته، في حوارٍ أبديٍ لا ينتهي بينهما ■

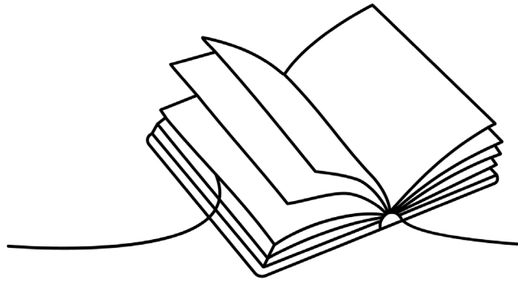

لعبة اللغة والدلالة

في قصيدة النثر الإماراتية (2)

أحمد حسين حميدان

في مقاربتنا الثانية للنقد والدراسة التي تناولت قصيدة النثر الإماراتية، نؤكد مرة أخرى أهمية الإصدار النقدي (لعبة اللغة والدلالة) الذي أصدرته وزارة الثقافة والشباب في أبوظبي للكاتب والناقد الدكتور هيثم يحيى الخواجة، الذي جاء اهتمامه منصباً على ملامح قصائد النثر الإماراتية رغم أن هذا اللون من الكتابة مازال بين أخذ وردّ، ومازال مُخْتَلفاً عليه وخصوصاً من الناحية الفنية، ويأتي كتاب لعبة اللغة والدلالة [1] للكاتب والناقد الخواجة ليقارب النتاج الشعري الإماراتي الذي تم إنجازه بقوام قصيدة النثر مشدداً ومؤكداً أن هذا اللون الشعري ليس متروكاً للمزاج بل ثمة سمات أساسية لا بد من توافرها في نصوصه في مقدمتها التكثيف والاقتصاد اللغوي الذي يحرص عليه الشاعر ليبعد عن قصيدته الحشو والترهل. وكذلك الدلالة والرمز والتعبير الخلاق والتخييل حيث البحث عن تراكيب جديدة ودلالات ومعاني غير معهودة فالمكان في القصيدة ليس هو الحيز الجغرافي وقوانينه المألوفة، بل هو المتخيل والمرسوم برؤية الشاعر والأمر عينه يتعلق بالزمان الذي لا يبقى في صورته المعاشة بل يتلون تبعاً لما تطرحه من خلاله القصيدة فتتوالد في منظومته الأحاسيس بما يتوافق مع المكونات الشعرية للقصيدة. وفي القسم الثاني من كتابه يقارب إصدارات كل من الشعراء حبيب الصايغ، وعبد الله محمد السبب، ومروى الخانجي، والهنوف محمد، ساعياً عبرها إلى مقاربة النواحي الفنية والتعبيرية في نتاجهم التي ابتدأ فيها بقصائد حبيب الصايغ الذي بدا له أن أهم ما يشغلها البحث عن (الأنا) الفردية المتماهية مع (النحن) الجمعية ويأتي التعبير عن هذا التوجه في قوله:

(واركضي في وجهي الشارد
وامضي كشتاء واقف بين عيوني..) [2]

إن هذا التماهي للمفرد في الآخر كأنما يستجدي فيه حبيب الصايغ الانعتاق من المآل النهائي للحياة الإنسانية المتمثل بالموت الذي ينفي عن الوجود البقاء الخالد ويجعله عارضاً ومؤقتاً وكأنه بذلك يتوازى مع قوانين الحياة المؤقتة ذاتها القائمة على ثنائية الحضور والغياب، الشروق والغروب، الفرح والحزن.. وكان من مؤدى هذا الانقلاب بالحال إلى نقيضه إلى جعل المكان في قصائد الشاعر الصايغ يصبح رهن المد والجزر ورهن التحولات التخييلية فالبحر عنده يخرج عن ملامحه وصورته المعهودة ويصبح جسداً وقبراً غامض المعالم والصحراء من حوله تتخلى عن هيئتها لتكون مراكب وأشرعة وهو بهذا التوجه يحاول مع شخصيات قصائده العوم فوق أزمات الواقع اليومية ويسعى للانتصار بتصميم العزيمة والإرادة على أي إعاقة يمكن لها أن تضعف المجابهة الإنسانية لكل ما يعكر صفو العيش والحياة ويقول حبيب الصايغ بهذا الصدد: (آن

الهنوف محمد

عبدالله السبب

هيثم الخواجة

حبيب الصايغ

للأحدب أن يطعن قوس القزح العالي..)[3]. إنه عبر هذا الفحوى لا يبتعد عن المفهوم الذي أطلقه أجدادنا العرب القدامى والأوربيون للشعر الذي يأتي بصورة أخرى تحاكي الواقع بملامح مختلفة تكون على غير هيئة الاستنساخ والتسجيل كونه لغة منغمسة في الحلم والمجاز كما يؤكد الزمخشري وابن رشيق وصولاً إلى أحمد عبد المعطي حجازي ومحمود درويش. ولعل المقولة العربية المتداولة: أجمل الشعر أكذبه - بمعنى مخالفته للمألوف - تأتي تعبيراً لتكريس هذا المجاز الذي تحوّل إلى هاجسٍ دائمٍ ومَلْمَحٍ ملازم لتراكيب حبيب الصايغ، كما يستخلص هيثم يحيى الخواجة في كتابه (لعبة اللغة والدلالة)، وهو ما أضفى على هذه التراكيب صفة التشكيل البصرية وميله إلى الصورة التي تبلغ في ملامحها قواماً غرائبياً وخصوصاً في إصداراته (ميارى، والملامح، وقصائد على بحر البحر، وغد..)[4] فهو يقول في إحدى قصائده:

(إذا أهملتني سنوات البرد
حاصرني ظلي
عرقلني ظلي
والشمس محدودبة الظهر
كشكل بارد
والظل يقظان..) [5]

إن الشاعر حبيب الصايغ تبوأ مكانة متقدمة في قصيدته النثرية ليس على الصعيد الإماراتي كما يرى الناقد هيثم يحيى الخواجة بل على الصعيد العربي أيضاً. والإعجاب عينه لا يخبو ولا يتغير في مقاربته لنتاج عبد الله محمد السبب الشعري الذي يقوم على لعبة المعنى ضمن لغة شعرية لا يتوقف الاختزال فيها عند حدود التكثيف بل يتعداه إلى حافة استقطار التكثيف نفسه. وفي هذا المنحى الذي يحوز فيه المعنى على الأولوية، لا يقوم على حساب الدال الذي يتم الإيماء إليه ويتم اختزانه واستثماره لمصلحة المدلول - كما هي الحال - وهي وضع الجسد في الظل لمصلحة النفس والعقل حسب تعبير علي حرب[6]. وهو ما يتبين منه مقدار الصعوبة التي يتكبدها الشاعر حين يصر على بلوغ المعنى دون إنفاق الكثير من التراكيب والمفردات الشعرية إلى حد لا تتعدى الشطرة عنده أكثر من كلمة واحدة كقول الشاعر عبد الله محمد السبب على سبيل المثال:

(وفي فيكَ دم
دامع
دامغ
في الرماد
وعلى جبينك
طبع الرماة
قبلة
حَسْبُكَ
حَسَبُكَ
سحبك
حبك
بك..) [7]

إن الشاعر السبب دائم البحث عن ذاك المختلف عمّا بلغه وأنجزه ذلك أن الحداثة هي بحث مستمر وهي اكتشاف مستمر أيضاً. فهو يهجس بالتنويع وخوفه من المباشرة دفعه إلى الغموض كما أنه يلجأ إلى التكرار المتعمّد الموظف وإلى التجريب المستمر وأهم العناصر التي يعتمد عليها لتكون عوامل مساعدة له في تخصيب قصيدته إضافة إلى التكرار المتعمّد، والاشتقاق والتحفيز وبث صيغ الأسئلة في تراكيبه

وتقليب المعاني الماثلة في النص بضدها. ويحرص الشاعر عبد الله محمد السبب على أن يجعل عناوين قصائده متعانقة مع متونها من النواحي الفنية والدلالية فتصبح كلاً واحداً في نسيج واحد كقوله:

(في المرآة وجوه
وجهي إحداها
والبقية.. وجوهي الأخرى)[8]

هكذا يقدم لنا ذاته، فيجعلها مركزاً في القصيدة تارة، وتارة يترك هذا المركز لذات الآخر فتكون موضوعاً جديداً تتداخل فيه الذوات الإنسانية مع ذات الشاعر وتستولي بأحلامها ومكابداتها على الفضاء النصي فتتقد بها تراكيبها ومفرداتها وما تولد عنها من صور. وفي سياق ذلك لا يفوت الناقد الدكتور هيثم يحيى الخواجة أن يتوقف في كتابه (لعبة اللغة والدلالة في قصيدة النثر الإماراتية) عند بعض التجارب الجديدة ليقدم من خلالها إضاءة حول إشكالية كتابة هذه القصيدة الحداثية متخذاً من تجربة الشاعرة مروى الخانجي فرصة للتأكيد على تباين جودة القصيدة النثرية المكتوبة بأقلام شابة. معزياً ذلك إلى عدم نضوج التجربة عند العديد منها وعدم استيعاب مقومات هذه القصيدة ومرتكزاتها واستسهال كتابتها أيضاً. ويضاف إلى ذلك غياب النقد العميق لها وللنتاجات المقدمة باسمها سيما وأن المشتغلين في حقول النقد يعتريهم عدم الإيمان بقصيدة النثر ذاتها وعدم القبول بها ناهيك عن عدم تبلور عناصرها وملامحها الفنية في أذهانهم وبالتالي غياب المقاييس الحقيقية لبنية نصها. كل ذلك أسهم في جعل الهوّة عميقة بين النصوص المنجزة والمقدمة باسم قصيدة النثر.

ويعتبر الناقد هيثم يحيى الخواجة الشاعرة الإماراتية مروى الخانجي من خلال مجموعتها (وأن هذا ربيعي)[9] لم تقع في إسار هذه الموجة الفجة في قصيدتها النثرية لأنها لم تتوقف عند حدود الفكرة التي يهجس بها نصها ولم تنشغل بها على حساب الصورة وما يلزمها من تراكيب حرصت على المؤاخاة في بنيتها بين بساطة المفردة وعمق الدلالة ويمكن أن نتبين ذلك في قولها:

(لنا أن نعود
بعد عام الرحيل
أن نؤانس الذكرى
على حافة موقدنا الوحيد
أيها القدر الآتي ليذهب
أيها اللحظ المشتعل ليذوي
كل خيولك المسرجة
ستهوي
في نهر الخشوع الرافد
من القمر المنحني على ركبتيه
إلى مقلتي..)[10]

ويرى الدكتور الخواجة أن قصائد هذه الشاعرة تبتعد عن الفجاجة والمباشرة وتحرص على ترك ما يشي بالمفاجأة للقارئ في خواتيمها ونهاياتها وتميل في سياق نصها الشعري إلى تأنيث الهم الإنساني وتؤنسن عناصر الطبيعة وهو ما ساعدها على حيوية الإفصاح وأشاع في جملة تراكيبها الشعرية خصوبة التعبير. ومن أبرز السمات التي أعطت هذه المكانة المتقدمة لقصيدتها النثرية يمكن حصرها بثلاثة روافد هي: الاستدعاء، والتصادم والالتحام، والبوح والتداعيات المحتفية بالآخر الإنساني وغير الإنساني عبر الأنا الشاعرة وإحساسها العالي بما يلوّن سحر الحياة فتترك له المساحة الرحبة وتحتفي به قائلة بانتشاء:

(الحديقة حلوة
إن عشت عمري مرتين
لن أحصيها
واللون مرتد
إلى أصله بلا لون
لا كما تخونني به عيني
والشيء بلا حد
سابح في كله)[11]

ويختتم الدكتور هيثم يحيى الخواجة كتابه (لعبة اللغة والدلالة في قصيدة النثر الإماراتية) بالتوقف عند تجربة الشاعرة الهنوف محمد مراجعاً بعض مواقفها وتصريحاتها التي تكشف من خلالها مفهومها للشعر وهو ما سيكون عاملاً مساعداً في سبر قصيدتها من النواحي الفنية والمضمونية. ولعل أهم ما أفصحت عنه في أحاديثها هو أن الشعر فن ولغته حليفة المخيلة الخصبة التي تتولد منها الدهشة. وتؤمن بمدى الأثر الذي يتركه الشعر بالمتلقي وهي في تتويج هذا الفهم الذي تعبّر عنه تقول:

(هذا الزمن المعتم
سأضعه على ظهر يمامة
سأركض نحو خطيئتي
سأوقظ زيوس من سباته
قم يا غباء الدهر
فأصدقائي أحرقوني
ولم يبق مني سوى رماد يتكلم!..)[12]

عبر هذا الفحوى تستعير الشاعرة الهنوف محمد من التراث الثقافي الإنساني رموزها مثل (زيوس) وهو ما يوسم نصها بعدم تسليم فحواه بسهولة. كما يوشّيه بالنخبوية فالقارئ في عموميته وفي اختلاف مستواه الثقافي والمعرفي، لا يعرف مَنْ (زيوس) الذي اتكأت عليه الشاعرة لتقيم بواسطته فعل الكشف والتعرية القائم على الرفض. الذي يرى الخواجة أنه مسبوق بالصدمة التي لا توظف الشاعرة آثارها في القصيدة المناسبة بقدر ما تبعث بها لتسجيل موقفها وتبرزه من القضايا التي تشغلها. وكأنها بذلك تتعلم من مسعى بودلير في تأسيسه للقصيدة على ما هو جوهري. فتمضي إلى ما هو جوهري بالنسبة إليها ويأتي في مقدمته الأزمة الوجودية للأنوثة وأزمة وعي المرأة العربية وألمها الماضي - الحاضر الذي تصوره بقولها:

(لا أدري
لِمَ أبدو خجلى أنا
أطأطئ وجهي
أغمسه في الوسادة
التي تشبه فضائي
الذي لا أعرف مداه)[13]

إن الشاعرة الهنوف محمد تحاول في مسعاها إلقاء مزيد من الضوء على الجانب المعتم وخصوصاً عند المرأة حيث كينونة الكبت وعوالمه الملأى بالكثير الكثير.. ولا تنسى في هذا الفحوى الذكورة بصورتها الجمعية القامعة باعتبارها المسؤولة عن إنشاء هذا الكبت المزمن والذي بات الوقود لمعظم الكتابات النسوية المهتمة برصد مكابدات وهموم المرأة التي غالباً ما يتم تقديمها بلسان القصيدة سواء الشعرية منها أو النثرية بضمير (أنا) المتكلم وهو ما بقي عليه الحال عينه عند الشاعرة الهنوف محمد التي قارب نتاجها الدكتور هيثم يحيى الخواجة كما قارب معها مجموعة من شعراء قصيدة النثر الإماراتية بعيون الناقد المحب والمعجب فجاءت دراسته في كتابه (لعبة اللغة والدلالة في قصيدة النثر الإماراتية) طافحة بإبراز الجوانب الإيجابية لهذه التجارب ومحتفية بما رشح من جماليات في قصائدها وفي تراكيب جملتها الشعرية دون أن يتطرق في تحليله النقدي إلى ما يناقض هذا الشعور الذي اتسم بأحكام إيجابية في الأبحاث والدراسات كافة الماثلة في أبواب كتابه وفصوله المتعددة..

وتجدر الإشارة في هذا السياق إلى أن إصدار هذا الكتاب من قِبل وزارة الثقافة الإماراتية يكتسب أهميته ليس من الجانب التوثيقي وحده، بل من جوانب إضافية أخرى في مقدمتها وضع المنجز الشعري الإماراتي أمام مجهر العدسة النقدية التي يتبين من خلالها الصورة الحقيقية التي تم تجسيدها عبر المنجز الإبداعي في نصوصه المتعددة ■

كاتب وأديب من سوريا

المصادر والمراجع:

1 - لعبة اللغة والدلالة في قصيدة النثر الإماراتية، الدكتور هيثم يحيى الخواجة، وزارة الثقافة والشباب في دولة الإمارات العربية المتحدة، ط 1، أبوظبي، 2015م.

2 - ديوان وردة الكهولة، الأعمال الشعرية الكاملة: نص الطريق، حبيب الصايغ، دار المستقلة للطباعة والنشر، أبوظبي 1995م، ص 414.

3 - ديوان وردة الكهولة، شعر حبيب الصايغ، ومجلة رأس الخيمة، عدد رقم 349 يونيو، حزيران 2006م.

4. ديوان وردة الكهولة، شعر حبيب الصايغ، المجموعات الشعرية: قصائد إلى بيروت 1982م، مياري 1983م، قصائد بحر البحر، 1993م.

5 - الأعمال الشعرية الكاملة، حبيب الصايغ، اتحاد كتاب وأدباء الإمارات، الشارقة 2011م، قصيدة الكن ص 234.

6 - لعبة المعنى، فصول في نقد الإنسان، علي حرب، دار مدارك للنشر 2012م.

7 - مجموعة المرايا تحدث أخبارها، شعر عبد الله محمد السبب، وزارة الثقافة والشباب، أبوظبي 2013م.

8 - كما لو أنني للتو، شعر عبد الله محمد السبب، وزارة الثقافة والشباب، أبوظبي 2013م.

9 - مجموعة وأن هذا ربيعي، شعر مروى الخانجي، دار الجندي للطباعة والنشر، دمشق 2010م.

10 - المرجع السابق نفسه ص 87.

11 - المرجع السابق نفسه ص 35.

12 - الأعمال الشعرية الكاملة، الهنوف محمد، وزارة الثقافة والشباب في دولة الإمارات العربية المتحدة، أبوظبي 2012م، ص 50.

13. المرجع السابق نفسه ص 48.

الصحراء.. جمالياتها ومكانتها عند شعراء الإمارات

قتيبة أحمد المقطرن

الصحراء لها عبق دلالي عند الشعراء العرب بصفة عامة، وعند شعراء الإمارات على وجه الخصوص، وهي من أكثر المفردات تأثيراً في وعيهم ولا وعيهم الشعري. وكلمة الصحراء لها دلالات ومكونات ذهنية في عقلية الشاعر العربي ومخيلته، فمنها استمد لغته الفخمة بمفرداتها وتراكيبها، ومن خطوات الإبل استنبط الحُداء[1]، ومن واحاتها وخيامها جاء شعره يحمل معاني الكرم والمروءة والشجاعة، ومن حبه الكبير لها تأصّل بين جوانحه مفهوم الانتماء والولاء للأرض والوطن.

إن العلاقة المتجذرة بين أبناء الإمارات والصحراء كان لها انعكاس كبير في شعر شعرائها؛ ولهذا نجد لها حضوراً طاغياً في قصائدهم التي جاءت تعبيراً عن إحساسهم الكبير بمدى الانتماء والولاء لهذه الأرض الطيبة التي شكّلت شريان حياتهم، وعاشت في كيانهم، خصوصاً قبل الطفرة النفطية، وباتت تشكّل ذاكرتهم الجمعية، فراحوا يبدعون في وصفها والتغني برمالها ونخيلها وإبلها وواحاتها، ويُظهرون كل معاني الولاء والوفاء لهذه الأم الطيبة التي كانت الملاذ والمأمن والحضن الدافئ، هكذا يراها الشاعر مانع العتيبة:

كانتِ الأُمَّ عطاءً دائماً لا يستكينْ
فإذا مَا حاقَ خَطْبٌ فَهِيَ الدِّرعُ المكِينْ
وإذا ثارتْ رياحُ البحرِ واخْتَلَّ السَّفينْ
وَجَدَ الأبناءُ فيها الشاطئَ الرَّحْبَ الأمينْ
تَتَلَقَّاهُم بشوقٍ وحنانٍ وحنينْ
هيَ أرضٌ وسماءٌ وملاذُ المتعَبينْ[2]

يسمو الشاعر العتيبة بمنزلة الصحراء من حيّزها الجغرافي إلى مكانٍ دعائمه الحب، وجدرانه الدفء، وسقفه الأمان.. هذا المكان يتجسّد في كيان عظيم اسمه الأم، والعتيبة كغيره من الشعراء قدّموا الصحراء في طروحاتهم الشعرية على أنها أُمٌّ عطوف رؤوم، هذا المكان لا يجاريه مكان آخر في الثَّبات والرسوخ والتجذُّر، وأيُّ بناء مهما كان ثابتاً بدعائمه الإسمنتية إذا خلا من المحبة والدفء فإنه بناء آيلٌ للسقوط، ويتهاوى عند أول عاصفة، إلا أن صحراء العتيبة، أُمَّهُ، هي ملاذ للأبناء يأوون إليها ويفترشونها أرضاً ويلتحفونها سماءً، ينامون على صدرها الدافئ وهم مطمئنون، يحتمون بها إذا كشَّر الزمن عن أنيابه، وتناوبت عليهم المِحَن، فهي لهم درع وملاذ حصين. كل هذه العناصر الحسية والمعنوية مجتمعةً تشكّل معالم الصحراء التي يرسمها العتيبة، وهي الشاطئ الذي تنتهي عنده متاعب رحلة البحر والغوص.. هذا الربط بين البحر والصحراء أضاف بُعداً جمالياً جديداً إلى المكان، فالصحراء هي الطرف الثاني المضاد لكل الأخطار التي تهدد أمن أبنائها وسلامتهم. وتتعاظم جمالية المكان بتآلف مجموعة من عناصر الطبيعة: الأرض/البحر/السماء/الرياح/الشاطئ، ومع قافية النون الساكنة نستشعر مع الشاعر حالة من السكينة والطمأنينة؛ حيث يشعر المرء بالارتياح بعد عناء وتعب شديدين عندما ينام على صدر أمه - الصحراء. وتتعزز أمومة الصحراء كذلك عند الشاعر أحمد المدني:

هيَ الأرضُ أُمّي
أُمُّ الزهورْ
أُغَنّي لها ما بفكري يدورْ
منَ الشَّوقِ والحُبِّ مثل البُذورْ
إذا انتفضت في عروقِ الحقولْ
براعمُ نافحةٌ بالعطورْ
مع الشمسِ عند الشروقْ
ملوثةٌ بارتعاشِ البروقْ
تَجُرُّ خَضيلَ الوشاحْ
على الأخضرِ الزَّرِ عَبْرَ البِطاحْ[3]
أُغَنّي، إليي أُغنّي
إذا لاحَ رَكْبُ المساءْ
تموجُ على بُرْدَتَيهِ النجومْ
فوانيسُ خافقةٌ في الفضاءْ
تُثير بنفسي دِفئاً رَؤُومْ[4]

صحراء المدني أمٌّ خيِّرة معطاء، أرض لا تبخل، تعيش في ضميره كما يعيش في دفئها وحنانها، وكما أن الصحراء أُمُّ الزهور كذلك الأم الحقيقية هي أم الأبناء. إن رحلة هذه الزهور مع الأرض بدأت منذ كانت بذوراً ونبتت، ثم تشكّلت براعمها وتَفتَّحت وبعد ذلك فاح عطرها وتضوّع في الأفق، ويزداد المكان جمالاً عندما تتألق ألوانها الصفراء والحمراء والبيضاء كلما انعكست عليها أشعة الشمس.. إن رحلة الأزهار مع الأرض تعني التجذّر والانتماء، كما يكون الانتماء والولاء للأم. إن هذا المكان لم يَعُد مجرد صحراء مقفرة ورمالاً منسيّة، لقد غدا مكاناً يفيض بالحيوية والحياة، ومنه يتدفق الأمل والعطاء، وتتجلى جمالية هذا المكان بتضافر عناصر الطبيعة الساحرة المتمثلة بالحركة واللون والرائحة، وعناصر الطبيعة في الطرف المقابل: الزهور/الشمس/الخضرة/البطاح.. فرائحة العطور المنبعثة من هذه الأزهار يعبق بها المكان وحركة هذه النباتات وهي تشق التراب لتخرج إلى السطح.. كل هذه العناصر المكانية اجتمعت لتؤلف لوحة بديعة تعكس جماليات هذه الصحراء.. وتتجلى جماليات المكان أكثر في صورة (الصحراء - الأم)، والعلاقة الحميمية بينهما. فهل نرى الصحراء بعد هذا مجرد حبيبات رمل صامتة، أو مجرد بُعْدٍ مكاني لا حياة فيه؟! ويراها الشاعر كريم معتوق مصنعاً للرجولة والرجال:

وَتُسائلينَ إلى متى؟

ويَغُصُّ في سَمْعي السؤالْ
لِأَفِرَّ من هذا الشتاءْ
وَأَحُطَّ في وَهجِ الرِّمالْ
تلك التي عَرَفتْ مَساوئَنا
وأنجبتِ الرجالْ
صفراءَ أو حمراءَ من لونِ المحبَّة
حين يدعونَا البقاءُ إلى نِزَالْ[5]

الصحراء عند كريم معتوق مصنعاً ومدرسة تُعنى بإنشاء الرجال وتتقن صناعتهم، وتُبدُّهم الإعداد الأمثل، تشذّب أفعالهم وتصقل عزائمهم وتُسلّحهم بالقيم والخصال النبيلة، وتقدّمهم بعد ذلك إلى معترك الحياة محصّنين بالمروءة والشهامة والشجاعة. ويرى فيها الشاعر الملاذَ من برد الشتاء، ففي وهج رمالها وحرّ هجيرها تتم صناعة الرجال. ومن اجتماع النقيضين: الشتاء ببرده، ووهج رمال الصحراء، تتجلى جمالية هذا المكان، فالصحراء الأمُّ التي أنجبت الرجال كأنها عاشت فترة أمومة حقيقية وهي تُنشئ أبناءها وتربيهم على الشجاعة وتزرع فيهم الفضائل والقيم النبيلة حتى استوى عودهم وأصبحوا رجالاً. ويأتي عنصر اللون ليضفي على هذا المشهد الصحراوي مسحة جمالية أخرى، فالرمال صفراء وحمراء. ويتجلى مفهوم الانتماء والتعلق بالأرض والذود عنها إذا ما تعرّضت للغزاة والمعتدين. كذلك يتجلى عنصر الحركة ليضيف بُعْداً جمالياً عَبْر الأفعال: أَفِرُّ/أحطُّ؛ حيث رغبة الشاعر في الفرار والخلاص من المكان الذي هو فيه ليحطَّ رحالَه على رمال الصحراء التي يعشقها. إن أهمية الصحراء تتجلى في نفوس شعراء الإمارات وتسمو مكانتها لأنها تشكّل مرجعتيهم وذاكرتهم الجمعية، وكذلك أبجديات انتمائهم إلى الأرض.

وفي ردّ الشيخ المر بن الشيخ مقرن بن سلطان على الشاعر عارف الشيخ؛ حيث كان الشاعر يتردد بين الحين والآخر في زيارة الشيخ محمد بن خليفة المكتوم في بيته؛ حيث صار الوصول إلى بيته صعباً بسبب الرمال، يستغرب شكواه من الرمال التي تعوق حركته في الوصول إلى بيت الشيخ؛ حيث يقول:

إنَّ الصَّحارى أرضُنا يا أَخي
ومَنْبِتُ العِزِّ ودَارُ الرِّجالْ
فيها نَشَأنَا وَلَها ننتمي
فَهِي لَنَا أُمٌّ وعَمٌّ وخَالْ
واللهُ وَصَّانا بِأُمٍّ فَهَل
عُقُوقُها إلا الضَّلالُ الضَّلالْ[6]

في هذه الأبيات يسمو الشاعر بمرتبة الصحراء ومكانتها، ولا يقف عند حدود مساواتها بالأم، فهي كل الأهل والأقرباء، أمٌّ وعمٌّ وخال، وإهمالها والتخلي عنها لا يختلف عن عقوق الابن لأمّه. وتتصف الصحراء بمعانٍ كثيرة في هذه القصيدة، فهي: الأرض - السكن والدار، وهي صلة القرابة والرحم - العم والخال، ولها الانتماء ومن دونها يعيش المرء منبوذاً ضائعاً غريباً. ولو تتبّعنا هذه الرحلة الزمنية مع الصحراء نراها ممتدة وقديمة تبدأ من مرحلة النشوء ثم الانتماء ثم الطاعة والولاء، هذه المعايشة اللحظية للصحراء والتدرج معها من مراحل الطفولة إلى الصبا والشباب وانتهاء بالكهولة والشيخوخة، لا شك أنها تعزّز أواصر الألفة والتوحد مع المكان والتجذر فيه، فهي ليست علاقة عابرة كعلاقة مسافر مرّ بمكان واستظل بفيء أشجاره ثم تابع مسيره، إنها العلاقة المزمنة، علاقة الابن بأمه وأعمامه وأخواله، وهل هناك علاقة أوثق وأمتن من هذه العلاقة؟ المكان والإنسان في هذه الأبيات جزء لا يتجزأ من كيان متكامل، فالمكان يعيش في الشاعر كما يعيش الشاعر فيه. ونرافق الشاعرة هند القاسمي وهي ترسم لوحة ساحرة لصحرائها التي تتشكل مفرداتها من أشجار الغاف والظباء والنُّوق والطيور فيغدو المكان عامراً بالحيوية والحركة والجمال:

أَيُّها السَّيحُ سلاماً
زانكَ الغَيثُ بِزَهْرِ
مَلأَ الأرجاءَ نَفْحاً
بِشَذا عُوْدٍ بِجَمْرِ
وحَمَامُ الدَّوحِ يَشدُو
بينَ نَوَّارٍ وَزَهْرِ
وظِباءٌ فاتناتٌ
لَونُها صافٍ كَتِبْرِ
ونِيَاقٌ تتهادى
في عِنَاقٍ مُستَمِرِّ
نَشَرَ الغافُ ظِلالاً
تزدهي في سِيْحِ سِدْرِ[7]

جمعت الشاعرة في هذا السّيح كل معطيات الصحراء الفاتنة، وقدّمت لنا مكاناً عامراً بالحياة والحركة والجمال؛ حيث الظباء والنوق والحَمام والأزهار، وأشجار الغاف التي تنشر ظلالها في المكان. إن المطر الذي سقى الأرض جعلها تتفتح خضرة وربيعاً، فإذا الورود والأزهار تملأ المكان وعطرها يفوح في الأفق، وعذوبة رائحة الأرض التي تشبّعت بماء المطر فغدت رائحتها الندية تحيي النفوس وتمتّن أواصر التعلق بالأرض، والجمال:

والحمام يشدو على الأغصان بنغمات عذبة تبعث في النفس راحة وصفاء. وترصد الشاعرة حركات قطعان الظباء برشاقتها وألوانها الذهبية فتضجّ جنبات المكان بسحرها وجمالها وألوانها فيزداد المكان جمالاً على جَمال. ويضفي منظر النوق مسحة جمالية ثانية، وهي تتبختر في مشيتها، وكأنها تعانق بعضها بعضاً؛ تعبيراً عن السعادة التي تعيشها في أرجاء هذا السيح الأخضر، ونرى الأفعال الماضية: زانك/ملأ/نشر، فيها إشارة إلى جمال الطبيعة المتأصل في هذا السيح، وفي الأفعال المضارعة: يشدو/تتهادى/تزدهي، دلالة على الحركة والتجدد. وبهذا السبك بين ثبات الأفعال الماضية وحيوية وتجدد الأفعال المضارعة، رسمت الشاعرة لوحة متناسقة الأطوال والمعايير لهذا السيح الصحراوي، تجلّت فيها عناصر الجمال بكل أبعادها وجزئياتها.

إن الإبداع الفني الذي تجلى في حديث شعراء الإمارات عن مكانة الصحراء وجمالياتها، بكل مفرداتها؛ ظبائها وإبلها وغافها ومطرها، مردُّه إلى حبهم لهذه الصحراء وتعلُّقهم بها، وانتمائهم وولائهم لها، وصدق مشاعرهم وعواطفهم نحوها، ولا شك أن علاقتهم بها لم تكن مجرد علاقة بمساحة جغرافية وحسب، إنها علاقة متجذّرة متأصلة راسخة، إنها علاقة الأبناء بأمهم، وعلاقة الأم بأبنائها، علاقة الأبناء بوطنهم، وعلاقة الوطن بأبنائه، ظلّلتهم بالأمن والمحبة والحنان فَردُّوا إليها الجميل انتماء وولاء وحبّاً، صنعت منهم رجالاً وربّتهم على العزة والمروءة والشجاعة فكانوا لها أبناء بارّين مخلصين ■

أكاديمي سوري

المصادر والمراجع:

1. الحُداء: الغناء للإبل وحثُّها على السير.
2. مانع سعيد العتيبة، ديوان (المسيرة)، ص 19، وانظر ديوانه (مجد الخضوع)، ص 83 - 84.
3. خضيل: روض ندي/ الوشاح: نسيج عريض يرصَّع بالجواهر تشدُّه المرأة بين عاتقها وكَشْحها.
4. أحمد المدني، ديوان (حصاد السنين)، قصيدة (أم الجميع)، المطبعة الوطنية، دبي 1968، ص 140 - 141.
5. كريم معتوق، ديوان (هذا أنا)، قصيدة (سؤال)، منشورات اتحاد كتاب وأدباء الإمارات، دار الموسوي للطباعة والنشر، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة، ص 76.
6. عارف الشيخ، ديوان (نداء الوجدان)، قصيدة (هائم في العوير)، ط 1، دبي، الإمارات العربية المتحدة 1993، ص 185. والأبيات ردٌّ من الشيخ المرّ بن الشيخ مقرن بن سلطان على الشاعر عارف الشيخ.
7. هند القاسمي، ديوان (نفوس شامخة)، قصيدة (السّيح)، ص 121 - 122.

ذكريات زمن البدايات (23)

يونس البحري آخر ومضات نجم أفل

خليل عيلبوني

منذ الأيام الأولى لوصولي إلى أبوظبي وعملي في إذاعتها الوليدة التي انطلقت قبل عامين من وصولي، التقيت بشخصية إذاعية تركت أثراً عميقاً في نفسي، إنها شخصية المرحوم يونس البحري. كان الرجل في نهاية العقد السابع من العمر، نحيف البنية كثيف شعر الرأس، أنيق الهندام، ذا صوت جهوري مميز. قدمه لي الأخ مفيد مرعي قائلاً: يونس البحري، أشهر من نار على علم. قلت: أهلاً أستاذ يونس، سمعنا عنك كثيراً. ابتسم الرجل بحياء، ومضى إلى مكتبي الذي كان قريباً من مكتب قسم الأخبار.

سمعت والدي - رحمه الله - يردد اسم يونس البحري كثيراً قبل أن أراه بسنوات عديدة، كان يقول: يونس البحري في الحرب العالمية الثانية كان أشهر من أحمد سعيد في الخمسينيات والستينيات. حتى الأخ مفيد مرعي عندما طلبت منه أن يكتب عن يونس البحري قال: لا أنسى دهشة المرحوم والدي عندما أخبرته أنني أعرف يونس البحري وأصبحت صديقاً له. توطدت العلاقة بيني وبين المرحوم يونس البحري وأصبحنا صديقين. أصغيت له وهو يقلد هتلر بلغة ألمانية سليمة، حيث كان البحري من أنصار هتلر في الحرب العالمية الثانية لا حباً وإعجاباً به، بقدر ما فعل ذلك نكاية بالحلفاء الذين استعمروا الوطن العربي، واضطهدوا شعبه، وساعدوا الصهاينة على احتلال فلسطين وتشريد شعبها. يقول الأخ مفيد مرعي: عاش يونس البحري حياته طولاً وعرضاً، وبدأت شهرته في الحرب العالمية الثانية حين ناصر هتلر إعلامياً، وافتتح إذاعة ناطقة باللغة العربية في ألمانيا؛ ليحشد الدعم العربي لهتلر، كان شعارها: حي العرب هنا برلين، وكان هو كل شيء يقرأ الأخبار، ويرتل القرآن، ويقوم بعمل اللقاءات. ولكن، ماذا حدث بعد ذلك، وكيف جاء يونس البحري إلى أبوظبي؟ ولماذا؟

وجهت هذا السؤال للأخ مفيد مرعي عندما وصلت إلى أبوظبي والتقيت بالبحري فأجاب: بعد انتصار الحلفاء وهروب يونس البحري من ألمانيا تقطعت به السبل، وتشرد في أنحاء الأرض بحثاً عن عمل في مجال لا يجيد غيره ألا وهو الإعلام. إلى أن سمع بالمغفور له الشيخ زايد، فشد الرحال إليه والتقى به، وكان الشيخ زايد - طيّب الله ثراه - قد عرف عن الرجل الكثير، فرحّب به وفتح له المجال؛ ليسهم في إذاعة أبوظبي كمراقب لنشرات الأخبار ومدقق لغوي للمذيعين والمذيعات، وحصل - رحمه الله - على الراتب الجيد والسكن اللائق، واستقر في السنوات الأخيرة من حياته في هذا البلد مع زوجته الأخيرة وهي السيدة شهرزاد سورية الجنسية.

كان يونس البحري، يعرف أن زمانه مضى، وأنه لم يعد إلا ذكرى، لذلك لم يحاول أن يقدم برنامجاً أو يذيع نشرة، أو حتى أن يسرد تاريخ حياته وفصول مسيرته الإعلامية. كان يكتفي بالحضور إلى الإذاعة يومياً والاستماع إلى بعض المذيعين الجدد، ويقدم تقريره عن مدى إجادتهم أو تعثرهم، ويمضي بعد ذلك إلى بيته بكل هدوء ودون مشاكل. سمحت لي الظروف أن أعرف إمكانات الرجل الرهيبة؛ فهو يملك ناصية اللغة العربية، واللغتين الألمانية والإنجليزية وقد سمعته يقلد بعض زعماء العالم في أثناء الحرب العالمية الثانية، مثل: هتلر، وتشرشل، وروزفلت، وموسوليني وغيرهم. كان يقلد حتى انفعالاتهم، فتكاد تشك في أنك تستمع إلى تسجيل لأولئك الذين يقلدهم سألته مرة: أستاذ يونس، في البحث عن كلمة «رغم»، وجدت أنها جائزة بالضم (رُغمَ) والفتح (رَغمَ) وبالكسر (رِغمَ)، فبماذا تنصحني أن أنطقها؟، فقال: قال يونس: رُغمَ أن النطق بها جائز في الضم والفتح والكسر إلا أنني أنصحك أن تتميز من غيرك من المذيعين وتنطقها بالضم؛ لأن الآخرين ينطقونها بالفتح، ومن يومها وأنا أنطق رُغم بالضم. عانى يونس البحري من جيل الشباب الجديد الذي لم يكن يعرف عنه شيئاً، وبرغم قيامنا أنا ومفيد بشرح تاريخ الرجل لهم فإنهم لم يشهدوا فيه شيئاً

يونس البحري

مثيراً للاهتمام غير تمكّنه من اللغة العربية. ومما كتبه الأخ مفيد مرعي عن ذكرياته مع يونس البحري: منذ وصوله إلى أبوظبي، وإلقائه كلمة في مناسبة الاحتفال بوصوله إلى أبوظبي بدأت صداقتي مع يونس. بعد أن انتهى يونس من إلقاء كلمته، انتظرنا أن ينضم إلينا فنسمعُ أخباره ونتعرف انطباعاته عن أبوظبي، ولكن الرجل اختفى. بحثت عنه في كل أنحاء فندق زاخر الذي أقيم الحفل فيه فلم أجده، وانتهى حفل الترحيب به دون أن يودع أحداً. انسحب يونس دون أن ينتبه إليه أحد. سألته في اليوم التالي: ما الذي جرى؟ وأين اختفيت أمس؟ فقال: خذها نصيحة، إذا أردت أن تغادر مكاناً لا تستأذن ولا تعتذر؛ لأنك سوف تحرج، وقد أخذت بنصيحته بعد سنوات عندما قررت ترك وظيفتي لأبدأ نشاطي في مجال الإنتاج التلفزيوني. التقى يونس البحري خلال عمله الإعلامي أيام الشباب بالعديد من رؤساء العالم، وحقق شهرة واسعة وترك بصماته الواضحة على الإعلام العربي في فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية، وذلك باللجوء إلى الإثارة والمبالغات والتهويل الذي يبعد المستمع عن الحقيقة ويبعد الحقيقة عن المستمع. ومن خلال اللقاءات العديدة بيني وبينه تأكدت أن الرجل يعاني شعوراً بالضياع، وهو يعتقد أن جميع الإعلاميين الذين التقى بهم لا يستحقون أن يكونوا حتى طلاباً في مدرسته، وأنه الوحيد الذي يجب أن يكون سلطان الإعلام في الوطن العربي. ولم يكن يشعر بذلك مغروراً، بل هو بعيد جداً عن الظهور وحتى عن محاولة الظهور، هو أدار ظهره للإعلام وتخلى عن الدور الذي قام به في شبابه، ولم يعد مجدياً بالنسبة إليه أن يفكر بالعودة إلى الظهور الإعلامي مرة أخرى. أعود إلى ما كتبه الأخ مفيد مرعي عن يونس البحري حيث يقول: كنت دائماً أسهر في بيت يونس البحري في الخالدية، أو أذهب لإحضاره هو وزوجته شهرزاد التي كانت تصغره بثلاثين سنة على الأقل؛ لنسهر في بيتي. وأذكر أنني قلت له ذات يوم ممازحاً: هل ستكون شهرزاد آخر زوجاتك؟ أجاب: أعتقد، فلم يعد في العمر عمر، أنا الآن أقترب من الثمانين عاماً. وفعلاً كانت تلك الزوجة هي الأخيرة

في حياته، وكان المرحوم يونس البحري قد أخبرني أنه تزوج أكثر من ثمانين مرة في عمره، وأنه لا يعرف جميع أولاده وأحفاده. تستطيع أن تحكم وأنت تصغي إلى يونس البحري أن الرجل عاش حياة حافلة، وأنه مر بتجارب كبيرة، وأنه في مرحلة الشيخوخة لا يريد أن يضيع يوماً واحداً في حمل همّ أو تحمّل مسؤولية. كان يعلم جيداً أنه ينحدر إلى النهاية، وأن الأيام التي بقيت له معدودة، ولذلك لم يشأ أن يسلم نفسه للحزن والأسى، ولم يكن يحب حتى أن يتذكر الماضي، وعندما حاول الأخ مفيد مرعي أن يسجل له بصوته بعض ذكرياته عن ماضيه الحافل هب واقفاً بانزعاج قائلاً: لن أدخل بيتك بعد اليوم، أنا أرفض تسجيل مذكراتي أو كتابتها. فقال مفيد: ولكن تجربتك لم تعد ملكاً لك وحدك، إنها ملك للأجيال القادمة. قال يونس بحدة: دع الأجيال القادمة تبحث عن تاريخ يونس البحري، أما أنا فلن يسمع أحد مني شيئاً، اتركوني لشأني، أريد أن أغادر هذه الدنيا بهدوء. وبالفعل غادر يونس البحري دنياه بهدوء، ولم يحس بموته أحد، ذلك الذي شغل أسماع العرب في الأربعينيات من القرن الماضي، وهز المنابر بصوته وكلماته الجريئة، لم يشعر أحد بنهايته، ولا كيف غادر، فما كان يعاني أيَّ داء برغم تجاوزه الثمانين من عمره. عاش يونس البحري بيننا أعواماً عدة، لم يكن يبدو عليه أنه مهتم بشيء ما، جميع الأمور لديه سواء يجيب على أسئلة المذيعين الشباب دون إسهاب، لم يكن يرغب في إظهار معلوماته ولا استعراض قوته اللغوية. كل ما يهمه هو الحضور إلى الإذاعة، وقضاء وقت محدد مع المذيعين وخاصة الجدد، ثم المغادرة إلى بيته والاستعداد لبرنامج السهرة إما مع زوجته وإما مع الأصدقاء.

غادر يونس البحري دنياه بهدوء، ولم يحس بموته أحد، ذلك الذي شغل أسماع العرب في الأربعينيات من القرن الماضي، وهز المنابر بصوته وكلماته الجريئة، لم يشعر أحد بنهايته، ولا كيف غادر، فما كان يعاني أيَّ داء برغم تجاوزه الثمانين من عمره

كان يونس البحري في أواخر أيامه مسالماً، لا يحب النقاش أو الجدال، ولا يبدي حتى وجهة نظره في الأحداث التي تمر بالوطن العربي وكأنها لا تعنيه، وكان السؤال الذي يطرح نفسه ونحن نصغي إليه: هل هذا هو فعلاً يونس البحري الذي أقام الدنيا ولم يقعدها في برنامجه الشهير، حي العرب هنا برلين؟ ■

إعلامي وشاعر

حسن فتحي.. فيلسوف العمارة

حمادة عبد اللطيف

يعتبر المهندس المعماري حسن فتحي واحداً من أبرز الأسماء في مجال العمارة والتصميم، كما يُعد من أهم رواد العمارة البيئية التي تقوم على توظيف المكونات البيئية للمكان في تصميم المباني وإنشائها، ويتميز أسلوب حسن فتحي المعماري بالبساطة مع الاهتمام بجماليات التصميم التي تستلهم روح البيئة المحيطة بالمكان وتنسجم معها، بل وتستقي من تلك البيئة مكوناتها المادية، وقد اتكأ حسن فتحي على المخزون الهائل من جماليات العمارة الإسلامية، حيث استدعى التصاميم التراثية التي اشتهرت بها العمارة الإسلامية ليشكل منها نموذجاً معمارياً يتماشى مع العصر الحديث.

وُلد المهندس حسن فتحي مع بداية القرن العشرين في 23 مارس عام 1900 في مدينة الإسكندرية في مصر، كان والده يعمل قاضياً، في عمر الثامنة انتقل حسن فتحي مع الأسرة إلى ضاحية حلوان جنوب القاهرة، حيث التحق بمدرسة محمد علي الابتدائية، ثم التحق بالمدرسة الخديوية الثانوية، وبعد إنهاء تعليمه الثانوي التحق بكلية الهندسة التي كانت تسمى وقتها بالمهندس خانة، وبعد تخرجه عمل حسن فتحي مهندساً بالإدارة العامة للمدارس بالمجالس البلدية التي كانت تشرف على تصميم المدارس وإنشائها وكان أول تصميم يقوم به كمهندس هو إنشاء مدرسة طلخا الابتدائية في محافظة الدقهلية في دلتا مصر، حيث تم الانتهاء من إنشائها عام 1928م. لم يكن حسن فتحي معمارياً تقليدياً يهتم بما يخص مجال العمارة فقط، بل كان شخصاً موسوعياً، موسيقياً، متذوقاً للفن مبدعاً بأفكاره، قارئاً واسع الاطلاع في مختلف نواحي الثقافة، محباً للفنون، وقد أثرت هذه الثقافة التي اكتسبها في أسلوبه كمصمم معماري، فقد تميز أسلوبه بإضفاء مسحة إنسانية على تصميماته المعمارية كما اهتم كثيراً بالأبعاد البيئية، وإحياء طرق البناء القديمة بصيغة عصرية. واهتم حسن فتحي كثيراً بالنواحي الجمالية في العمارة واتساقها مع البيئة المحيطة، وضرورة أن يكون الإيقاع الهندسي للعمارة متناغماً مع ما يحيط به، وكان يحرص على أن توفر العمارة الخصوصية لساكنيها وتتيح لهم قدراً من التفاعل الاجتماعي.

تفاعل مستمر بين الإنسان والعمارة

كان حسن فتحي يؤمن بأن هناك تفاعلاً مستمراً بين الإنسان

والعمارة، حيث يؤثّر كل منهما في الآخر بشكل ما، ومن ثم كان يتعامل مع العمارة بمنطق إبداعي فلسفي يحمل رسالة ويتبنّى قيماً جمالية، لذا فقد أعطى اهتماماً كبيراً لتفاعل البشر مع العمارة، ومن أقواله (المنزل هو ثاني شيء يحيط بالإنسان بعد ملابسه، لذا يجب أن ينتمي الإنسان إلى منزله كما أن منزله ينتمي إليه)، من هذا المنطلق كانت رؤية حسن فتحي للعمارة رؤية فلسفية حيث جمعت بين الجمالية والوظيفية. وكان يؤمن بأن التصميم الهندسي للعمارة يجب أن يخدم الاحتياجات الوظيفية والمجتمعية والبيئية، دون التخلي عن الجمال والروح الفنية. كما كان سعيه دائماً إلى إيجاد حلول معمارية تتسم باتساقها مع البيئة، فنجده يلجأ إلى مكونات البيئة الطبيعية، مثل الطمي والطوب واللبن والأحجار، وكان يراعي في تصاميمه أن تكون النوافذ مستطيلة حتى تسمح بمرور الهواء بسرعة ليحدث تبريداً ذاتياً للمكان، كما كان يهتم بوجود صحن للمبنى وخاصة المنازل، حيث يساعد هذا الصحن في تنظيم درجة حرارة المبنى طوال العام.

من أهم المشروعات التي جسدت فكر حسن فتحي وفلسفته في العمارة مشروع قرية (القرنة) الجديدة في الأقصر في صعيد مصر، التي كانت بمثابة الحلم الكبير الذي كان يراود حسن فتحي للنهوض بالقرية المصرية وتطويرها عمرانياً، كما أتاح له هذا المشروع الفرصة ليطبق أفكاره حول العمارة البيئية، بدأ المشروع في منتصف الأربعينيات من القرن الماضي عندما عَهدت مصلحة الآثار المصرية إليه بالتصميم والإشراف على تنفيذ قرية (القرنة) الجديدة التي أُعدت لنقل سكان قرية (القرنة) القديمة التي كانت تقع فوق المنطقة الأثرية في الأقصر وقد استلهم حسن فتحي من بيئة المكان خطة تصميم القرية وتنفيذها، حيث كانت بأكملها من الطوب اللبن بما في ذلك أسقف المباني التي أنشأها على هيئة قباب، فقد لجأ حسن فتحي إلى أساليب البناء التقليدية التي كانت موجودة في جنوب مصر، في أسوان والنوبة، والتي كانت تستمد كل شيء من البيئة المحيطة، حيث اعتمدت بشكل كبير على الطمي والطوب اللبن نظراً إلى توافر الرواسب الطمية لنهر النيل بكثرة.

وقد أعطى حسن فتحي لهذا المشروع اهتماماً كبيراً، حيث كانت الأبعاد البيئية والاجتماعية حاضرة أمامه باستمرار أثناء التخطيط والتنفيذ، وكان إيمانه كبير بضرورة إيجاد نوع من التكامل بين الجانب المادي والجانب المعنوي للعمارة، لذا فقد كان يهتم بالبعد الاجتماعي لسكان المشروع، وكان يسأل كلاً منهم عمّن يرغب في أن يكون بجواره من الجيران، كما كان يُحضر المنشدين والمغنيين الشعبيين لينشدوا للعمال

أثناء البناء، وذلك لمعرفته بأن أهل المكان من عمال وبنائين معتادين على سماع مثل هذه الأناشيد للتخفيف من عناء العمل. كانت نظرته للعمارة تتعدى كونها تصميمات تُنفذ وأبنية تُنشأ، كان يؤمن بأن العمارة حالة من التفاعل المستمر بين الإنسان والمكان، وأن روح المكان تنعكس على ساكنيه.

مشروع قرية «القرنة»: حلم وتحديات

بدأ حسن فتحي في تنفيذ مشروعه في قرية (القرنة) الجديدة وانتهى من التصميمات، بل وأنشأ جزءاً من القرية، ولكن العراقيل حالت دون أن يُكمل حلمه، فقد واجه المشروع كثيراً من العقبات، منها ما يتعلق بأهالي القرية، حيث رفض بعضهم ترك مكانه في القرية القديمة والانتقال إلى القرية الجديدة، ومنها ما يتعلق ببعض الذين أزعجهم نموذج حسن فتحي في بناء القرية المصرية وتعميرها، فقد كان مشروعه قليل التكاليف قائم على النظام التعاوني في البناء، يعتمد على خامات البيئة المحيطة بالدرجة الأولى، ما دفع بعضهم للوقوف في وجه هذا المشروع، وبالفعل توقف مشروع قرية (القرنة) الجديدة عقب ثورة 23 يوليو 1952، ولكن حسن فتحي لم يتوقف وظل متمسكاً بأفكاره حول العمارة البيئية. وفي بداية ستينيات القرن الماضي حاول إعادة تجربة قرية (القرنة) الجديدة التي لم تكتمل، لكن هذه المرة في قرية (باريس) في الواحات الخارجية بالوادي الجديد في صحراء مصر الغربية، حيث بدأ المشروع الضخم الذي تبنّته الحكومة المصرية لتعمير الوادي الجديد، وكان مشروع حسن فتحي لتعمير قرية (باريس) من ضمن المشاريع التي سوف تُنفذ، بدأ المهندس حسن فتحي في تنفيذ مشروعه باستخراج المواد اللازمة للبناء من موقع البناء نفسه، ثم قام بتدريب بعض العمال من أهالي القرية على بناء القباب، وبالفعل تم إنجاز بعض أجزاء المشروع مثل سوق القرية، ولكن تكرر معه ما حدث في مشروع قرية «القرنة» الجديدة، حيث توقف المشروع ولم يكتمل. وفي نهاية فترة الستينيات انتقل حسن فتحي للعيش في بيت أثري قديم مبني على الطراز المملوكي عمره أكثر من خمسمئة عام، يقع في شارع درب اللبّانة في منطقة القلعة في القاهرة القديمة، وأصبح بيته من أهم المنتديات الثقافية في القاهرة في تلك الفترة، فقد قصده الكُتاب والمفكرون والفنانون بالإضافة إلى بعض تلاميذه من المعماريين الذين درسوا العمارة على يديه. في أواخر السبعينيات أنجز حسن فتحي تصميم مدينة دار الإسلام في ولاية نيو ميكسيكو في الولايات المتحدة الأمريكية، وهي عبارة عن مركز إسلامي يضم معهداً للدراسات الإسلامية، ومدرسةً، ومسجداً، وسكناً لكل من المدرسين والطلاب، وتم البناء بطريقة القباب والأقواس على يد بنائين أحضرهم حسن فتحي من النوبة في جنوب مصر.

مؤلفات وجوائز عالمية

حصل حسن فتحي على جوائز عدة عالمية في مجال العمارة منها جائزة آغا خان للعمارة وقد نالها لمساهمته الفاعلة في خدمة العمارة الإسلامية، وجائزة (رايت لايفلي هود) السويدية، وجائزة (لويس سوليفان) للعمارة، وجائزة (بول هوفمان)، وفي مصر حصل على وسام الاستحقاق من الطبقة الأولى عام 1980م، وقد حظي فكر حسن فتحي وأسلوبه المعماري باهتمامين واسعين على النطاق الدولي، فقد كرمته العديد من الجامعات العالمية وخصته بمراكز أبحاث تحمل اسمه وتطبق أفكاره، كما اهتمت أقسام العمارة في جامعات العالم المختلفة بمؤلفاته ومشاريعه، وطبقت كثير من الدول نموذجه المعماري منها الهند وباكستان وبعض دول أمريكا اللاتينية.

ومن مؤلفاته في مجال العمارة: عمارة الفقراء، العمارة والبيئة، الطاقات الطبيعية والعمارة التقليدية، العمارة العربية الحضارية، القاعة العربية في المنازل القاهرية. كما كتب روايتين «قصة مشربية» و«قصة يوطوبيا».

في الثلاثين من نوفمبر عام 1989 رحل حسن فتحي تاركاً وراءه إرثاً كبيراً متمثلاً في فكره وأسلوبه المعماري المميز، بعد أن جعل من قباب الطين وأقواس الطوب واللبن والحجارة الجيرية أيقونات معمارية ترمز إلى التفاعل المستمر بين الإنسان والعمارة والبيئة ■

كاتب مصري

بيوت الحكمة: رصد تطور المكتبات في الحضارة الإسلامية

راشد سعيد مبارك
باحث من الإمارات

تعد المكتبات في الحضارة الإسلامية حاضنةً من حواضن العلم والمعرفة ومخزناً لشتى صنوف المعرفة في التراث الإنساني في التخصصات كافة النظرية والعلمية والتطبيقية في حضارتنا العربية الإسلامية، ولم تكن المكتبات في حقيقة الأمر قد عُرفت بعد أصلاً في عصر نبي الإسلام محمد (صلى الله عليه وسلم) (571 م - 632 م) ولا في عصر دولة الخلفاء الراشدين ما بين الأعوام (632 م - 661 م) ولا حتى في العصر الأموي في دمشق في بلاد الشام أيضاً. ولقد كانت النواة والبدايات الأولى لبداية بزوغ شمس الحضارة الإسلامية البسيطة والمتواضعة بلا ريب في عصر الدولة الأموية وعاصمتها (دمشق) خلال الفترة الممتدة ما بين الأعوام (661 م حتى 750 م) على يد الأمير الأموي (خالد بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان الأموي القرشي) حيث كانت قد بدأت أول حركة نقل وترجمة في تاريخ الحضارة الإسلامية على يديه على الإطلاق، حيث قد نقلت الكثير من الكتب والمؤلفات القديمة المختلفة وترجمت من لغاتها الأجنبية إلى اللغة العربية. وفي الحقيقة فقد كان العصر العباسي الممتد خلال الفترة ما بين الأعوام (750 م حتى 1258) بلا ريب هو العصر الحقيقي لنشأة حركة التدوين والترجمة الرئيسية وبزوغ شمس حضارتنا الإسلامية الخالدة ونهضتها، حيث كان قد اهتم الخلفاء العباسيون بالعلم والمعرفة والثقافة والأدب وكانوا يجزلون العطاء بالمال للعلماء والمفكرين والأدباء واللغويين والمؤرخين والنحاتين والمترجمين والشعراء،... إلخ. ولقد كان العصر العباسي هو البداية الحقيقية لنشأة ما يعرف بـ (المكتبات)، حيث قد بُنيت أعظم مكتبة في العصر العباسي وهي مكتبة (بيت الحكمة في بغداد) على يد الخليفة العباسي (المأمون) الذي كان من أكثر الخلفاء العباسيين ولعاً وحباً للعلم والمعرفة والثقافة ولقد حوت مكتبة "بيت الحكمة" في بغداد العديد من الكتب والمؤلفات العلمية والأدبية المختلفة في شتى صنوف العلم والمعرفة التي قد جُلبت أصلاً من بلاد الفرس والروم والهند والصين وغيرها من البلدان الأخرى. وقد عُرف عن الخليفة العباسي (المأمون) أنه كان يجزل العطاء لمترجمي الكتب والمؤلفات المختلفة في عصره. ولقد اهتم الخلفاء الفاطميون في عصر الدولة الفاطمية في مصر الممتد خلال الفترة ما بين الأعوام (969 م حتى 1171 م) في تعزيز العلم والمعرفة والثقافة والأدب، حيث إنهم كانوا قد أرادوا أن يخلدوا اسمهم في سماء العلم والمعرفة والثقافة العربية والإسلامية إسوة ومحاكاة للخلفاء العباسيين في عاصمتهم (بغداد)، فقاموا، بناءً على ذلك، بتشييد مكتبة (دار الحكمة) في القاهرة على يد الخليفة الفاطمي (الحاكم بأمر الله) وقد حوت هذه المكتبة على العديد من الكتب والمؤلفات المختلفة في شتى صنوف العلم والمعرفة التي قد جُلبت - آنذاك - من مختلف البلدان أيضاً. واهتم الأمراء ثم الخلفاء الأمويون المتعاقبون في الأندلس وذلك خلال الفترة الممتدة ما بين الأعوام (756 م حتى 1031 م) بالعلم والمعرفة والثقافة والأدب وكانوا يجزلون العطاء بالمال للعلماء والفقهاء والمحدّثين والمؤرخين واللغويين والنحاتين والمترجمين وغيرهم أسوة بما قام به الخلفاء العباسيون والفاطميون في كلٍّ من بغداد والقاهرة وأصبحت (قرطبة) عاصمة الإمارة الأموية في الأندلس على يد مؤسسها الأول الأمير الأموي (عبد الرحمن الداخل) الملقب بـ (صقر قريش) حاضنة من حواضر العلم والثقافة والمعرفة والأدب وحاضرتها في حضارتنا الإسلامية الخالدة، وتم على إثر نهضة حضارتنا الإسلامية الرائعة في الأندلس الشروع في بناء (مكتبة قرطبة) التي أسسها الخليفة الأموي (عبد الرحمن الناصر) الملقب بـ (الناصر لدين الله) خلال الفترة ما بين الأعوام (913 م حتى 962 م) الذي عُرف عنه حبه وشغفه وولعه للكتب والمؤلفات المتنوعة ولقد كان جمّاعاً للكتب النفيسة والقيّمة على اختلاف أنواعها ومجالاتها واختصاصاتها ■

من البقاء إلى العدالة..

سيرورة القيم الأخلاقية

شريف مصطفى
كاتب وقاص مصري

تحتل الأخلاق مكانة مركزية في تاريخ الفكر الإنساني، ولطالما تساءل الفلاسفة والمفكرون عن مصدر القيم الأخلاقية التي توجه دفة العلاقات الإنسانية، هل تنبع هذه القيم من التعاليم الدينية والنصوص المقدسة، أم إنها نتاج العقلانية البشرية؟ وتبرز هنا أهمية السؤال: هل هذه القيم ثابتة وغير قابلة للتغيير، أم إنها مرنة وتتطور مع تقدم الزمن؟

في عصور ما قبل التاريخ، كانت الأخلاق تعكس بشكل كبير الحاجة إلى البقاء. في تلك الأوقات، شكّلت الظروف البيئية والموارد المحدودة تحديات جسام للبشرية. لذلك، كانت القرارات الأخلاقية تتأثر بمتطلبات البقاء الجماعي.

على سبيل المثال، قد يبدو ترك شخص مصاب خلف مجموعة تنشد الحياة والحماية والهروب من الخطر قراراً قاسياً بمعايير اليوم، لكن في تلك الأزمنة، كان هذا القرار قد يمثل الفرق بين بقاء المجموعة أو تعرضها للإبادة والموت. الأخلاق في تلك العصور كانت تعتمد بشكل كبير على الظروف الواقعية والحاجة إلى اتخاذ قرارات صعبة لضمان البقاء.

مع تطور البشرية وتغير الظروف المعيشية، تطورت الأخلاق أيضاً لتشمل مفاهيم أكثر تعقيداً مثل العدالة، والتعاطف، والتعاون على نطاق أوسع. مع ظهور الحضارات الزراعية وتطور المجتمعات البشرية، حدث تحول كبير في تصور الأخلاق. هذه التغيرات جاءت نتيجة للتحديات والفرص الجديدة التي

فرضها النمط الزراعي للحياة، حيث بدأت تظهر تعقيدات القرى والمدن وتشابك المصالح، والتفاوت في ثراء الموارد، وبدأ النزاع على الفائض، وترسيخ الملكية، وتنظيم العمل، والحاجة إلى تنظيم العلاقات الاجتماعية والاقتصادية بشكل أكثر تعقيداً.

لعب الدين دوراً مهماً في تشكيل الأخلاق خلال هذه الفترة. فقد قدمت الأديان المختلفة إطاراً أخلاقياً يشمل مجموعة من القيم والمبادئ التي هدفت إلى تنظيم السلوك البشري وتعزيز التعاون والتناغم داخل المجتمعات. كانت هذه الأنظمة الأخلاقية تتأثر بشكل كبير بالسياقات الثقافية والاجتماعية لكل حقبة. بالإضافة إلى ذلك، مع تطور المجتمعات، أصبحت القوانين والأنظمة القضائية تلعب دوراً مهماً في تعزيز المعايير الأخلاقية وتنفيذها. أصبحت الأخلاق أكثر تجريداً وتعميماً، وأقل ارتباطاً بالحاجة المباشرة للبقاء وأكثر ارتباطاً بالحفاظ على نظام المجتمعات البشرية المعقدة واستقرارها.

يُظهر تاريخ الأخلاق بوضوح أن القيم الأخلاقية ليست ثابتة وإنما تتطور مع الوقت وتُغيّر السياقات الاجتماعية والثقافية، وتبرز قضايا مثل: العبودية، وزواج الأخوة، كيف يمكن للمعايير الأخلاقية أن تتغير بشكل جذري عبر الزمان والمكان.

في حالة العبودية، على سبيل المثال، كانت هذه الممارسة مقبولة وحتى مثالية في العديد من الحضارات القديمة، فكانت تُعتبر جزءاً أساسياً من النظام الاقتصادي والاجتماعي. ومع ذلك، مع تطور المفاهيم الأخلاقية والحقوقية، بدأ المجتمع ينظر إلى العبودية على أنها غير أخلاقية وغير إنسانية، ما أدى

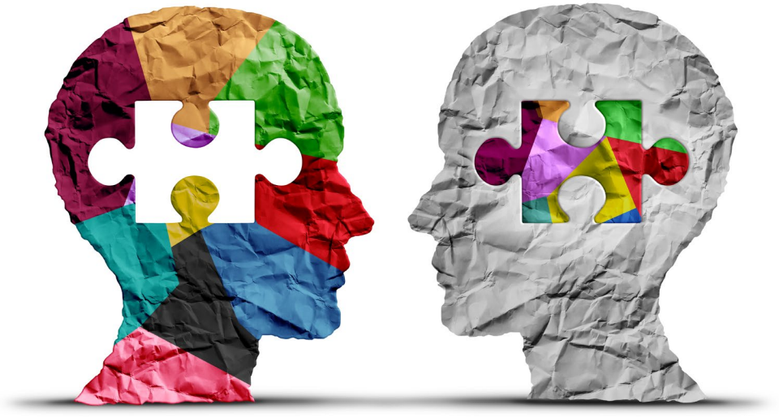

إلى إلغائها في معظم أنحاء العالم.

بالمثل، زواج الأخوة، الذي كان مقبولاً وحتى مقدساً في بعض الثقافات القديمة، أصبح اليوم غير مقبول في معظم المجتمعات بسبب التغيرات في التفهم الأخلاقي والمعرفة البيولوجية.

تُظهر هذه التغيرات أن الأخلاق ليست مجرد مجموعة ثابتة من القواعد، بل هي عملية ديناميكية تتأثر بالتغيرات في الوعي الإنساني، والاحتياجات المجتمعية، والتطورات الثقافية، والمعرفة العلمية، ويمكن اعتبار الأخلاق نظاماً حياً يتطور مع تطور البشرية.

الأخلاق هي نتاج ثقافتنا وظروفنا الزمنية والمكانية. إنها تعبر عن التفاعل المستمر بين قيمنا، وتجاربنا، وتطور معرفتنا. ما يعتبر اليوم غير أخلاقي قد يُنظر إليه بطريقة مختلفة في المستقبل، وهذا يعكس ليس التغير في المعايير الاجتماعية فقط، ولكن التقدم في فهمنا للعالم ولأنفسنا أيضاً. الأخلاق تنمو وتتطور معنا، وتعكس جهودنا المستمرة لتحقيق التوازن بين حقوق الأفراد ورفاهيتهم واحتياجات المجتمع.

من الإشكاليات المهمة التي تواجه المجتمعات المعاصرة العلاقة بين الحرية الفردية والقواعد الأخلاقية السائدة في المجتمع. والتساؤل الذي طالما أرّق المفكرين هو حول الإرادة الحرة للإنسان. حين تمتلك الإرادة الحرة كامل طاقتها، فهي قادرة على خلق المعايير والقيم الأخلاقية التي تحكم علاقتها بالإرادات الأخرى. هناك مفهوم خاطئ أن الإنسان يمتلك إرادة حرة مطلقة، ولكن مهما كانت درجة الوعي التي يصل إليها الإنسان، فإرادته الحرة خاضعة لمعايير ذاتية تنبع من اللاوعي الذي يتغذى وينمو في مراحل وعيه المختلفة، مختزناً تأثير العالم الخارجي بما فيه من مفاهيم وقيمٍ وسلوكيات سائدة. لذلك، ستجد ثمة مشتركات بين الإرادة الحرة للفرد والعالم الخارجي، ولا يمكن للفرد صناعة قيمه بمعزل عن بيئته ونشأته. في الختام، نستطيع أن نقول إن الأخلاق ليست قيماً ثابتة، بل هي نتاج ثقافتنا وظروفنا، وهي مرنة وقابلة للتطور والتغير. هي رحلة إنسانية مستمرة نحو فهم أعمق لذواتنا وللعالم من حولنا، وتظهر كيف نتفاعل مع التحديات والفرص التي تطرحها حياتنا المتغيرة والمتطورة ■

إله اللا شعور: الإنسان والبحث عن المعنى النهائي

فيبي صبري

بعد أن قضى ثلاث سنوات في معسكرات الاعتقال النازية وجد فيكتور فرانكل - الطبيب النمساوي اليهودي - نفسه مؤهلاً لوصف طريق النجاة بأنها من أقسى التجارب وأصعبها، بل أصبحت مساعدة الآخرين للعثور على «المعنى» في أعمق الظلمات هي أساس نظريته الجديدة في العلاج النفسي، أو ما أُطلق عليه: «مدرسة فيينا الثالثة للطب النفسي.. العلاج بالمعنى».

بدايةً يعلن فرانكل اتفاقه مع أرتور شنيتسلر، شاعر فيينا، على الفضائل الثلاث الأساسية التي اعتمدها الأخير: الشجاعة والموضوعية والشعور بالمسؤولية، ومن ثمَّ يخصص لكلٍ منها إحدى مدارس العلاج النفسي التي نشأت في النمسا. مثلاً، فضيلة الشجاعة تناسب سيكولوجيا أدلر القائمة على تشجيع المريض للتغلب على مشاعر النقص التي يشعر بها، أما فضيلة الموضوعية التي يراها مناسبة لفرويد فقد مكّنته من «النظر في عيني أبي الهول - نفس الإنسان - وحل لغزه في مواجهة خطر اكتشافٍ أبشع». لكن الموضوعية المفرطة حوّلت الإنسان إلى آلة بشرية، والمعالج هو التقني الذي يستطيع إصلاح العطب بها، واختزلت الظواهر النفسية إلى دوافع وغرائز، فأضفت على الوجود الإنساني طابع الكبت؛ إذ صار «مدفوعاً» بصورة جبرية من قبل قوى فسيولوجية ونفسية تشكّل مصيره.

هنا يأتي دور «التحليل الوجودي» الذي اضطلع به فرانكل؛ إذ يركز على استقلالية الوجود الروحاني، دون دلالةٍ دينية، وهو يقصد بالروحاني ما هو إنساني، لذلك تنطبق فضيلة المسؤولية على مدرسة التحليل الوجودي.

«حين قدمنا مصطلح التحليل الوجودي في عام 1938، قدمت الفلسفة المعاصرة كلمة «وجود» للإشارة إلى هذا النمط المحدد الذي يتميز أساساً بالمسؤولية»(1).

التحليل الوجودي للضمير

تعتبر ظاهرة الضمير نموذجاً للا شعور الروحاني، فهو غير عقلاني وغير منطقي، أو ما يمكن تسميته: «فهم قبل أخلاقي للمعنى»، فالضمير يستهدف ما يجب أن يكون وليس ما هو كائن بالفعل، فهو حدس في المقام الأول؛ يهتم بالاحتمالات بدل الوقائع، كالحب تماماً، ومثل الحب هو فردي وشخصي أيضاً.

«ومع ذلك، لا يتجذر الحب والضمير الأخلاقي وحدهما في الأعماق العاطفية والحدسية وغير العقلانية للا شعور الروحاني، ولكن ما يمكن تسميته الضمير الفني أيضاً، وهكذا يكون للأخلاق والجماليات كذلك أساس وقاعدة داخل اللا شعور»(2).

وكما يظهر الضمير كنموذج لكيفية عمل اللا شعور الروحاني، نجد نموذجاً آخر في الأحلام بوصفها إبداعات حقيقية للا شعور، لا تُظهِر العنصر الغريزي الذي تعقَّبه فرويد في تفسيره للأحلام فقط. بل يوضح حالات أخرى باسطاً أمثلة متعاقبة لأحلام مرضاه، فهاهو فرانكل يجد بواعث الدين في اللا شعور جليةً في رموز مباشرة لأي محلل موضوعي، ولا يفوته التنويه عن خجل بعضهم من تدينهم خشية تحوله إلى موضع مراقبة من الآخرين، ما يجعله أقرب للعلاقة الحميمة التي يفضل صاحبها الاحتفاظ بها لنفسه.

«إن احتمال كبت التدين لا يصبح مدهشاً حين ندرك الصفة الحميمة المتأصلة في التدين الحقيقي. كما أن العثور أحياناً على زخارف دينية فاضحة في أحلام أشخاص غير متدينين ليس مستغرباً، لأننا رأينا أنه لا يوجد ليبيدو مكبوت ولا شعوري فقط، ولكن يوجد تدين مكبوت ولا شعوري أيضاً»(3).

تسامي الضمير

في علاقة الكائن البشري مع «التسامي» قد يسمي الإنسان هذه المرجعية اللا شعورية «إله اللا شعور»، ويمكن تفسير ذلك التعبير بثلاث طرق رئيسية. في الأولى يمكن أن يُساء فهمه على أنه وحدة الوجود؛ الرب داخلنا ويسكن لا شعورنا. والتفسير الخاطئ الآخر هو أن ننسب صفات إلهية كلية المعرفة إلى اللا شعور فيما يشبه القدرات التنجيمية الميتافيزيقية. أما التفسير الثالث فهو اعتبار إله اللا شعور قوة غير شخصية فاعلة في الإنسان، بحيث لا يعود التدين اللا شعوري مسألة اختيار وقرار، بل عملية ترتبط باللا شعور الجمعي البدائي كما قرر يونج. لا يجد الملحدون غضاضة في الاعتراف بذلك «التسامي» دون تسميته رباً بالضرورة، وهو ما يمكن أن نعيد إليه أصل الضمير بوصفه بُعداً عابراً للبشر.

يخلص فرانكل إلى أن الدين وجودي في المقام الأول؛ يُلزم الإنسان نفسه به باختيارٍ حر، لا تدفعه إليه غريزةٌ ولا طبيب نفسي، بل يجب أن يكون عفوياً بالكامل، ويجب ألا يُدمج عمداً بالعلاج النفسي بأي حال.

العلاج بالمعنى

في سياق آخر أبحاثه عن العلاج بالمعنى انتقد فرانكل نظريات الحافز السائدة؛ فالإنسان لا يتحرك أساساً لتخفيف التوتر الداخلي بإشباع احتياجاته وإرضاء غرائزه، لكنه بالأحرى يهتم بشيء أو شخص في العالم غير نفسه، أو ما يُسمى «التسامي الذاتي».

«لذا يتميز الإنسان في الأصل ببحثه عن المعنى وليس ببحثه عن نفسه. كلما نسي المرء نفسه من أجل قضية أو شخص آخر كان أكثر إنسانية. وكلما انغمس الشخص في شيء أو شخص آخر غير نفسه، أصبح نفسه حقاً.. تأمل العين؛ إنها متسامية ذاتياً بطريقةٍ ما، في اللحظة التي تدرك فيها شيئاً ما عن نفسها تتدهور وظيفتها.. لا ترى العين عادةً أي شيء عن نفسها إلا في حالات المرض»(4).

الفراغ الوجودي

يدل الافتقار إلى المعنى على سوء التوافق العاطفي، ولأن فرويد وأدلر اضطرا إلى التعامل مع مرضى عصابيين - إرادة المعنى محبطة لديهم - يكون من المفهوم أنهما اعتقدا أن الإنسان مدفوعٌ بمبدأ المتعة والسعي إلى التفوق على التوالي، بينما اللذة هي الأثر الجانبي للعيش نتيجة للتسامي الذاتي للوجود. كلما جعل المرء السعادة هدفاً أخطأ الهدف وأصابه الإحباط، فيما يمكن تسميته «النية المفرطة». أما العيش من أجل قضية أو شخص فتنتج عنه السعادة تلقائياً.

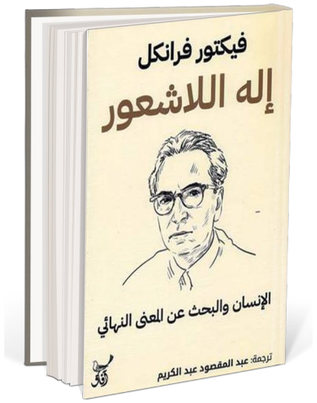

يتزايد الفراغ الوجودي في العصر الحديث، فلم تعد التقاليد والقيم تخبر الإنسان بما يجب أن يفعل، وقد يتسبب ذلك في الانحدار إلى «الامتثال»، أي فعل ما يفعله الآخرون، أو «الشمولية»، وهي فعل ما يريد منه الآخرون أن يفعل. وأخيراً قد يتسبب هذا الفراغ الوجودي في عصاب ذهني المنشأ. فالضحية تصبح سهلة لذلك الفراغ إن خضعت لتلقين عقائدي اختزالي؛ كأن يخبرها أحدهم أن الحياة ليست سوى عملية احتراق/أكسدة، القيم ليست إلا تشكيلات رد فعل وآليات دفاع، والإنسان ليس سوى آلة كيميائية حيوية معقدة. لا تشكل تلك الافتراضات حافزاً عظيماً للحياة، أليس كذلك؟ ليس مفاجئاً إذن أن ينتشر في عالمنا اليوم الثالوث العصابي الجماعي: الاكتئاب، والإدمان، والعدوانية.

إن القول بضرورة إيجاد معنى يستدعي إيضاح أن المعنى شيء يجب اكتشافه وليس منحه أو اختراعه، مثلما أوضح علماء نفس الجشطالت أن «إرادة المعنى» خاصية فطرية من خصائص العقل، بينما يؤكد فرانكل أن الإنسان لا يسعى إلى إدراك بيئته فقط باعتبارها كلاً له معنى، لكنه يسعى إلى إيجاد تفسير يكشف أنه فرد له هدف يحققه، يقوده الضمير ويوجهه في ذلك المبحث، أو كما قال إجمالاً:

«العلاج بالمعنى، إذا جاز التعبير، ثلاثي البؤرة، ويركز على ثلاث حقائق أساسية للوجود الإنساني: هناك إرادة المعنى، وهناك معنى في المعاناة، وهناك حرية الإرادة، وبالنسبة إلى البؤرة الأخيرة، حرية الإنسان في الاختيار لا تتعلق بحرية اختيار طريقة عيش المرء فقط، بل حتى طريقة الموت» ■

كاتبة وروائية مصرية

الهوامش والمراجع:

1 - إله اللا شعور: الإنسان والبحث عن المعنى النهائي، تأليف: فيكتور إيميل فرانكل، ترجمة: عبد المقصود عبد الكريم. القاهرة، دار آفاق للنشر والتوزيع. ص 17.
- المرجع السابق نفسه، ص 31.
- المرجع السابق نفسه، ص 42.
- المرجع السابق نفسه، ص 70.

الموسيقى ومرض الزهايمر

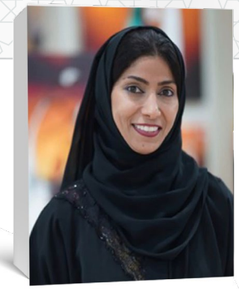

نورة صابر المزروعي
أكاديمية من الإمارات

يظهر مرض الزهايمر نتيجة خلل في خلايا الدماغ العصبية، يؤدي إلى تكوين بروتينات شاذة تعمل على تمويت تدريجي للخلايا الدماغية العصبية. ويبدأ بشكل خفي ثم يتطور نحو التدهور للخلايا الدماغية بشكل تصاعدي التي تظهر في عمر متأخر في مرحلة الشيخوخة. يصيب هذا المرض الذاكرة ويؤدي إلى فقدانها، مع اختفاء تدريجي للمنظومة الفكرية، كاتخاذ القرارات والإدراك والمعارف. والسبب الرئيسي لحدوث هذا المرض غير معروف لدى الأطباء. ولكن يرجح انخفاض مستوى التحصيل العلمي والمعرفة الثقافية وإهمال تغذية العقل فكرياً في فترة النضج. وعند الإصابة بالزهايمر، يفقد المريض القدرة على اكتساب معلومات جديدة، وتغلب عليه ظاهرة النسيان فلا يستطيع المريض التمييز بين الأشخاص والأحداث والأزمنة، ويصبح عديم القدرة على القيام بالأعباء اليومية من مأكل وملبس ومشرب. فهو بحاجة إلى عناية من قِبل أقرانه[1].

ودان كوهين (Dan Cohen) - اختصاصي أمريكي متقاعد - يؤمن بالأثر النفسي الذي تتركه الموسيقى على الذاكرة، لذا قام بإنشاء منظمة (غير ربحية) تعرف باسم (الموسيقى والذاكرة) بغرض مساعدة المسنين المصابين بمرض (الزهايمر) لاستراجاع ذاكرتهم، من خلال الاستماع إلى الموسيقى وتوظيف أعمال موسيقية مختارة لتحفيز الدماغ على التفاعل مع هذه المقطوعات الموسيقية. وقد أظهرت تقارير الأطباء قدرة المصابين بالزهايمر على تذكر بعض المقاطع الغنائية والأحداث المصاحبة لها، مع أن بعضهم لا يستطيع تذكر أقاربه أو حتى اسمه، لكنهم يتذكرون الأحداث المتعلقة بالمقطوعات الموسيقية، كالأغاني المرتبطة بأفراحهم كحفلات الزفاف، وأغاني انتصارات الوطن وأغاني التخرج الجامعي، والأغاني التي حفظوها عند الصغر[2].

وتؤكد الدراسات أن الذاكرة الموسيقية في الدماغ تعمل على تخزين الأصوات المنغمة في المقطوعات الغنائية وتحتفظ الذاكرة باللّحن الكامل دون الكلمات. فتبدأ أجساد المصابين بالتمايل عند سماع اللحن الموسيقي لتذكرهم بأحداث خُزنت في الذاكرة منذ فترة بعيدة.

قدّم الباحثون في جامعة «يوتا هيلث» في الولايات المتحدة الأمريكية دراسة عن «تأثير الموسيقى في الذاكرة الموسيقية»، حيث أجريت تجربة على عينة من مرضى الزهايمر، بتشغيل المقطوعات الموسيقية المفضلة لديهم تزامناً مع التقاط أشعة لأدمغتهم بالرنين المغناطيسي. وعقد الباحثون مقارنة بين صور الدماغ قبل الاستماع إلى الموسيقى وبعده. وأثبتت هذه التجربة بأن مناطق الدماغ الرئيسية المرتبطة بالذاكرة الموسيقية لا تتضرَّر نسبيّاً من مرض الزهايمر. فبعد سماع المقطوعات الموسيقية المرتبطة بالذكريات القديمة، يبدأ الكثير من المصابين بالزهايمر بالتحدث والتفاعل مع أقاربهم. وتؤكد هذه التجربة بأن الموسيقى تساعد على استرجاع بعض الذكريات القديمة، كما أظهرت التجربة أنه بالفعل تم الاتصال والتفاعل بين المصابين بالزهايمر وأقاربهم، وأكدت هذه التجربة أيضاً أن الموسيقى (المرتبطة بحادثة أو ذكرى أو زمن ما) تعيد الشعور بالإحساس، وتجعل المريض يتفاعل مع أقرانه (ولو بشكل مؤقت)، بينما لا تنجح الأدوية والمقربون في إحياء ذاكرة المصابين بالزهايمر[3].

قدّم أوليفر ساكس، طبيب أعصاب بريطاني، دراسة مفصلة في كتابه بعنوان «نزعة إلى الموسيقى»، الذي اعتمد فيها على قصص واقعية متمثلة في تأثير الموسيقى على نفسية المصابين وعقولهم وأجرى لقاءات أظهرت المكانة التي تحتلها الموسيقى في الدماغ وتأثيرها في نفسية المصابين، وركز في بحثه على تأثير قوة الموسيقى في الفرد من خلال التجارب الفردية للمرضى، سواء كانوا مرضى عاديين أو موهوبين (عازفين وموسيقيين)، ليوضح في تجاربه كيف يمكن للموسيقى أن تحدث رد فعل وتقاوم الأمراض. ويذكر أن الأغاني التي تدور في عقولنا ولا نبالي بها تمثل فارقاً لدى المصابين بمرض الزهايمر، وأنّها تمثل قوة فريدة لتعيدهم إلى أنفسهم وإلى الآخرين ولو فترات قصيرة[4]. ويرى الطبيب أوليفر أن العلاج بالموسيقى مع مرضى الزهايمر يعد ممكناً لأن الإدراك الموسيقي، والذاكرة الموسيقية، والمشاعر اتجاه الموسيقى يمكن أن تبقى لفترة طويلة جداً في الذاكرة، وذكر أمثلة كثيرة في كتابه من بينها، أصيبت امرأة عازفة على البيانو بشلل جزئي نتيجة خلل في الجهاز العصبي علاوة على إصابتها بالخرف الذي قادها إلى ظاهرة النسيان، ويدوّن أوليفر ساكس في كتابه عما قاله زوجها عنها بعد الإصابة بالزهايمر «هي تعزف على البيانو لساعات عدة يومياً، على نحو جيد جداً.. وتحفظ عن ظهر قلب كونيرتو البيانو لشومان[5]»، ويذكر زوجها أن إصابتها بمرض الزهايمر لم يؤثر في الذاكرة الموسيقية.

وأكد الباحثون من خلالِ أبحاثهم وجود قُدرة استثنائية للموسيقى على عدد كبير من مرضى الزهايمر. وأظهرت العديد من الأبحاث أن دراسة الموسيقى خلال مرحلة الشباب تنحت

وتطوّر حركة الدِّماغ. فعلى سبيلِ المثال، إذا تعلمنا قطعة موسيقية على آلة ما خلال فترة الطفولة، ثمّ عُدنا إليها بعد أربعين عاماً، حتى لو لم نتذكّر قراءَة تدوينها الموسيقي، فإن الأيدي سوف تتذكّر الإجراءات التي اعتادت تطبيقها من قبل. وتؤكد الدراسات بأنَّ تعلُّم الموسيقى يقوي منطقة عميقة من الدماغ تسمى «الحصين»، وهي كناية عن «قِمع صغير» لحفظِ الذكريات عند مرضى الزهايمر، بشكل عام دراسة الموسيقى تطوِّر هذا الحصين، وقد ثبت التصوير بالرنين المغناطيسي، أن الحصين عند الموسيقيين يكون حجمه أكبر[6]. وهناك دراسة صادرة عن جامعة كاليفورنيا تؤكد أن العزف على الآلات الموسيقية في الصغر يقاوم مرض الزهايمر عند الكبر. إن فئة كبار السن الذين اعتادوا العزف على آلة موسيقية في شبابهم، في مرحلة الشيخوخة لديهم قدرة عالية على الاتصال والتركيز والمتابعة، ويستطيعون التفاعل مع أقرانهم بشكل أفضل مقارنة بأقرانهم الذين لا يعزفون المهددين بالإصابة بمرض الزهايمر[7]. ■

الهوامش والمراجع:

1. سمير أبو حامد، مرض الزهايمر النسيان من نعمة إلى نقمة، خطوات للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، سوريا، دمشق، 2009 ، ص 11 - 17.
2. محمد صفي، أثر اللحن الموسيقي والإيقاع في الذاكرة اللغوية مقاربة متعددة التخصصات، الذاكرة والبناء الثقافي، المؤتمر الدولي السنوي، مقاربات للنشر والصناعة الثقافية، المملكة المغربية، فاس، 2019، ص 338 - 340.
3. عبد الفتاح نجلة، العلاج النفسي بالموسيقى، الناشر عالم الكتب، الطبعة الأولى، القاهرة، 2006، ص 33.
4. أوليفر ساكس، نزعة إلى الموسيقى، الدار العربية للعلوم ناشرون، لبنان، بيروت، الطبعة الأولى، 2010، ص 432.
5. أوليفر ساكس، نزعة إلى الموسيقى، الدار العربية للعلوم ناشرون، لبنان، بيروت، الطبعة الأولى، 2010، ص 420.
6. العلاج الموسيقي، مجلة الموسيقى العربية، المجمع العربي للموسيقى، الأردن، عمان، 1 إبريل 2019 .https://www.arabmusicmagazine.com/item/712-2020-10-13-14-06-07
7. نورة صابر المزروعي، الموسيقى والزهايمر.. أي تأثير، جريدة الاتحاد، الإمارات، أبوظبي، 3 مارس 2021.

تعلم الموسيقى العربيّة باللغة العربية

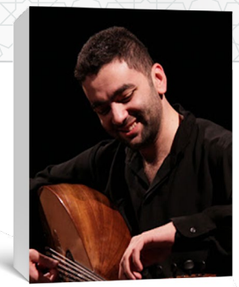

مصطفى سعيد
عازف وباحث في علم النغم

منذ مصنّفات الفلاسفة اليونان، سُطِّرت صفحاتٌ طِوالٌ عن مقاربة الموسيقى بصفتها علماً رياضياً، والغناء بصفته ظاهرةً لُغوية. فالموسيقي «بكسر القاف والياء المنقوطة المُعجَمة في آخرها» علمٌ يختص بقياس نسب الأبعاد النغمية، واهتزاز الموجات الصوتية، والتآلفات على أطوال الأوتار، والأزمنة المتخلّلة من المدّ إلى الرنين حتى الصمت. فهو علمٌ طبيعيٌّ بحتٌ، يفيد النغم، ويفيد هندسة البناء، والطب، والمواقيت، والنجوم والأبراج، ومنازل القمر، وما يترتّب عليها من فائدة في النقل البرّي والبحري/ في الأزمنة القديمة، والجوّي في زماننا/ وغير ذلك علوم كثيرة تنفع في السلم والحرب.

أما «الألحان» المستعملة في التلاوة والغناء، فهو أظهر ما يصنع الناس بهذه الاهتزازات الموجية، والأزمنة المتخلّلة بينها. وليس القصد بـ «غناء» ما نعرف اليوم، بل كلّ منتجٍ نغميٍّ مصحوب بكلام، أو دونه كالترنّم بالصوت أو أيّ آلة من آلات الطرب.

نقل العرب عن اليونان العلم الأوّل، وأكملوا من حيث انتهى الأوّلون. أما العلم الثاني، فلم يجد العرب عند اليونان ما يلائم مزاجهم إلّا أقل القليل، فنقلوا عنهم نظرياتهم عن الألحان الثمانية، وعن الأوزان، لكنهم أدركوا استحالة تطبيق أغلب هذه النظريات على المزاج العربي/ لساناً وبيئة.

باستفاضة موجزة: طوّر علماء الحضارة الإسلاميّة/ في علم الموسيقى/ قياسات النسب التأليفية والتردّدات الموجية وحساب الزمن وسائر ما يتعلّق بهذا العلم من الرياضيات. طوّروا هذا بما اكتشفوا بعد استيعابهم ما بدأ الإغريق، فأثروه وكمّلوه باكتشافاتهم وما وصلوا إليه في سائر هذه الفروع.

أمّا ما يتعلّق من هذا العلم بالألحان، نغماً ووزناً: فبعد استيعابهم ما وصلت إليه الحضارات السابقة عليهم، وجدوا أن أغلب هذه الأنظمة، كما سبق الذكر أعلاه، لا تُستَوعب في اللسان العربي. فمن روايات الإخباريين، كما ورد في «كتاب الأغاني» مثلاً: حكاية عن اجتماع أهل النغم في منزل سكينة بنت الحسين في المدينة المنورة، لابتكار مصطلحٍ واحدٍ «نظرية نغمية» يحكي به أهل النغم في طرق الأصوات «أي المقامات». ثم ابتكر الخليل بن أحمد الفراهيدي علم العروض في القرن الثاني الهجري. أفاد ضبط مصطلحات طرق الأنغام كل ما يُحتاج إليه فيه، من تلاوة القرآن، مروراً بحلقات الذكر، وصولاً إلى سائر أشكال الغناء الفصيح والعامي. وأفاد علم العروض/ رغم أصل كونه للشعر، والذي ابتكره الخليل وكان عالماً بال «مُوسِيقى»/ في ضبط الأزمنة، وقسمة الكلام على النغم، وما تطوّر عنه من دورات إيقاع بسيطة ومركّبة، فأفاد هذا في كلّ عمل جماعي من حلقات الذكر مروراً بالغناء/ فصيحاً وعامياً/ وصولاً إلى ضبط حركة الجند في الجيوش.

ازدهر النغم عملاً وازدهرت الموسيقى علماً، استوعبت الحضارة الإسلامية ثقافات عدة، فاختلطت المصطلحات من الألسن التي اتخذت النظام المقامي عملاً لها، مثل: الفارسية والتركية. حين تراجعت مكانة الحضارة الإسلامية بين الأمم، تطبيقاً لمنهج ابن خلدون، كان النغم أول ما تراجع، فهو أول ما ينحدر بانحدار العمران «أي الحضارة». وتراجع النظر في علم الموسيقى مع تراجع دراسة سائر العلوم عند الأمة، ناهيك عن تطويرها.

اليوم، مع هذه الصحوة الحضارية، التي نرجوها لأمتنا، وتبدو لنا بوادرها، عاد النغم للازدهار، فهو آخر ما يزدهر من العمران مرّ نغمنا منذ قرن ونصف القرن بمراحل عديدة، فمن ازدهاره، خصوصاً في البلاط الخديوي بحاضرة برّ مصر، في القرن الثالث عشر الهجري إلى التاسع عشر الميلادي، إلى صدمة حضارية سبّبتها إدراكنا للفجوة التقنية والفكرية، خصوصاً بعد وقوع أغلب المنطقة العربية تحت سيطرة الاستعمار الغربي. وكما هو معلوم يحاول المهزوم (نحن العرب) امتصاص الهزيمة بتقليد الغالب، فأُخِذ علم الغالب وتقنياته الحديثة نقلاً لا عقلاً. فأصبحت الأمة مستخدمة للعلم والتقنية، وقلّما أنتجت فيهما. في النغم: أصبح التطوّر مرادفاً للاستيراد، حتى اختفى نغمنا الفصيح أو كاد عن التعلم، وهو حديث ذو شجون، فالنغم ظاهرة لسانية، وإنما لم يُستوعب هذا الطرح في أغلب المؤسّسات التعليمية. فرغم اهتمام بعض هذه المؤسسات، بتدريس العربية، لساناً وأدباً، فإن النغم تُرِك فريسة، كأنما هو كبش الفداء لتراجع مكانة اللغة العربية. وأصبح تعليمه بما سمّوه نظاماً عالمياً. وإنما هو النظام السلّمي المستعمل في النغم الأوروبي الفصيح «الكلاسيكي» وما تفرّع عنه من فنون عامية واستهلاكية في ديارهم. والنتيجة، غناء ظاهره وطني، كلماته حماسية، ونغمها بنفس نظام من استعمر أغلب هذه المنطقة وآلاتها.

بل، وفي منتصف القرن العشرين، نمت بعض الأغاني الرافضة للاستعمار، وإنما تغنّى بنغمه الغريب، كأنها رسالة من السماء أن الآفة الكبرى في استعمار الفكر.

نحاول في هذا الطرح، إحياء تعلّم هذا النغم بلسانه «اللغة العربيّة»، ليس بتعريب المصطلحات الإفرنگية، كما فعلت بعض المؤسسات التعليمية في بلادنا، إنما بالعودة لهذا الإرث العلمي عند علماء الأمة، واستيعابه، ثمّ تعليمه، فينشأ من يريد تعلّم النغم، تماماً كما ينشأ العالِم باللسان العربي الفصيح.

فللنغم العربي الفصيح قواعد وأساليب، تماماً كالكائن في اللسان العربي. تفرّعت عنه لهجات عامية عديدة، لكن بقي اللسان الفصيح موجوداً في الوعي الجمعي. نعني ما نعني فيه من ضعف عند أغلب الأمة، لكن ثم من يبعثه دوماً ويحافظ عليه. أما لسان النغم العربي، فأغلب انتباه من انتبه إليه، كان تأسّفاً على زمن ما يحن إليه، أو قلّة الغناء بالفصيح. فكثر الغناء بنصٍّ شعريٍّ فصيح على نغمٍ غير فصيح. ليس هذا عن عدم وجود رغبة عند أهل النغم في إحياء ثقافتهم وتطويرها، بل بسبب اختلاط فهم للهوية النغمية، كأنما هي حنينٌ للماضي. للنغم الفصيح في ديارنا قوانين وقواعد تختلف تماماً عما يُدرَّس في مؤسسات تعليم النغم في ديارنا. وللأبعاد بين النغمات منطق آخر، لا يمكن توحيد قياسها لأنصاف وأرباع. فهي كقواعد التلاوة من حيث اللفظ، تفخيماً وترقيقاً، تنجذب النغمات لبعضها بعضاً حسب مكانك من اللحن. وللقياس نموذجاً، إنما ليس سكة حديد لا يسار خارجها، تماماً كما لقواعد اللفظ أحوال تشذ عن قاعدتها. أليس هذا المعمول به في قواعد القراءة والإلقاء والتلاوة والتجويد؟

لقياس الزمن ودورات الإيقاع قوانين غير المعمول بها في البناء اللحني الرأسي. فالقياس في نغمنا يعتمد على وزنين، وزن الدورة الإيقاعية، في حال كان اللحن منظوماً على دورة إيقاعية، ووزن آخر، يخصّ تفعيلة اللفظ، قسمة الكلام على اللحن. فقد يؤوّل اللحن الواحد، الذي يبدو بسيطاً، إلى المئين من التأويل والتفصيل، إذا اختلفت مفاعيل الكلام المُراد عليه. ويُطبَّق هذا قياساً على اللحن الآلي الذي لا غناء فيه.

أما إذا كان اللحن منثوراً «أي مُرسلاً دون دورة إيقاع»، فلا يعني هذا خلوّه من الوزن، بل خلوّه من انتظام الضرب، فالوزن موجود والإيقاع كائن، إنما تتجلى فيه مفاعيل الكلام فتصبح هي الإيقاع.

هذه قوانين وقواعد، الرأي أنّ أي دارس للنغم عليه معرفتها، حتى إذا أراد بعد هذه المعرفة، مخالفة هذه القواعد في أي مراس نغمي عامّي أو شائع يريد العمل به. تماماً كأي شاعر ينظم الشعر العامي بأي لغة دارجة، وإنما تجري أوزان الشعر في دمه قبل أن يتلقاها دراسة. هذان مدخلان إلى فكرة إعادة تدريس ودراسة النغم العربي باللغة العربيّة، أما القواعد فإنها أكثر تفصيلاً من هذا. وأما النتيجة، فوعي بالإرث الحضاري لأمتنا، حتى إذا أُريد غناء القديم، أُنشِد بروحه. وإذا أُنتج منه الجديد، كان جديداً معاصراً يحكي طموحات هذه الأمة، وينمو مع سائر نواحي العمران التي نأمل جميعاً ازدهارها.

عملٌ نرجوه يوماً ما (قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيباً) في أن تتبنّاه مؤسسة مستنيرة تضمن له البقاء، فهو بالمثابرة، مضمون النجاح والازدهار■

وَصَايَا الْعَرَبِ وَحِكَمُهُم

جُمَلٌ قَصِيرَةٌ وَمَعَانٍ ثَمِينَةٌ

محمد محمد عيسى

امتازت الأُمةُ العربية بأَنها أُمةٌ ذات تُراثٍ قَوْلِيٍّ عظيمٍ، وأن التركةَ الحقيقيةَ هي ما تَرَكَهُ العلماءُ والحكماءُ والشعراءُ وما خلَّفتْه التجاربُ وثبتَ نفعُه، وقد تَرَكَ العربُ تُراثاً مِنَ الكلماتِ أَقْوَى مِنَ المالِ والسلاحِ والعتاد، تركوا ميراثاً يُستَغَل في كلِّ المواقفِ، مَتى أُحْسِنَ اسْتِخْدَامُه؛ أَتتْ ثِمَارُهُ يانعةً، وقد جَرَت الكلمةُ العربيةُ العاليةُ على ألسنةِ العربِ القُدَامَى، أَرْسَلُوها نثراً وشعراً؛ فَجَاءَتْ في وَصَايَاهُم وحِكَمِهِم وَأَمْثَالِهِم. وَأَتَى حَكِيمُ العربِ بِمَا لَمْ يَأْتِ به نُظَرَاؤه مِن الأُمَمِ السَّابقةِ واللاحقة، سبق بِأقاوِيلِه الموجزةِ مُتُونَ أَسَاطِين التنْمِية البشرية في العالَمِ، وَسَعَى إلى تَعْلِيمِهَا، كَمَا سَعَى إليه أبناءُ العربيةِ مِنْ قَلِيلي الخبرةِ يَطلُبون الوصيةَ.

كَثُرتْ وَصايَا العربِ، وَعَلَى الرَّغْم مِن كثرتِهَا؛ فإن مِنْها مَا بَدَا أَكْثَرَ تَعْليماً وتَدْرِيباً، وتَأْدِيباً وَنُصْحاً وإرشَاداً، وَمِنْ أَهَمِّ هذه الوصايا، وصايا الآباءِ للأبْناءِ، كَما في وصيةِ ذِي الإصبع العدواني لابنه أسيد، وقد ضمن له إنْ مَنْ حفظ تلك الوصيةَ وعمل بما فيها أَنْ يستقيمَ له سُؤْدُدُه، ويبلغَ في قومِه مَبْلَغَه، وقد جاء فيها «يا بني إن أباك قد فني وهو حيٌّ، وعاش حتَّى سئم العيش، وإني مُوصيك بما إنْ حفظْتَه بَلَغْتَ في قومِك ما بلغْتُه، فاحفظ عني، أَلِنْ جَانِبَك لقومك يُحبّوك، وتواضعْ لهم يرفعُوك، وابْسُطْ لهم وَجْهَك يُطيعوك، ولا تَسْتَأْثِر عليهم بشيءٍ يسوّدوك، وأَكْرِمْ صغارَهم كما تكرم كبارهم، يُكْرِمْك كبارهم، وَيَكْبَر على مودتك صغارُهم، واسمح بمالِك، واحْمِ حَرِيمك، وَأَعْزِزْ جارَك، وَأَعِنْ مَنِ استعان بك، وأكرمْ ضيفك، وأَسرع النهضةَ في الصريخ؛ فإن لك أَجلاً لا يَعْدُوك، وَصُنْ وجهَك عَنْ مسألةِ أحد شيئاً، فبذلك يتمُّ سُؤْدُدُكَ»[1].

فَهَكَذا حَمَلَ تراثُنا العربي، جُمَلاً قصيرةً ذات معانٍ ثَمِينَةٍ، جاءت لتصنعَ إنساناً وتخلقَ مُجْتَمعاً، يبتني على لينِ الجانبِ، والتواضعِ، وبسط الوجه، وإكرام الصغار، وإغداق المال، وحماية النساء بإكرامهن وحفظ حُقُوقهن، وإعزاز الجار، وإكرام الضيف، وإجابة المُسْتَغيث والملهوف، وعدم السؤال، فَمَنْ ضمن أَنْ تَجْتَمِع فيه أو له هذه الخصالُ، ضَمنَ السِّيَادة والمكانَةَ الراقيةَ بَينَ أَهْلِه.

وتدورُ كثيرٌ من الكتب المُصَنَّفةِ حالياً في بناءِ الذات والتنمية البشرية، العربية منها والمترجمة حولَ مُحتوى كثيرٍ من تلك الحِكَمِ والوصايا؛ ذلك أن النظرةَ العربية القديمةَ قد سبقتْ مُعْظَمَ المبادئِ والرُّؤى العالمية في بناء الذاتِ مُنذ أكثرَ مِنْ خمسة عشر قرناً، وإذا كُنَّا نَرَى أن دولَ العالمِ تَتَّجِه الآن جميعُها في تسابقٍ نحو التنميةِ البشريةِ؛ فإن ذلك الأمرَ لَمْ يَكُنْ جديداً علينا نحنَ العرب؛ ذلك أن العربَ كانوا يطلبون الوصيةَ بأنفسِهم مِنَ حُكَمَائِهِمْ رَغْبةً منهم في تدريبِ الذاتِ على الاعتدالِ وحفظِ النَّفْسِ مِنَ التَّخَبُّطِ والشَّطَطِ.

ومِنْ أمثلةِ ذلك مَا جَاءَ أَن النعْمَانَ بن حُمَيْضة الْبَارِقي كَتَبَ إِلَى أَكْثَم بن صَيْفِي أَنْ مَثِّل لنا مِثَالاً نَأْخُذ بِهِ فَقَالَ أكثم، واسْتَرْسَلَ في القول، ومنه: «رُبَّ سامعٍ بِخَبَرِي لم يسمعْ بِعُذْرِي، كُلُّ زَمَانٍ لِمَنْ فِيهِ، ... تَبارُوا فَإِن الْبرَ يَنْمَي عَلَيْهِ الْعدَد، كفُّوا أَلْسِنَتَكُم فَإِن مَقْتَلَ الرَّجُل بَين فَكَّيْهِ، إِن قَول الْحق لم يَدَعْ لي صديقاً... سَتُسَاق إِلى مَا أنتَ لَاقٍ، فِي طلبِ الْمَعَالِي يكونُ الْعِزُّ، الاقتصادُ في السعي أَبْقى للجَمام... مَن قنِعَ بِمَا هُوَ فِيهِ قَرَّتْ عينه، أَصبحْ عِنْد رَأْسِ الْأَمرِ خيرٌ مِن أَنْ تُصْبحَ عِنْد ذَنَبه... الوحشةُ ذَهَاب الْأَغْلَام، البَطَرُ عِنْد الرَّخَاء حُمق، لَا تغضبُوا عِنْد الْيَسِير... فَرُبَّمَا جَنَى الْكثير، لَا تَضْحَكُوا مِمَّا لَا يُضْحك مِنْهُ، حِيلَة من لَا حِيلَة لَهُ الصَّبْر، كونُوا جَمِيعاً فَإِن الْجمعَ غَالب... رُبَّ عجلةٍ تهب ريثاً... المِكْثَارُ كحاطب اللَّيْل، من أَكثر أسقط، لَا تفَرَّقُوا فِي الْقَبَائِل فَإِن الْغَرِيبَ بِكُلِّ مَكَانٍ مَظْلُوم، عاقِدوا الثروةَ وَإِيَّاكُم والوشائظَ فَإِن الزِّلَّة مَعَ الْقلَّةِ...الرَّسُولُ مُبَلِّغٌ غيرُ مَلُوم، مَن فَسدتْ بطانَتُه كَانَ كَمَنْ غُصَّ بِالْمَاءِ، أَسَاءَ سَمْعاً فَأَسَاءَ جابةً، الدَّال على الْخَيْر كفاعله، إن المسألةَ مِن أَضْعَف المكْسَبَة... مَنْ شَدَّدَ نَفَّر وَمَنْ تراخى تَأَلَّف، السَّرْو التَّغَافُل، أَوْفَى القَوْل أَوْجَزُه، أَصْوبُ الْأُمُور تَرْكُ الفُضُول، التَّغْرِيرُ مِفْتَاح الْبُؤْس، التَّوَانِي وَالْعجزُ يُنْتِجَانِ الْهَلَكَة، لِكُلِّ شَيْءٍ ضَرَاوَة... حُبُّ الْمَدْح رَأْسُ الضَّيَاع، رِضَا النَّاسِ غَايَةٌ لَا تُبْلغ فَلَا تَكْرَه سُخْطَ مَنْ رِضَاهُ الْجَوْر»[2].

فهذه كلماتٌ لا تَتَشَبَّثُ ببقاء، تدعو إلى البرِ وتُؤمنُ بالقدرِ، تحثُّ على الجدِّ والاجتهاد، تندبُ ذهابَ الصفوةِ وأصحابَ الرأي، كما تُؤكدُ على الانتقاء وحسن الاختيار، تدركُ أهميةَ صلاحيةِ المُدْخلات والمُؤَثِّرات؛ ذلك أَن النتائج لَنْ تنزلَ منزلاً أَدْنَى وَلا أَنْأَى مِنْها، كما أَنها تُحارب التسوُّلَ، وتدعم اللين، والإيجاز في الكلام، وتُنبِّه على النسبية في كلِّ شيء، وأَن الكمال لله وحده، هكذا تكون بعض المهارات الإنسانية التي

امتازت الأُمةُ العربية بأَنها أُمةٌ ذات تُراثٍ قَوْلِيٍّ عظيمٍ، وأن التركةَ الحقيقيةَ هي ما تَرَكَهُ العلماءُ والحكماءُ والشعراءُ وما خلَّفتْه التجاربُ وثبتَ نفعُه، وقد تَرَكَ العربُ تُراثاً مِنَ الكلماتِ أَقْوَى مِنَ المالِ والسلاحِ والعتاد

يسعى خبراءُ التنمية البشرية إلى تعليمها والتدريب عليها، ثم تفعيلها في الحياة العملية.

وقد طَلَبَ الأَبْنَاءُ الْوَصِيةَ والنصِيحَةَ مِنَ الآبَاءِ، ومِنْهَا مَا رُوِي أَنه «احْتُضِر أعرابيٌّ، فقالَ لَه بنوه: عِظْنَا يَا أَبتِ. فقالَ: «(عَاشِرُوا النَّاسَ مُعَاشرةً إِنْ غِبتُم حَنُّوا إِلَيْكُم، وإِنْ متم بَكُوا عَلَيْكم»[3]، فَجَاءَ ذَلِك تَنْمِيةً لقِيمةِ التَّسَامُح، وقد دَعَا إليه عَلِيّ بن أَبِي طالب - كرَّمَ اللهُ وَجْهَهُ - فِي كثيرٍ مِنْ حِكَمِه، وَمِنْهَا قَوْلُه: (أَعْقَلُ النَّاسِ أَعْذَرُهم لِلنَّاس)[4]، (إِذَا اسْتَشَارَكَ عَدُوُّكَ فَجَرِّدْ له النَّصِيحَةَ؛ لأَنَّه بِاسْتِشَارَتِكَ قَد خَرَجَ مِنْ عَدَاوَتِك وَدَخَلَ فِي مَوَدَّتِك)[5].

وقد جاءَ كتابُ (كيفَ تَكسبُ الأَصدقاءَ وَتُؤَثِّرُ فِي النَّاس)، لمُؤلفه ديل كارنيجي[6]، في خمسة فصول، هي على التوالي: (الفنون الأساسية في معاملة الناس، ست طرق لكسب محبة الناس، اثنتا عشرة طريقة لكي تجذب الناس إلى طريقة تفكيرك، طرق للسيطرة على الناس دون إساءة أو استبداد، سبع قواعد لجعل حياتك الزوجية سعيدة)، ومن يقرأ هذا الكتاب؛ سوف يجد أن مجموعة الوصايا والحكم التي ذكرناها هنا والتي سوف نذكر بعضاً منها لاحقاً لحكماء العربية تستغرق كلَّ موضوعاتِ هذا الكتاب، بل تتفوقُ عليها في تنوُّع وتعدُّد التناول، وكذا في صياغةِ الجملة أو العبارة وقدرتها على التكثيف الذي يختزل وراءه كثيراً من الدلالات، وهنا تكمن خطورةُ الحكمة العربية التي تُؤدي المعنى الكثيرَ بأقلِّ المفرداتِ وأوجزِ الجملِ والعباراتِ، وأبلغها. ولم تجتمعْ البلاغةُ للرجالِ وحدهم، بل لدينا قائمةٌ كبيرةٌ مِنْ نساءِ العربِ المُتَفَوِّقَاتِ المُفَوَّهَاتِ الشَّوَاعِرِ مِنْهُنَّ والنَّاثِرَاتِ، وكما جاءتِ الوصيةُ على ألسنةِ الرجالِ جاءتْ على ألسنةِ النساءِ، في كثيرٍ مِن شُؤون الحياةِ، فَعَلَى سبيلِ المثالِ فطنتِ المرأةُ العربيَّةُ (أُمَامَةُ بنتُ الحَارِث) إلى الاستقرارِ والرِّضا والعفةِ وخبرتْ وسائلَ الاحتواءِ للرَّجلِ وكيفَ يُمكنُ أنْ يَضمنَ كِلَا الزوْجين الحياةَ السعيدةَ؛ فَأَوْصتْ ابْنَتَهَا يَوْمَ زُفَّتْ إلى زوجِها قائلةً: «أي بنية، إن الوصيةَ لو تُركتْ لِفَضلِ أدبٍ تُركتْ لذلك منك، ولكنها تذكرةٌ للغافلِ، ومَعُونةٌ للعاقلِ، ولو أن امرأةً اسْتَغْنتْ عن الزوجِ لِغِنَى أَبويْها وشدَّة حاجتِهما إليها كنتِ أَغْنى الناسِ عنه، ولكن النساءَ للرجال خُلقْنَ، ولَهُنَّ خُلِقَ الرجالُ. أي بنية، إنكِ فَارقْتِ الجوَّ الذي منه خَرَجْتِ، وخَلَّفْتِ العُشَّ الذي فيه دَرَجْتِ، إلى وَكْرٍ لم تعرفيه، وقَرِينٍ لم تألفيه، فأصبحَ بِملكه

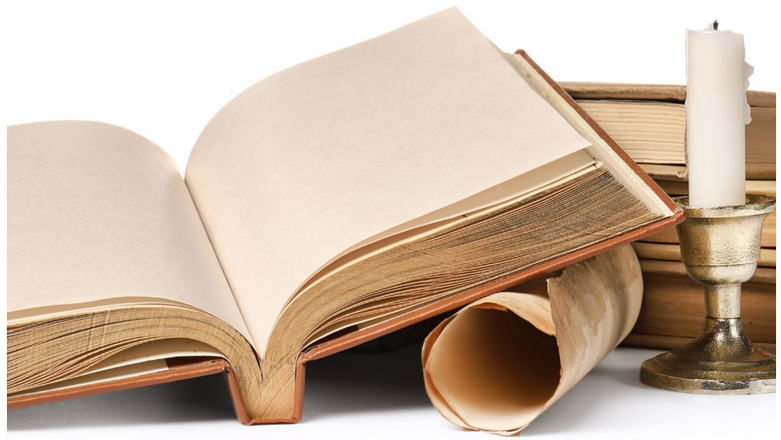

عليك رقيباً ومليكاً، فكوني له أَمَةً يكُنْ لك عبداً وَشِيكاً، يا بنية احْمِلِي عنّي عَشْرَ خِصَالٍ تكن لك ذُخْراً وذِكْراً: الصحبة بالقناعة، والمعاشرة بِحُسنِ السمعِ والطاعة، والتعهُّد لموقع عينه، والتفقُّد لِموضعِ أنفِه، فلاَ تَقَع عينُه منك على قبيح، ولاَ يَشمّ مِنك إِلَّا أطيبَ ريح، والكحلُ أحسنُ الحسن، والماء أطيبُ الطيب المفقود، والتعهد لوقت طعامه، والهُدُوّ عنه عند منامه، فإن حَرَارةَ الجُوعِ مَلْهبة، وتنغيص النوم مَبْغَضَة والاحتفاظ ببيته وماله، والإرعاء على نفسه وحَشَمه وعِيَاله، فإن الاحتفاظَ بالمال حسن التقدير، والإرعاء على العيال والحشم جميل حسن التدبير، ولاَ تُفْشِي له سراً، ولاَ تعصي له أمراً، فإنك إِنْ أفْشَيْتِ سِرَّه لَمْ تَأْمَنِي غَدْرَه، وإِنْ عَصَيْتِ أَمْرَه أوغَرْتِ صَدْرَه، ثم اتَّقِي مع ذلك الفرح إنْ كان تَرِحاً، والاكتئاب عنده إنْ كان فَرِحاً، فَإن الخصلة الأُولى من التقصير، والثانية من التكدير، وكوني أَشَدَّ ما تكونين له إعظاماً يكن أشدَّ ما يكون لك إكراماً، وأشد ما تكونين له موافقة، يكن أطولَ ما تكونين له مرافقة، واعلمي أنك لاَ تَصِلِين إلى ما تحبين حتى تُؤْثِرِي رضاه على رضاكِ، وهواه على هواكِ، فيما أحببت وكرهت، والله يَخِيرُ لك، فَحُمِلَتْ فسُلِّمَت إليه، فعَظُم مَوْقِعُها منه، وولدتْ له الملوكَ السبعةَ الذين ملكوا بعده اليمن»[7].

فَمَا أَحْوَجَ مُجْتَمَعَاتنا الآنَ إلى تلك الوصيةِ الصائبةِ والحكمةِ العربيةِ العاليةِ، بَعدَ أَنْ كَثُرتْ نسبةُ الانفِصالِ الأُسري وتَحَوَّل

البيتُ إثره إلى مسرحٍ لِلْمُناظرَاتِ وَمَرْتعٍ لِلْمُشَاجَرَاتِ وَتَسَرَّبَ الابناءُ وانْتَهتْ حَياتُهم إلى الشَّوَارعِ والْمَلاجِئِ والْمَصَحَّاتِ، ولم تُنْقِصْ تلك الوصيَّةُ مِنْ شأنِ المرأةِ شيئاً، بل جاءتْ رفعةً لَها ولِشَأْنِها؛ فَلَوْلا النِّساءُ ما كَانَ الرجالُ وَمَا كانت البُطُولاتُ: فالنساءَ للرجال خلقْنَ، ولَهُنَّ خُلِقَ الرجالُ.

إنهُم العربُ وَإِنْ كانُوا قد اخْتَلَفُوا عَلَى هَيّنٍ، أَو دَبَّتْ بَيْنَهُم الْعَدَاوَةُ والشِّقاق، أَو حالَتْ بَيْنَ وَحْدَتِهم أَحْيَاناً العصبيةُ، أَو فَرَّقَ بَينَ دُرُوبِهم الثأرُ، فهُمْ مَنْ أَنْتَجُوا لَنَا الْقِيَمَ مِثلَ: الكرم، والشَّجَاعَة، والإيثار، والتَّسَامُح، وَرَاحُوا فِي طَلَبِ الْوَصِيةِ والنَّصِيحَةِ مُشَمِّرِينَ عَنْ سَوَاعِدِهِم غَيْرَ مُتَوَانِين، وَقَدْ جاءَ كُلُّ ذلك فِي أَقَاوِيلِهم نَثْراً وشِعْراً شَاهِداً عَلى جِدَّةِ رُؤْيَتِهم وَحَدَاثَةِ فِكْرِهِم واسْتِشْرَافِ مُسْتَقْبَلِهِمْ ■

كاتب وناقد مصري

الهوامش والمراجع:

1. أحمد زكي صفوت: جمهرة خطب العرب في العصور العربية الزاهرة، المكتبة العلمية، بيروت - لبنان، 1933م، 1/ 120.
2. أبو هلال العسكري: جمهرة الأمثال، ضبطه وكتب هوامشه: أحمد عبد السلام، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط1، 1988م، 1/493 - 494.
3. ابن عبد ربه: العقد الفريد، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت لبنان، 1983م، 4/30.
4. 5000 حكمة من حكم الإمام علي بن أبي طالب، دار المرتضى للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، ط1، 2004م، ص 60.
5. المصدر السابق نفسه، ص 29.
6. ديل كارنيجي: كيف تكسب الأصدقاء وتؤثر في الناس، ترجمة: خليل البدوي، الأهلية للنشر والتوزيع، ط1، عمّان - الأردن، 2001.
7. أبو الفضل النيسابوري، الميداني: مجمع الأمثال، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة السُّنة المحمدية، القاهرة، 1955 م، 2/ 263.

قراءة في كتاب «ناجح المعموري»

«تأويل النص التوراتي».. دراسة لأسطورة اللُّفاح والهوية الكنعانية

خالد عمر بن ققه

قراءة تراث الآخر تمثل حالة من التعارف المطلوب، سواء تعلق الأمر بالبحث عن المشترك أو حتى إذا كان الهدف منها معرفة المختلف، وتجنبه بقصد الحفاظ عن الذات والكينونة تارة، أو الاستعانة به لفهم بعض القضايا ولدعم مسائل خاصة تعبر عن الوجود ومتطلباته تارة أخرى.

والقراءة التي نقصدها هنا هي تلك المتعلقة بالتراث الإنساني في عمومه، دون التوقف عند ثقافة بعينها.. إنها حديث المشترك والعام، ومع هذا فهي قادرة على أن تُرينا «بعض العلامات الدّالة للمجتمعات»[1]، خاصة حين تتحول إلى مُنتج كتابي جديد، يبين لنا سلطان القراءة، ويكشف عن حركة التدافع في مسيرة الحياة البشرية، وما قد يصحبها من تراكم للأفعال، وما قد ينتج عنها من قيم جامعة أيضاً. وفي السياق نفسه يمكن للقراءة أن تتعمق أكثر، وتصبح تعبيراً عن رؤية - أو رؤى النخبة لهذا الموضوع أو ذاك، وهذا حين تتحول قراءة النصوص التراثية القديمة إلى دراسة، وهي وإن كانت تأتي حاملة لمتعة معرفية، إلا أنها تفتح النقاش حول قبول نتائجها من عدمه، الأمر الذي يستدعي الوقوف، بل التأمل، في قضايا بعينها، خاصة تلك العابرة للأزمنة، وتوظف في كل عصر بطريقة مختلفة، وتعبّر في الغالب عن علاقة الإنسان بالمكان. ومن بين القضايا المثيرة للاهتمام البحثي، تلك التي تشغل فضاءً مشتركاً بين الأساطير والمعتقدات، سواء أكانت هذه الأخيرة «نتاجاً صاعداً من الأرض، كما هو بالنسبة للوثنيات»[2]، أم «نازلاً من السماء على النحو الذي يظهر في رسالات الأنبياء والكتب السماوية»[3].

سنتوقف هنا - قراءةً - عند الجمع بين الأسطورة من منطلق حضورها لفهم نص ديني وتأويله، في إطار محاولة جادة لمعرفة الآخر المختلف دينياً وتاريخياً وثقافياً، مما يجعلنا ننظر إلى الكتاب الذي بين أيدينا برؤية مختلفة عن تلك التي طرحها مؤلفه، مع أنه بدا جليساً وباحثاً متعمقاً في مسألة تراثية، وقدّم تأويلاً لها، ليس شرطاً أن يكون صحيحاً، بل ربما العكس من ذلك، إذا ما قرئت بعيداً عن التأويل.

لئة وراحيل.. ويوسف التوراتي

من البداية يوضح المؤلف «ناجح المعموري»[4] في كتابه «تأويل النص التوراتي»[5] أن انشغاله بأسطورة نبات «اللُّفاح» نابع من كونها شكّلت جانباً، بل جوانب أساسية، من شخصية» يوسف التوراتي»[6]، وأنه بالبحث في الموضوع توصّل إلى قراءة اقترحت مجالاً ثقافياً جديداً لشخصية يوسف أعادته، اقتراناً مع نبات اللُّفاح، إلى محيط الآلهة الشباب؛ الذين عرفتهم ديانات الشرق الأدنى القديم، وحصراً الآلهة الشّابة القتيلة، ممثلاً لها برموز عديدة أهمها نبات اللُّفاح والعصا والقمح» (ص 5).

والفقرة السابقة تعلن، بدْءاً، أن الكاتب يؤسس لدراسته موقفاً بحثياً يتخذ من الأسطورة وعلاقتها بالنص - كما سنرى لاحقاً - مدخلاً للتأويل حيث العلامات الدلالية، التي تحدث عنها، اتسع أمامها عالم «التخصيب الرمزي»، في سياق سعي مقصود لتبيان قوة التشكل الأسطوري، وقداسة الجنس المقدس، الذي عرفته العديد من الديانات الشرقية، والكاتب هنا وفيٌّ لمنهجه في البحث، ولأطروحاته ولأفكاره التي تضمنها مشروعه البحثي، كما هي جلية في «عدد من كتبه»[7].

في هذا الكتاب يروي المعموري بعضاً من العلاقات الأسرية داخل بيت يعقوب، ومنها علاقته بزوْجتيه ابنتي خاله «لابان». الأولى: «ليئة»، التي كانت ولوداً، والثانية: «راحيل»، التي كانت عقيماً، وبسبب ذلك كانت هامشاً في المجال الديني والاجتماعي، وإن لم تتغير علاقة زوجها يعقوب بها، وعلى خلفية ذلك ظل الصراع قائماً بينهما، علماً بأن راحيل حملت بعد استعمالها اللُّفاح وأنجبت.

من ناحية أخرى، يرى الكاتب: أن يعقوب أكّد قدرته على الاتصال والإخصاب، لأنه رزق بعدد من الذكور، كما أكد الدور القبلي للبنية الذهنية السائدة، آنذاك، حيث مارست شطباً كلياً على ثقافة الأنثى وسط عائلة يعقوب.

ويذكر الكاتب أن النص التوراتي (سفر التكوين) لم يعرف أن واحدة من نساء يعقوب ولدت بنتاً له سوى ليئة، وتكرس بذلك الإلغاء القصدي لمجال الأنثى وعطلها تماماً في الأسطورة التوراتية. وأرجع ذلك لكون كتبة التوراة تأثروا بثقافة المحيط الحضاري الذي عاشوا فيه، حيث ظهرت الألوهية البطرياركية، وتمّ تشميس الآلهة، وهكذا حذا بكتبة التوراة حذْو المنتج الثقافي السائد في مرحلة التدوين، لكن هذا الشطب الكامل لدور الأنوثة في الديانة الجديدة، لم يستطع الصمود أمام منظوم الألوهة المؤنثة، بل تراجع بوضوح تام في مراحل متأخرة جداً، وتحديداً خلال التشكل السياسي الجديد في كنعان.

القمح واللُّفاح.. الرموز والتناظر

من خلال الأسطورة التوراتية، يتحدث الكاتب عن تنوع الرموز، وعن التناظر الثنائي ممثلاً في القمح ونبات اللُّفاح، ذلك «أن ظهور القمح واستمرار دورته في الطبيعة حتى النهاية، والتي هي - النهاية - فتحت أفقاً ثقافياً لصعود وتمركز رمز اللُّفاح وظهوره للحياة بعد معاودة الإله الشاب| القمح نزوله ثانية إلى العالم الأسفل..» (ص7). وقد تبدّت قراءة المعموري للنص التوراتي مرفقاً بالتأويل الأسطوري، عبر الفصول الأربعة للكتاب، اهتم الأول منها بلحظة لقاء يعقوب مع رحيله، عندما رحل إلى خاله لابان والاتفاق المبرم بينهما، وتضمن متابعة لانهيار سلطة الألوهة أيضاً، لكنها استعانت بثقافتها الجديدة

للإبقاء على دورها بعيداً عن المجال المذكور. وفي هذا الفصل - كما يذكر الكاتب - لاحقت الدراسة النص التوراتي لأسطورة اللُّفاح، والتحايل عليها وإعادة إنتاجها، وصياغتها كنص معْني بالخصب، للإيهام بوجود نظام خاص بالانبعاث في الديانة اليهودية، كما اهتمت المتابعة البحثية - في هذا الفصل - بالأصول الزراعية لنبات اللُّفاح ودلالته الرمزية وعلاقته مع الألوهة المذكرة في بلاد كنعان، وبناءً عليه تسلّل الكَتَبَةُ إلى نظام الخصب الكنعاني واستلام أسطورة اللُّفاح وإعادة صياغتها في سفر التكوين، وإضفاء أهمية خاصة عليها.

وتضمّن الفصل الثاني من الكتاب ثلاث وحدات، هي: عناصر النص الأسطوري، ورموز الأم الكبرى، وصورة اللُّفاح وتفاصيله، كما تابع الكاتب العديد من العناصر الداخلة في أسطورة اللُّفاح التوراتي وتوصيفها ضمن خطابها الثقافي - الديني، مع ملاحظة الاختلاف المساهم بصياغة التباين بين الأخوة - مثلاً - وعلاقة النبات في تأطير شخصية يوسف بملامح خاصة.

ولأجل إيضاح العلاقة الكامنة بين اللُّفاح والطبيعة، قدم الكاتب إشارات مركزة عن بعض رموز الألوهة المؤنثة، وحصراً الأم الكبرى، حتى يكون التعريف باللُّفاح من خلال الملامح وتنوعها أكثر قبولاً.

هكذا إذن، ركز الفَصْلان الأول والثاني على الخلفية الأسطورية التي عمّقت المعنى والدلالة لتأثير نبات اللُّفاح، من ناحية إخصاب المرأة بما تقدمه الأرض من عطاء -بغض النظر عن الرمزية التي حملها عند التأويل - في صياغة هي أقرب نوعاً من التكامل بينهما، وما ترتب عن ذلك من تشكل لعناصر ثقافية جديدة.

الدم.. واللون الأحمر

وفي الفصل الثالث، تحدث الكاتب على جملة من الأنساق، وخاصة نسق الزوجات والسراري، وكذلك نسق الدم واللون الأحمر، وفي حديثه هنا عاد مرة أخرى إلى «البيت اليعقوبي» - إن جاز التعبير - الذي سبق له أن تناوله بالدراسة في الفصل الأول، غير أنه هنا عمق من التحليل، وأضاف له أبعاداً أخرى، يمكن إيجازها في الآتي:

أوّلاً - الحديث عن إقامة يعقوب في بيت خاله، ونشوء علاقة حب بينه وبين راحيل.

ثانياً - تفصيل علاقة يعقوب بخاله لابان، وغش هذا الأخير وخداعه له.

ثالثاً- توضيح المتاعب التي واجهها يعقوب لأجل الزواج براحيل

رابعاً - قراءة جوانب خفية من شخصية راؤبين، خصوصاً تلك التي لها صلة مباشرة بزوجة أبيه راحيل وسريتها.

إلى جانب هذا فقد توصل المؤلف في دراسته هذه إلى أن الدم واللون الأحمر، هو أكثر الرموز هيمنة في الأسفار التوراتية، وحصراً أسطورة يوسف، ولحظة تطورها وتكونها، حتى صار الأحمر علامة مميزة له، وسبباً لنشوء لحظة العداء بينه وبين إخوته، لأن اللون الأحمر يوحي لهم بالمكانة المميزة التي تمتعت بها راحيل، وانتقلت بعد موتها - عبر القميص - إلى ابنها يوسف. وتضمَّن الفصل الرابع والأخير دراسة مكونة من ثلاث وحدات متناظرة مع بعضها مكونة نظاماً واحداً معنيّاً بالخصب وتجدد الحياة وبقاء دورتها مستمرة، مع ملاحقة رموز ثقافية، دينية ذات مجال فعال «ومن هذه الوحدات الثقافية: أسطورة الانبعاث الكنعاني، والعذراء عناة، واللُّفاح وطقوس الزواج المقدس»(ص 12).

ويشير الكاتب إلى أن هذا الفصل يكشف عن تكريس الهوية الحضارية - الكنعانية، والكيفية التي هيمنت بها وبواسطتها أسطورة اللُّفاح مع الإشارة إلى أصولها الكنعانية؛ حيث كان اللُّفاح من تقديم الآلهة «عناة»[8].

كل هذا يأتي انطلاقاً من كونها أسطورة زراعية، وبالتالي هي نتاج البُنْيَة الذهنية المستقرة والمصاغة شفاهياً، وتبعاً لذلك فإن أسطورة اللُّفاح - كما يراها الكاتب ويَرْوِيها - هي وجه من الأوجه الثقافية ذات الصلة المباشرة مع نظام الخصب، الذي أنتجته مرحلة الاستقرار والاستيطان الزراعي، وتلك قضية ناقشها الكاتب بالتفصيل في كل فصول كتابه، وإن بدت أكثر وضوحاً في هذا الفصل.

أكاذيب عبرانية

القول بالاستقرار والاستيطان الزراعي في التراث الأسطوري الكنعاني يراهما المؤلف هنا نوعاً من التلفيق غير البيّن، حتى إنه يذهب إلى القول: «إن هذا الرأي ينطوي على الإشارة لعائدية هذه الأسطورة إلى الحضارة الكنعانية، والتي اتَّصفت بعناصر تؤهلها لحيازة الإرث الثقافي، الذي حاز عليه (العبران)، للإيهام بأنهم قد عرفوا مرحلة الاستقرار والزراعة، وصاغوا أساطيرهم التي أنتجها عقلهم الكتابي، وتلك واحدة من الأكاذيب العبرانية»(99).

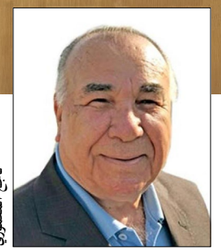

ناجح المعموري

وبعيداً عن القراءة البحثية للنص التوراتي وتأويله من طرف المؤلف، وإعطائه أحكاماً مؤسسة على دراسة الأسطورة، خاصة في الديانات المشرقية، فهو يرى أن أسطورة اللُّفاح تحديداً هي نتاج لعقائد الجنس.. التي كانت شائعة في المجتمعات الزراعية الكنعانية كلها، وأنها جزء من الأساطير التي عرفتها حضارات الشرق.

من ناحية أخرى، يذهب الكاتب إلى النتيجة الآتية: إن اللُّفاح ينطوي رمزياً على الإله «اليهوي»[9]، الذي حاول أن يكون مُخَصِّباً ومتباهياً بذكورته ومحاولاً - عبر الكهنوت - التماهي مع الآلهة العراقية التي عرفت بنظامها الإخصابي في الحياة.

تلك من أهم القضايا التي طرحها الكاتب ناجح المعموري، تقبل إذا قُرِئت من زاوية دراسة الأسطورة، وتُناقش - اتفاقاً أو اختلافاً - حين تدور في الفضاء المشترك بين الأسطورة والمعتقدات، وتتطلّب مزيداً من البحث والدراسة حين تستندُ في بعضها أو كلها إلى نصوص التوراة ■

كاتب وصحفي - الجزائر

الهوامش والمراجع:

1 .لمعرفة المزيد حول علاقة القراءة بالعلامات الدالة للمجتمعات، يمكن العودة إلى:

- ألبرتو مانغويل، تاريخ القراءة، ترجمة: سامي شمعون، الطبعة الخامسة، دار الساقي، بيروت، لبنان، 2001 م.

2 - أقصد بالوثنيات هنا، الإيمان بالآلهة، بشكل كلي على النحو الذي عاشته البشرية في عصورها الغابرة، أي في مرحلة الشرك بالله، منذ ظهور الآلهة وتعددها في الفلسفة اليونانية والرومانية، وصولاً إلى ما هو موجود في عصرنا.

3 - الكتب السماوية المعنية هنا هي: التوراة، والإنجيل، والقرآن.

4 - ناجح المعموري، قاص وروائي وباحث عراقي متخصص في الأسطورة والأديان، حاصل على دبلوم في التربية.. له العديد من المؤلفات.

5 - انظر: ناجح المعموري، تأويل النص التوراتي (أسطورة نبات اللُّفاح وعقائد الانبعاث الكنعاني)، دار المدى للثقافة والنشر، دمشق، 2008 م.

6 - يقصد به النبي يوسف بن يعقوب عليهما السلام.

7 - منها على سبيل المثال: الجنس في الأسطورة السومرية، والتوراة وطقوس الجنس المقدس، وتأويل النص التوراتي/ قميص يوسف نموذجاً.. وغيرها.

8 - عناة.. ربّة الحب والجنس والخصب، وربة الحياة، لكنها من جهة أخرى هي: ربة الحرب والدمار والكوارث، وربّة الظلام، وهي: محبة، رفيقة، قوية، جبارة ومتسلطة (ص 99).

9 - ترى اليهودية أن «يهوه» هو: إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب والإله القومي لبني إسرائيل.

تصور المسرح
مهرجان المسرح العربي في دورته الرابعة عشر في بغداد لهذا العام
من خلال مسرحيتي:
«حلمت بيك اِمبارح» و «بيت أبو عبد الله»

صالح كرامة العامري

من خلال الهيئة العربية للمسرح ودعوتها لي مشكورة في اختياري كوفد رسمي هناك، وأعتبره شيئاً مميزاً وأنا في غاية الامتنان للهيئة بأن أنضم إلى الوفد المتوجه إلى بغداد لهذا العام، وأغادر في مضمار عام في عالم المسرح الطويل مع حرصي على مشاهدة العروض كافة.

حلمت بيك اِمبارح

قد كانت الرحلة بمثابة اكتشاف عام لمرحلة المسرح الذي أحبّه وبشغف جم، وما أعشقه في المسرح هو المرادفات الصورية فيه، والتشظي الخيالي فيه، فهذه المرة أعادتني الرحلة هذه إلى أنني أصبحت جزءاً من حركة عامة لخشبة المسرح أحسستها بمقدار وكنت قريباً منها. إن عرض (حلمت بيك اِمبارح) هو عرض من تونس، ومن تأليف وإخراج كلٍّ من لبنى مليكة وإبراهيم جمعة. أقيم في غرفة صغيرة تسع مئة وسبعين شخصاً، وقد حضر كل من إبراهيم جمعة والممثلة لبنى مليكة، وقد اشتركا معاً في التمثيل والتأليف والإخراج، كما أنهما اجتمعا معاً في عملية العمل المسرحي. وتحكي هذه المسرحية قصة مراهق قام بجريمة قتل متعمدة وتم إلقاء القبض عليه مباشرة، فتتوجع الأم لتذكرها ابنها المراهق القاتل وتتساءل ماهي دوافعه إلى القتل بعد أن تعبت في تربيته وما الذي جعله يتحول إلى شخص انتقامي ويقتل..! وكيف تحول هذا المراهق إلى قصة بحيث تحلم الأم وتتذكر ابنها وكأنه بجوارها دائماً، ليدخل الممثلان في كابوس من الهذيان والتداعيات، عندها تحولت الأم إلى استدعاء ابنها عبر ذاكرتها عندما كان طفلاً جنيناً، والأب يقود هو الآخر، وهي تتخيل كيف أن ابنها المراهق قام عنوة بضرب ساطور قاتل باتجاه ضحيته، أفكار وتداعيات كلها تجعل الأم في استحضار ابنها الذي وضع في الزنزانة، هذا الحلم سطرته لبنى مليكة في دورها الأم، وكان إبراهيم جمعة في دور الابن، هذه التداعيات الفنية جعلتهما يتفقان على إقدام الابن المراهق على عملية القتل الطائش، وتحلم الأم بأن يعود ابنها إلى حيث كان ويشاطرها الأب ذلك الحلم ويتحول المكان إلى شيء جميل وآخاذ، عندما يبتدئان بمشهد حلم وهما واقفان في مقدمة المسرح وتحت إضاءة شحيحة، يصدرها مصباح فوقهما، بحيث يكون الممثلان متشابكين تحت الإضاءة وتبدأ الأم تسرد قائلة: (تتحدث بشكل حالم ومن خلفها يقف الابن) لا شيء يتفوق على أحد

أشعر بشكل جيد

إنها قدرة علنا نستطيع أن نستحضر ابننا هناك

تبدأ الحكاية بشكل مرن وهامس، من نبرتها تحس بهذا الحلم يجلجل في ثناياها، ويبدآن في التباعد رويداً رويداً، وكل هذه المتلازمات في تحريك هذا الحلم بشكل معلن وصادم، إنها نوعية في غاية الود التي جمعتهما معاً، وبعد كل هذا يتحرك الممثل إبراهيم إلى ناحية بعيدة في مقدمة المسرح حيث الظلام التام، ويجلس القرفصاء بشكل يشكل حاضن لحياة الأم نفسها عندما تتحرك الأم بالفعل بحيث تجلس على كرسي وحيد في مؤخرة المسرح، وتقوم بحركة إيمائية على عملية الوحدة والتشظي وهنا يظهر الممثل الابن في مقدمة المسرح واقفاً وبحوزته مصباح ينيره بشكل متحرك يُحمل وليس هناك من شيء يقود نحو خيط غير معتبر. إنّ الحوار الذي دار هو الانكسار الذي حصل هو أنه جزء من فعل مصاحب لما حصل أي إنّه حتمي الحصول عندما تظل الأم والابن يتمددان هناك وكأن شيئاً من غير الممكن أن يظل في المكان، إنما هو جزء فذ وغير معلن ليس هكذا من التوبيخ الفعلي الممتد نحو الحياة هي:

ويدور حوار أشبه بالحلم عندما يجلس الابن على حافة الطاولة وهو يتكلم كنوع من الهذيان.

الابن: (يتحدث عن كيفية ارتكابه الجريمة بقتله المدرس في المدرسة).

هناك حركة حاسمة

خط أحمر قانٍ يسيل

ساطور تحمله يد وتتقدم نحو الضحية ويفتك بها ...

الأم: (تحاول أن تنبه الابن على مدى حزنها على فعلته في إقدامه على ارتكابه الجريمة).

اللون الأصفر هو لون ملاك بالضبط

في الوقت نفسه هو لون الشمس

أما المريول هذا فهو بالنسبة لي المنزل

أحب أن أجلس بالمنزل

نحاول من خلال هذا الحوار وهو منطوق باللهجة المحكية ومن خلال مقالي أحاول أن أقود هذا الحوار في تصور هذه اللهجة لما يحيط بها من إيقاع، من اللهجة المحكية إلى الفصحى، وهكذا أستمر في تحليل العرض المسرحي ليصبح نصاً توافقياً عند العرض العام، ونشاهد أن هناك مشهداً يصف فيه الممثل كيف أن السكين تخترق الجسد بعدها تذهب الأم بحيث تسحب الطاولة الخلفية وتقدمها إلى مقدمة المسرح كنوع من التحضر، وجبة لابنها المراهق الذي هو في الحبس تتقدم وتضع الطماطم، وتقوم بتقطيعه على الطاولة لكي تذهب بهذه الوجبة إلى ابنها الذي هو في السجن، هذه التحركات كلها هي نوع من التحدي بين الحياة التي استمرت حتى لا تنتهي، في المقابل أن تستمر في مكانها كي تصبح شيئاً فعلياً وتاماً. هذا العرض يعد الانتقال من الأداء التمثيلي إلى أداء الراوي ..

بيت أبو عبد الله

المسرحية الثانية التي سنتحدث عنها هي جزء من عروض المهرجان التي شكلت جزءاً من ذاكرة المكان الفعلي لتحديده في أنه جزء من تطور فني غير عادي وأن الذي يحدث هو إنما يصب جميعه في تحدٍّ فنيٍّ فعال، المسرحية هي (مسرحية بيت أبو عبد الله) تأليف وإخراج أنس عبد الصمد من العراق. هذا العرض ينفتح على أكثر من التأويل الفعلي في مقاسات المسرح ما بعد الدراما وهو يأتي من جوف النص، وهذا ما يذكرنا برواية الجحيم للكاتب (هنري باربرس). وعلى الرغم من أن العرض

في مجمله صامتاً فإنه يغلب عليه الفعل أي النص في غيابه هذا يأتي من خلال الحركة، ويتراكب النص كمشاهدة لبعد الحدث نفسه وبهذا تحس أن الحركة هي التي تسبق النص نفسه ومن خلال الفعل الحركي يتشكل نصاً يُعبّر عنه، ويعبّر عن فعله، أي إنه نص حركي لا يرمز إلا لما ستكون عليه حياة أسرة أبو عبد الله تلك، وكيفية عيشها في كنف بيت عادي متوسط الحال، هذا الرمز الفني الذي اختاره المؤلف والمخرج أتى من خلال التقصي الحركي، فهو شكّل الحركة عبر التمارين المتمايزة ليصبح نصاً رؤيوياً محبكاً، وعندما سألت المخرج لماذا أبو عبد الله؟ أجاب: إن كل هذه الرمزية إنما ترمز إلى منزل في الحياة، يعد منزل أبو عبد الله نحن من خلال اختيارنا الاسم إنما نعتبر أن الأسئلة تلك تأتي من بعيد وتظل مكانها محض سؤال متأصل في العرض، إنه جو عابق بهذه المسائل كلها وتأتي من خلال أنها جزء من محتوى عام على أن تعيش هذه العائلة إلى الأبد، يعني أن المخرج كان موفقاً في وضع هذا النص والمسرح على أنه جزء من اكتمال الوقت نفسه هذه النتيجة الفعلية لكل هذه التداعيات وأن تظل في مكانها إن هي استمرت دون حركة، ولهذا كان عليه أن يحرك ممثليه بهذه الطريقة لكي ينجو بالعرض بعيداً عن النص. ولهذا أسس لحالة ما بعد الدراما، وبذلك اعتمد هذا العمل على أسرة أبو عبد الله، تلك الأسرة المتوسطة الحال تعيش في مكان عادي كباقي الأسر العربية المعهودة، عندما يداهمهم شيء من الخوف وتبدأ المسرحية بدخول (أيوب) أحد أفراد الأسرة

من خلال ستارة سوداء في الخلف يخترق هذه الستارة حاملاً آلة موسيقية ويضعها أمام (ثريا) بطلة المسرحية الجالسة على الأرض وأمامها مخاد بيضاء تعبث بها في محاولة البحث عن كمية، ثم ينضم إليهم (أنس) مخرج العمل، وهو الممثل في هذا العمل، ويتصاعد الحدث في رتمه بحيث يوقعك في تناغم ثابت، ويعتمد العمل هذا على لغة الجسد في تحركات ممثليه ويعطيهم هذا التناغم شكلاً متصلاً في الحدث الذي يحدث، وهو إمكانية إطار وجودهم على الخشبة وفي محيط هذا الوجود نفسه؛ لأن العمل المسرحي عليه أن يرتفع بإيقاعه عالياً للتصدي لأي انخفاض في الإيقاع وهذا التصاعد يعد مجالاً في إحداث عقدة الحدث، أي إن العائلة تعيش في تأزم مستمر ووضع من الخوف وعدم الاستغناء عندما تسألهم عن حالهم، ففي بداية العرض نشاهد مجسماً ضخماً لفأر يهبط على العائلة الموجودة في المنزل، وتدخل في تأزمها وصراعها لكي تؤجج هذا العرض لخدمة هذه الأشياء المصاغة تباعاً. في المجمل اعتمد المخرج كلياً على لغة الجسد الفعلي وحركة السينوغرافيا المتواترة، فمثلاً يبدأ حدث المسرحية عند دخول الفأر من خلال الستارة السوداء في الخلف، حيث نشاهد كل هؤلاء يقعون في مصيدة الترهل، وهذه الرمزية هي التي أعطت فكرة أن الفأر هو جزء متأصل في برمجة الفعل المسرحي، حيث احتكم الكثير منها على أنها جزء متأصل في ثيمة العرض المسرحي تباعاً، ويعطي إجابات عن كيف تحول كل شيء إلى اكتمال تام لما سيتم تحريكه؟ واعتمد في ذلك على الموسيقى الصاخبة. يعد هذا العمل لكبح جماح الدراما السائدة لكي ينقلنا إلى ما بعد الدراما، عندما ينتقل الممثل المأزوم في النص إلى طريقة حديثة موغلة في تشريح جسد الممثل ليصبح هو المراد اكتماله من معنى مقصود.

إن الترتيب هو استحكام فعلي تام بيّن يتم عمله من عمل تام: وكيف هي الحياة إن هي استمرت على انخراط تام مع ما تمليه واقعية الشكل، ولهذا استعمل المخرج في تفكيك العرض على ماهية الممثل الصامت الفعل التام في تحريك نفسه لكي يتواصل مع فعله الذاتي، وكيف تحولت قوالب ثابتة ومحنطة في الفعل المسرحي على إتيان أن الفعل هو انتقال تام بين المحيطين من حولهم إن هو استمر في ذلك، وتظل عملية الهدم في مسرحية (بيت أبو عبد الله) بشكلها الشعبي التقليدي بين الأبناء والأب وكيف يتحولون مباشرة في تكوين كل شيء من أساسه وهذه هي التحولات العامة لهذا الشي الوحيد الذي يكون كل شيء من أساسه، هكذا يتحول العرض هذا إلى وضع تساؤل بينه وبين الجمهور عندما بدأ الممثلون على الخشبة أي (بيت أبو عبد الله) يفقدون ديكور بيتهم رويداً رويداً بحيث نشاهد أن الستار الداخلي في عمق المسرح ينسحب رويداً رويداً ويتخلله تشققات في الجدران في طريقة غير عادية في التحرك التام وأنه ليس بأمان أن يتحول الممثل إلى أكثر من أداة ليصاحب كل شيء إلى الأبد. إنها رحلة طويلة اعتمدت على عملية تفاعلية في العرض المسرحي بحيث استخدم (أنس عبد الصمت) تقارير إنشائية فتوغرافية عبر حركة الممثل المصاحب للحركة المتتالية، وهذه هي التي أسست إلى نوع مرادف له. أسئلة كثيرة أطلقها العرض عبر إطلالة الجسد على أنه الحس الفني لتجسيد العرض والولوج من خلاله بحيث يترك الجمهور في دوامة البحث عن أجوبة شافية، عندما يتغير العرض جميعه وهو الصامت دون كلمة، أي إن العرض ظل وحيداً في رؤية الحياة على أنها جزء من الحياة.. ■

مخرج إماراتي مسرحي وسينمائي

مواطن الإبل والتساؤلات حول أصلها العربي

تراث - خاص

لم تنجح الدراسات العلمية في تحديد الموطن الأصلي للإبل، ربما لأن تاريخ الإبل يعود إلى عهود موغلة في القدم، فقد تعددت الدراسات حول موطنها، وأدّت إلى نتائج مختلفة، فهناك من يزعم أن الإبل ليست عربية الأصل، برغم صلتها الوثيقة بالصحراء والحياة العربية منذ أقدم العصور، وأكّد هذا الفريق بأن الإبل تنحدر من أمريكا الشمالية، حيث نشأت في العصر البليوسينيّ حيوانات برية لها ما يشبه السنام، ومن هذه الحيوانات تحدّرت الإبل. وهناك الرأي الثاني الذي يبين أن هذه الإبل الموجودة في أمريكا الشمالية انتقلت براً إلى أمريكا الجنوبية، وذهبت دراسات أخرى إلى وجود نوعين بريين من الإبل الأول يسمى "الفيكونا"، وهو نادر الآن وينحصر وجوده في بيرو وبوليفيا، والثاني اسمه "الجوانكو"، وهذا النوع موجود في بوليفيا وشيلي والأرجنتين ومنها انتشر إلى مناطق كثيرة في أمريكا الجنوبية. وهناك الرأي الثالث الذي يرى أن اللاما والألباكا ظهرتا من النوعين السابقين - الفيكونا والجوانكو - وهي عادة ما يطلق عليها مسمى إبل العالم الجديد، وقد استأنست هذه الأنواع في دول أمريكا اللاتينية مثل الأكوادور وبوليفيا وبيرو.. إلخ، منذ نحو خمسة آلاف عام. أما عن مميزات هذه الحيوانات فهي تمتاز بطول رقبتها واقتصادها المميز في استهلاكها للماء، وتحمل هذه السلالات نفس عدد الكروموزمات الموجودة في خلايا الإبل - المتعارف عليها - (74) كروموزوماً، ولكن هذه السلالات ليس لها سنام. أما بالنسبة إلى استخداماتها فهي تستخدم في إنتاج اللحم والوبر، وجلودها ذات قيمة اقتصادية مرتفعة جداً. أما الرأي الرابع فيذهب إلى أن الموطن الأصلي للجمال هو آسيا الوسطى، وقد يكون بلاد العرب أو فارس أو منغوليا أو الهند، ومن آسيا انتقلت إلى أفريقيا عبر طريقين: الأول عن طريق مصر عبر فلسطين لشبه جزيرة سيناء وانتشرت غرباً إلى الشمال الأفريقي وجنوباً إلى السودان، أما الطريق الآخر فقد كان إلى جنوب الغرب الأفريقي عبر باب المندب حيث انتشرت في الصومال وإثيوبيا وكينيا والمنطقة التي حولها، وتسمى الإبل التي تقطن هذه المناطق إبل العالم القديم، وهي على ثلاثة أنواع:

أ - الجمل ذو السنامين، يعيش غالباً في هضاب آسيا الوسطى ومرتفعاتها، ما بين الهند والصين وأفغانستان وباكستان ومنغوليا وإيران.

ب - الجمل العربي ذو السنام الواحد: يعتقد المؤرخون وعلماء الأجناس أن الإبل ذوات السنام الواحد وجدت في البداية في جنوب الجزيرة العربية وبالتحديد في منطقة حضرموت وعاشت في هذه المنطقة. وهناك رأي آخر يقول إن الإبل وحيدة السنام كانت بالأصل من الإبل ذوات السنامين، ثم تحوّلت لتصبح من ذوات السنام الواحد، لتعايش الأجواء المناخية المتغيرة في هذه المناطق.

ج - الإبل المهجنة وهي على نوعين: الأسلوب الأول المتعارف عليه، وهو المتمثل في عملية التزاوج بين نوعي جنس الإبل من ذوات السنام، حيث تم تزويج الذكور ذات السنامين من الإناث ذات السنام الواحد، ولهذا النوع مردود عالٍ من الحليب وقدرة عالية في العمل. ويعتبر هذا النوع من الإبل في وقتنا الحاضر قليل العدد. أما الأسلوب الآخر وهو عبارة عن عملية تهجين بين جنسين من الفصيلة الجميلة المتمثلة في اللاما والجمل، وبالتحديد الجمل ذو السنام الواحد. فقد أجريت العديد من التجارب في هذا المضمار ولم تكلل بالنجاح إلا واحدة منها أجريت في عام 1998، في مركز أبحاث الإبل في دبي، وقد كتب لها النجاح بين جمل عربي وأنثى اللاما، ويحمل اسم راما وهو الاسم الذي أطلق على الهجين وقد حمل 60 % من صفات والده، و40 % من صفات الأم الأنثى حيث ورث عن أمه حجمها الصغير مقارنة بالجمل العربي وشكل قوامها في عدم وجود سنام ■

سلمى حمد المري:
تتسم أعمالي بالوجدانيات وغورها في أعماقي

هشام أزكيض

تتعدد الرؤى والمداخل الفنية لدى الفنانة التشكيلية الإماراتية سلمى حمد المري، فكل ما يحيط بنا من لوحاتها الفنية يحيل صراحة إلى أن الفن بنظرها لا يبتعد عن كونه جوهر النفس ولغة الذات للإفصاح عن مكنونات الإنسان وخوالجه وهواجسه وإرهاصاته.

ولدت الفنانة التشكيلية الإماراتية سلمى حمد المري عام 1962 في إمارة «رأس الخيمة» ودرست الفنون الجميلة في القاهرة، وحصلت من جامعة حلوان - بالزمالك، في جمهورية مصر العربية - على بكالوريوس فنون جميلة عام 1985م، وعملت في وزارة التربية والتعليم مابين الأعوام (1986-2006)، وتسلسلت وظيفياً من «التدريس، إلى موجهة تربوية، إلى موجهة أولى..».

أقامت سلمى حمد المري معارض شخصية عدة، وشاركت في العديد من المعارض والملتقيات الجماعية المحلية والدولية في كلٍّ من نيويورك وفرنسا واليونان واليابان ومصر وتونس والمغرب وإيران واليمن والكويت وقطر. وفي عام 2016م أصدرت كتابها «ثبات» الذي يوثق مسيرتها وأعمالها الفنية التي تثير تساؤلات طرحنا بعضها عليها في هذا الحوار الذي أجريناه معها:

- بداية: هل تذكرين بعضاً مما يتعلق بشغفك في مراحل دراستك الأولى؟

ما أذكره هو حصص التربية الفنية وترقبي الأسبوعي إليها، وتعلقي بمعلماتها، والجدران بين الفصول التي غطيناها بقاع البحر نحن الصغيرات بألوان «التمبرا» التي كانت توفرها لنا دولة الكويت حين ذاك مع كل متطلبات التعليم، والمشاركة في المعارض السنوية التي ترافق مناسبة عيد الأم عادة، وخوضي العديد من المسابقات الدولية مثل مسابقة «شنكر» القادمة من الهند، وأخرى من هولندا، ومسرح العرائس من خلال تنفيذ الدمى والتمثيل، والاشتراك في تقديم مسلسل إذاعي خاص بقصص الأطفال بإشراف القديرة روضة المطوع والمخرج سامي بدران - رحمة الله - عليهما، وذلك أثناء افتتاح إذاعة رأس الخيمة بمبناها المتواضع جداً.

- نعود إلى البدايات، هل كان من السهل في الثمانينيات أن تختاري دراسة الفنون الجميلة في القاهرة، بعيداً عن وطنك؟

في ذلك الوقت لم يكن في جامعة الإمارات كلية للفنون الجميلة، وبمساندة والدي لمعرفته بشغفي، توجهت إلى القاهرة، والتحقت بجامعة حلوان، كلية الفنون الجميلة ومقرها حي الزمالك العريق، إن أردت الحق، فإنني لم أشعر بالغربة، فقد كانت مصر في جيلنا موجودة في كل فصل دراسي وفي كل بيت ومجتمع خليجي وعربي، بمعلميها وشتى فنونها العظيمة، تشربنا حياتها الاجتماعية وحياة أدبائها ورواياتهم، تجولنا هناك ونحن نعرف الأزقة نحفظها عن ظهر غيب من خلال محفوظ، ومحمد عبد الحليم عبد الله، وإدريس، والسباعي، والسعداوي وغيرهم، نحن هناك اندمجنا في المجتمع المصري وعشقناه

وأرضه، كما أن دولتنا الفتية الإمارات العربية المتحدة، من خلال سفارتها وملحقياتها الثقافية والصحية قدمت لنا الدعم والاهتمام الكامل فقد وفرت لنا سكناً للطالبات ونادياً ثقافياً يجمع بين الطلبة والطالبات.

- أثناء دراستك للفنون الجميلة، أخبرينا عن أبرز الأساتذة والفنانين الذين تركوا أثراً في تكوينك الفني؟

كان لأستاذي الدكتور الفنان حامد ندى بالغ الأثر في أهمية أن يكون الفنان متفرداً، ذا مصداقية في فنه، ومخلصاً لأدواته، متفحصاً لما حوله، باحثاً عن الضوء والظل حتى في ذاته، متعاطفاً مع مفردات بيئته ومعطياتها، تتوهج الأصالة في أعماله فتتقد روحه شغفاً، ومن خلال ذلك يستطيع أن يكسر الجمود ويفتح مصراعي الخيال والإبحار في وجدانه، والبحث والتجريب للوصول المتجدد لبصمة خاصة به مهما تنوعت أساليبه أو مفرداته، منفتحاً على الآخر وثقافته.

- من الملاحظ أن أعمالك الفنية ذات فلسفة تعبيرية، هل تنتمين إلى مدرسة فنية خاصة، وما هي أبرز سمات أعمالك الفنية؟

عندما أعمل، لا أضع باعتباري إلى أي مدرسة فنية سأسلك،

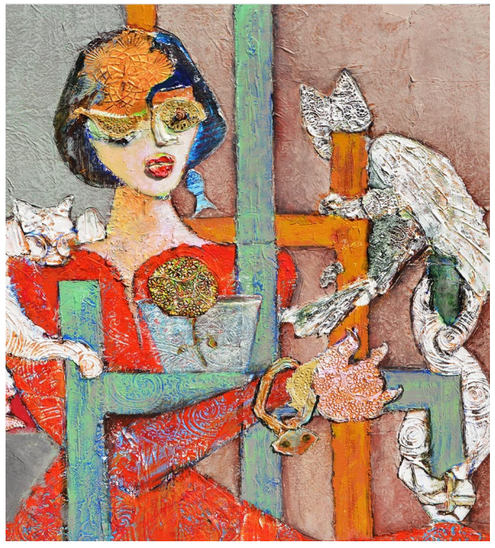

فقط أترك لنفسي الحرية للتدفق، ومع الوقت يكون لديّ أسلوب خاص، لا أنحو إلى تسميته وتحديده في بوتقة المسميات، تركت لنفسي العنان بالتعبير عن المحيط العام والخاص، وكم نجوت من تبعات الحياة وتجاوزت الكثير من خلال محترفي وأعمالي الفنية، دعني أسميها فيما يتعلق بي بأنها (سردية).

تتسم أعمالي بالوجدانيات وغورها في أعماقي، وكأن الملامس التي ميزت سطوحها، كانت نتيجة عمّا ما زخرفته الحياة وأفعالها بحلوها ومرها على امتداد تجربة العمر.

***هل تجسد لوحات أعمالك ذاكرة الوطن؟**

في مجموعة (حكايا الأرض) دمجت الآثار بكل تعدد عصورها (الحجري، والحديدي، والبرونزي، وفترة ما قبل الإسلام وما بعده) والبيئة بحمولتها المتنوعة والأسطورة والنقود التي تم تداولها في المنطقة بشكل عام قبل قيام اتحاد الإمارات.

فجدارية (حديث الهدهد) تكونت من «39» قطعة تتوسطها لوحة مركزية، تشير الأخيرة إلى النظرة المستقبلية لأهالي هذه الأرض المعطاء، وقد بدا الشخص المحلي الظاهر فيها مكللاً ببعض النماذج الأثرية من المصوغات الذهبية التي تم اكتشافها بساروق الحديد الأثري، ويتضح ذلك في قرون الثور والقلادة، وأما القطع المحيطة بها فإنها تحمل مفردات متنوعة من الآثار المكتشفة على أرض الدولة على مر العصور، وكذلك بعض العملات المعدنية الأولى التي تلت بزوغ شمس الاتحاد. وقد بحثت في العملات المتداولة قديماً في المنطقة، ومنها الدراخما الإغريقية والرومانية، وعملات السلطان برغش وكذلك عملة تحمل اسم القائد الإسلامي المهلب بن أبي صفرة وغيرها الكثير، وهناك عملات تم تداولها في القرن الثامن عشر حيث كانت الإمارات المتصالحة واقعة تحت الحماية البريطانية، وتم استخدام الروبية التي أصدرتها شركة الهند

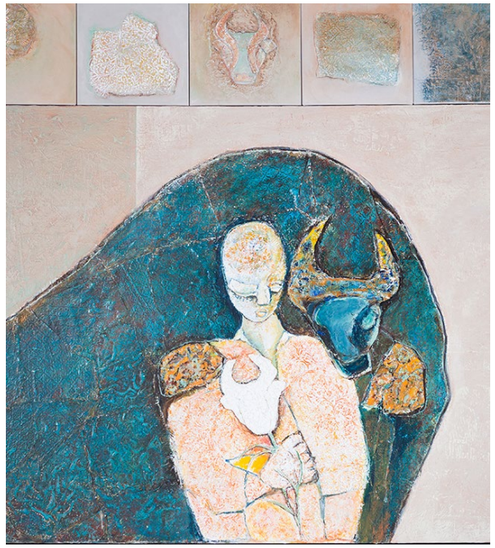

الشرقية، وعملات مشتركة بين البحرين وأبوظبي وقطر ودبي والحديث عن هذه العملات يطول وكذلك في مجموعة (أهازيج وجدانية) كانت الذاكرة الوجدانية تستمد نتاجها من العادات والتقاليد والسرديات.

- أي متتبع للوحاتك يلحظ أن لديك أسلوباً خاصاً، أما الألوان الموظفة فهي تثير الانتباه أكثر فأكثر فما طبيعة الألوان التي استعملتها في لوحاتك وما دلالتها؟

الألوان المستخدمة في أعمالي هي ألوان الأكريلك، والنتيجة التي توصلت إليها كانت من بعد تجارب تراكمية، عملت على أن تكون بسماكات مختلفة، الغائر والبارز فيها متبايناً، كما أن ملمس العمل الفني على سطح اللوحة متنوع التفاصيل، يخدم العمل الفني والمغزى منه، وجدت أنها تحرك الراكد حتى في إحساسي واندفاعي للمجموعات التي عملت عليها، فهي تُحدث لديّ دهشة وشغفاً للمواصلة في إبراز إمكانياتها في تحقيق الاختلاف أكثر مما كنت أصبو إليه في البداية، هي كالخيط الذي تبعته دون أن أعلم متى سأتوقف، ويحدث أن يأتي الجواب وأنا أضع توقيعي على العمل.

- حدثينا عن حضور الحيوان والطير والنبات في لوحاتك وبعض الأسرار التي دفعتك إلى توظيفه؟

من الطبيعي أن يتفاعل الإنسان مع عناصر الطبيعة والكون من حوله فهم شركاء في الحياة، فما بالك بالفنان، ففضاء قلبه مضاعف الالتقاط، وكثيراً ما يؤنسن الكائنات من حوله لدرجة التجانس مع آدميته، فلا يوجد عمل من أعمالي دون أن تكون هذه العناصر جزءاً منها، وعلى المستوى الوجداني يكون لها علاقة مباشرة، وقد تتكرر في أعمال عدة لدلالتها الخاصة والمباشرة أو الرمزية منها فمثلاً (زهرة النرجس) تتقد في روحي كقنديل، فحكايتي معها وأسرتي ضارب في معنى الدفء الأسري، فقد رافقت حياتنا كجزء لا يتجزأ منا، فلا نفتأ

نحمل بويصلاتها لتنتشر في كل أركان الفناء، ننتظر بشغف حلول موسمها لتتفتق أكمامها، فهذه الزهرة قمة تفتحها تكون في المساء، عمرها قصير لا يزيد على ثماني عشرة ساعة وأثر شذاها وجمالها كبير، فينتشر عبقها في أعطاف البيت وجنابته، وجودها مرادف للاستقرار والهدوء، رائحتها العطرية توقظ الحواس وتثير الحنين، وعندما رحل رفيق عمري (الدكتور علي بن شكر) كان موسم تفتحها، ماجت بي الدنيا وأخذت مني مأخذها، وجدتني في فترة الحداد تتكاثف في أعمالي وتؤازرني وتندمج مع الكائنات الرمزية الأخرى مثل الثور الذي برز كذلك بشكل قوي في عدد كبير من أعمالي، ويتضح ذلك جلياً في مجموعة (حضور)، وهناك جدارية (حديث الهدهد) ورمزيته الأسطورية ونظرته المستقبلية لما سيكون لدولة الإمارات العربية المتحدة من شأن عظيم، والكثير الكثير من الكائنات التي أثبتت حضورها الجلي في أعمالي.

- يحكي كتابك «ثبات» سيرتك الفنية، فمتى شرعت في إنجاز هذا العمل؟ وما أهميته؟ و ما معنى مسمى (سنيار) الذي اقترن به؟

تزامن كتابي (ثبات) مع افتتاحي لسنيار جاليري في حي دبي للتصميم عام 2015، وعملت جاهدة أن يبرزا للنور سوياً، لما كان من هدف قد وضعته نصب عيني وعليّ تحقيقه.

وكلمة «سنيار» هي كلمة تستخدم في الخليج مرتبطة بقوافل السفن التي تتزامن سوياً في موعد الإبحار، حتى إنها انتشرت كمرادف للأمان مثلاً، فإن أردنا الخروج كل بعربته متجهين للمكان نفسه فنقول: فلنخرج «سنياراً».

حمل الكتاب نماذج من مجموعاتي الفنيه مثل (أهازيج وجدانية، مركز اهتمام، بعض مني ومنهم، ذبذبات، حضور، حكايا الأرض، النقود، وغيرها).

- يلاحظ أن مجموعة (بعض مني ومنهم) ترافقت مع نصوص شعرية، حدثينا عنها؟

هذه المجموعه أتت عبارة عن اسكتشات لونية سريعة على القماش، كنتُ أريق اللون عليها كالماء، يحمل طابع الشفافية، واقترنت بعدد من الشعراء من خلال جزء من نصوصهم (محمود درويش، نزار قباني، أحمد راشد ثاني، غادة السمان، بروين حبيب، محمود صالح).

- اختيارك للفن التشكيلي لم يكن ترفاً كما يبدو من خلال مسارِكِ الإبداعي، فما هو جديدك؟

أعمل حالياً على الربط بين كتاباتي الأدبية وربطها بالتشكيل، فلننتظر عمّا سيسفر الأمر ■

كاتب وقاص مغربي

الأم في ميزان الشعر

خالد صالح ملكاوي

عين الحقيقة أن نعترف بأن الأم هي مَنْ بذلت حياتها وأفنت شبابها، وسخَّرت قوتها وعزائمها من أجل الأبناء، بل كانت السبب في وجودهم، وأولَتهم كل العناية والرعاية والحب، وبذلت من أجلهم الغالي والثمين، وافتدتهم بروحها، وآثرتهم بالحياة على نفسها، وفرحت لفرحهم وتألمت لآلامهم، ووضعت فيهم جُلَّ آمالها.

وليس ثمة من يجهل تعظيم البرّ بالأم بخاصة، وبالوالدين بعامة، وبضرورة الإحسان في معاملتها وخدمتها، سيما وأن الإسلام ارتقى بها، فجعل برّها من أصول الفضائل، وعظَّم الإحسان في معاملتها وخدمتها، وأكد الذكر الحكيم والهدي النبوي الشريف الوصية بها، وجعلها تالية للوصية بتوحيد الله وعبادته. وبما أن الشعر تعبير عن وجدان مبدعيه وآلامهم وأحزانهم وآمالهم، ونبضٌ لما يدور في نفوسهم من وحي تجاربهم الخاصة، أو من معايشتهم لواقع الإنسان في مجتمعاتهم بمفردات حياته، فقد احتلت الأم المكانة الأسمى في نفوس الشعراء.

وفي الإمارات حفِل الشعر النبطي بعظيم الإشادة بالأم وذكْر أفعالها، وفاضت إبداعات الشعراء بقصائد وأشعار تبوح بمشاعرهم تجاه من جعلها المولى أحق الناس بعطفهم واحترامهم وحنوّهم، وأَولى الخلق ببرّهم.

عطاء لا يُدانى

ثمة إقرار من الشعراء كافة بأن الأم تستأهل من الأبناء بذل كل ما استطاعوا من سبل للبرّ بها والوفاء لها، والسعي لنيل رضاها، وثمة اعتراف أن الأدوار كلها التي يقوم بها الأبناء، مهما تنوّعت واكتملت، لن ترقى إلى بعضٍ من فضائل الأم وأدوارها التي أفنت فيها عمرها تجاه الأبناء، ولن توفيها جزءاً يسيراً من حقها. وقد أوجز الشعراء في ذلك وأقرّوا واعترفوا، فها هو علي الخوّار يترك نفسه تفيض تجاه أمه، إذ يقول:

أمـي يا أمـي يا كـل الحب يا امّايـه
يا شمـس دنيـا الوفا يا مقلة عيونـي
أملي بشوفـك يا أغلى الناس دنيايـه
واجلـي بكل ابتسامـه منّك شجونـي
في برد وقتـي ألاقي حضنـك دفايـه
واشعـر بأن الربيـع يعود لغصونـي
لمـسة يدينـك حنانٍ ما له نهايـه
يمسح عنا الوقـت من قلبي ومن كونـي
لو كنت أنا أقـدر أحقّق بعض منوايـه
باسكّنـك في عيونـي واغمض جفوني
لكنّ هـذا بحقّـك مـا هو كفايـه
كل يوم يكثـر عطـاك وتكثر ديونـي
أنا بدونـك حـياةٍ ما لها حايـه
تمضـي وسعـد الليال يمرّ من دونـي

لا احرمنـيَ الله منّك يوم يا امّايـه
ياكـل عمـري ويا نـورٍ ملا عيونـي

وكذا يفعل سالم الزمر، إذ يعترف بالقول:

لو ناخـت ركابـي على بابهـا سنيـن
تَلْثِـم ثرى الاقـدام والقلـب مَدْمِـي
مانـي بجازيهـا من العِمـر يوميـن
لحظـة ألم منْهـا بدمّـي ولَثمي

ويقرّربيع بن ياقوت بعجزه عن أن يكافئ أمه ويجزيها، إذ يقول

الأم مـن يسواهـا
مـا شـوف لهـا نظيـر
ما نطلـع مـن جزاهـا يـا
والـي التدبيـر

وكذا يفعل راشد بن سالم بن مسلم المنصوري، فيقول:

والام الحبيبـه بلطف الهرج عاشرهـا
ولو تضربـك بالعـصا لا تلتفت فيها

والأمر عينه لدى علي بن سلطان بن بخيت العميمي الذي يقرّ بالعجز، إذ يقول:

انته عليـك الجهد واسباب طاعاتـك
وامّـك ع كل يوم صبّحهـا ومسّيهـا
كانك مقصّـر تقصّى اقْصور حسناتـك
الحقّ لأمّـك ولا تـقدر توفّيـها

نصائح وتخصيص

يُخلِص محمد بن عايض بن هادي الأحبابي في ذؤابة نصحه للأبناء وحثّهم على برّ الوالدين تأسيّاً بما أمرنا به ديننا الحنيف، ويَخلُص إلى إفراد مكانة خاصة من نصحه للأم، يقول الأحبابي

نصيحـةٍ للـي فـواده فطينـي
اصغوا لها ياهـل العقول الرشيـده
اخفـض جنـاح الذل للوالدينـي
أكرم وعامـل بالصفـات الحميـده
الفضـل للـه ثـم للوالديـني
وصّـى بهـم من قبـض الأرواح بيـده
وصّـاك فيهـم سيّد المرسلينـي
وصّـى عليهـم بالوصايـا الوكيـده
اللـه لطايـع والدينـه معينـي
وفي الآخـره ملكٍ حـدوده مديـده
ومـن عقّهـم يصبح مع الخاسرينـي
في موقـفٍ يثنـى عقالـه وقيـده
ما ينكـر المعـروف رجل ذهينـي
من بـار بالمعـروف لا ربـح فيـده
خلّك لهـم ما دمـت حصنٍ حصينـي
وإذا حصـل منـك خطـأ لاتعيـده
وادْع لهـم في هجعـة النايمينـي

خـــلّك لأحدهـــم حـــجةٍ في رصيـــده
كـــم ليلـــةٍ تشبـــع وهـــم جايعينـــي
عليـــك لاوْا في الوقـــوت الشديـــده

ويختم الأحبابي بالتأكيد على ما يخصّ الأم من حصة زائدة في تمجيد عطائها السخي وتضحياتها الكبيرة وتفانيها، فيقول

وكـــم ليلـــةٍ تمرض وهـــم ساهرينـــي
صحتـــك عنـــد امـــك ليالي سعيـــده
ما في الوجـــود اشفـــق من ام الجنيني
الحـــب واضـــح والفضائل عديـــده
نينـــك وما جـــا منك تجعله زينـــي
تكبّـــدت لـــجلك الامـــور المكيـــده
الام مـــا تنـــساك طول السنينـــي
لو كـــان دارك عن ديرْهـــا بعيـــده

ويوصي محمد بن حمد الفرنكح المري ولده بأمه، فيقول:

عليك لأمـــك يا حمـــد واجـــب عـــود
عليـــك لا تنـــساه لـــين المماتـــي
سهرانـــة الليـــل لا ســـرت مجهـــود
يرقـــد بها الســـالـــي وهي ما تباتـــي

حقوق وواجبات

يشرح ربيع بن ياقوت سيرورة أيامه بفلاحها وعثراتها، ويربط ذلك بمدى رضى أمه عنه أو غضبها منه، فإن هي نفرت من بعض سلوكه أو مواقفه تعثَّرت خطواته وتكدَّرت أيامه، وإن رضيت عنه فتحت له أبواب الرضا عند رب الرضا وجلبت له التوفيق والفلاح، وهي في الأحوال كلها لا تتوقف عن أن تلهج في كل صلواتها بالدعاء إلى الله بأن يهدي ولدها إلى سواء السبيل، وهي لا توقف مساعيها في دفع ولدها إلى اكتساب العلوم الدينية والدنيوية أيضاً، يقول ابن ياقوت:

ربـــي يرضـــى عليّـــه
بأسبـــاب إنْهـــا رَضَـــت
وإذا تزعـــل عليّـــه
دنيـــايَـــه واظْلَمَـــت
تدعـــو لـــي بالهديّـــه
لـــي صلّـــتْ واسْجَـــدَت
ودّتنـــي للقريّـــه
وللتعليـــم احْرَصَـــت

وينبّه ابن بخيت العميمي إلى حقوق الأم التي يجب ألا تغيب عن البال، بل ينبغي أن ننشغل بها تماماً كما ننشغل بفرائض صلواتنا، ويحذّر من مغبة التقصير في ذلك، إذ يقول:

مهوب واجـــب تفرّط في مهمّاتـــك
لها حق واجـــب شرا فُروضٍ تصلّيهـــا
واصْبح لك اليوم في حالـــة مراعاتـــك
قليل ناسٍ تعـــرف حقـــوق أهاليهـــا
خسران خســران كان احسانهـــم فاتـــك
ولـــي يبْحد الزيـــن يخســـر في تواليـــها ■

باحث وإعلامي مقيم في الإمارات

المصادر والمراجع:

1. ديوان ابن بخيت، للشاعر علي بن سلطان بن بخيت العميمي، إعداد وتحقيق: راشد أحمد المزروعي، أبوظبي، بيت الشعر في نادي تراث الإمارات، 2011م.
2. ديوان ابن مسلّم، للشاعر راشد بن سالم بن مسلم المنصوري، جمع وإعداد: فالح حنظل وآخرون، أبوظبي، لجنة الشعر الشعبي في نادي تراث الإمارات، الطبعة الأولى، 2003م.
3. ديوان ربيّع بن ياقوت، للشاعر ربيّع بن ياقوت بن جوهر النعيمي، إعداد وتحقيق: راشد أحمد المزروعي، أبوظبي، دار التراث الشعبي، الطبعة الأولى، 2018م.
4. ديوان نايفات القوافي، للشاعر محمد بن عايض بن هادي الأحبابي، إعداد ومراجعة: راشد أحمد المزروعي، أبوظبي، لجنة الشعر الشعبي في نادي تراث الإمارات، الطبعة الأولى، 2008م.
5. الشعر الشعبي في دولة الإمارات العربية المتحدة، جمع وتحقيق: سعيد سلمان أبو عاذره، أبوظبي، مركز الوثائق والدراسات في وزارة الخارجية، (د.ت).
6. على جمر الغضا، سالم الزمر، دبي، مركز حمدان بن محمد لإحياء التراث، الطبعة الثانية، 2014م.
7. معزوفات على قصائد نبطية، قراءة نقدية في (80) قصيدة نبطية، أبوظبي، أكاديمية الشعر في هيئة أبوظبي للثقافة والتراث، الجزء الأول، الطبعة الأولى، 2009م

الشاعر محمد بن صنقور (1920-2020)

أحد رواد الشعر في دولة الإمارات

مريم النقبي

الشاعر محمد بن جمعة بن صقر (ابن صنقور) أحد الشعراء الرواد في دولة الإمارات العربية المتحدة، ولد في عام 1920 في منطقة (لِيْمَحَه) في بر أم القيوين، وتوفي في عام 2020. ذكر الباحث الدكتور راشد المزروعي أن والد الشاعر كان يدعى «صنقور»، ولذلك ارتبط هذا الاسم بالشاعر، وصار يعرف باسم «ابن صنقور» نسبة إلى والده.

عاش ابن صنقور بداية حياته في بادية أم القيوين، وتمرّس في حياة البداوة، وركوب الإبل والقنص ومرافقة الرجال، حتى كبر فانضم إلى مرافقي المرحوم الشيخ أحمد بن راشد المعلا حاكم إمارة القيوين الأسبق. مارس ابن صنقور مهنة نقل «الجريّات»، أي نقل المصطافين على ظهور الإبل إلى مناطق الواحات الزراعية كفلج المعلّا والباطنة في سلطنة عُمان وغيرها، ثم انضمّ إلى العمل في مهنة الغوص على اللؤلؤ، وكان ذلك في الأربعينيات من القرن الماضي، وقد عرف عن شخصيته الطيبة وكرم الأخلاق ما أكسبه احترام الجميع. انتقل شاعرنا من أم القيوين إلى دبي، وانضمّ إلى مرافقي الشيخ سعيد بن مكتوم حاكم دبي الأسبق، ثم عمل مع الشيخ راشد بن سعيد آل مكتوم - رحمهما الله - وقد تزوّج هناك واستقرّ في منطقة جميرا. ويذكر الرواة أنه كان للشاعر ابن صنقور قصائد على كل لسان، يحفظها الجميع، وذلك في منتصف الأربعينيات، كما كان عضواً في مجلس شعراء تلفزيون دبي، بصحبة كبار الشعراء أمثال: الجمري، والهاملي، وابن سوقات، ودارت بينهم العديد من المساجلات الشعرية. تميزت قصائده بالجزالة وحسن الصياغة، وكتب في معظم الأغراض الشعرية مثل: الغزل، والمدح، والمشاكاة، والاجتماعيات وغيرها، وجاءت معظم قصائده بأسلوب الرّدح، والونّة، وقليل منها بأسلوب المقالات، كما اشتهر بالقصائد المربوعة والمثلوثة، وهي الأساليب المميزة لديه.

صدر للشاعر ديوان شعري بعنوان: «ديوان ابن صقر» عن نادي تراث الإمارات عام 2012 بجمع وتحقيق الباحث الدكتور راشد المزروعي ضم معظم قصائده، ومنها قصيدة «عاشت الإمارات»:

عاشت الإمارات يسلم ريّس الدولـــة
وعاش اتحـــادٍ نعـــدّه عَدّ لجْيالي
الله يرحـــمه من ذا صار مفعولـــه
لي لمّ شـــمل اتحاد وْخلّف ارْجالـــي
تعاهـــدوْا عهد عدّ اسْنين مدّبولـــه
زايد وراشـــد رحمهم ربي العالـــي
إلْهم كلامٍ سمعتـــه ماحدّ ايْقولـــه
رفرف علمهم وْعلاً في السمـــا عالي
خلّوا الإمارات تبقـــى دوم ماسولـــه
عن ديرةٍ كد بداهـــا الخطف زلزالي

وله قصيدة أخرى :

يا الحمامـــه خذتـــي فـــوادي
مـــن غنـــاك اللـــي تغنّينـــه
مـــن سمعتـــك فوق لَعْـــوادي
نذكـــره لـــي عـــاد ناسينـــه
واحترمـــت النـــوم وارقـــادي
والمعـــاش اللـــي مسوينـــه
آه أنـــا ونّيـــت واهـــوادي
مـــن فـــراق اللـــي مودينـــه ■

شاعرة وباحثة إماراتية

«10 فبراير» دخول موسم العقارب

وهو من المواسم التي تتيمن بها العرب

إبراهيم الجروان

موسم العقارب آخر مواسم الشتاء، يبدأ مع طلوع منزلة «سعد الذابح» أو كما يسمونها «العقرب الأولى» وتطلع من الجهة الشرقية فجر 10 فبراير (وبعض أهل التقويم يجعل طلوعها في 5 فبراير) وتشمل المنازل أو الأنواء «سعد الذابح» العقرب الأولى، «سعد بلع» العقرب الثانية، «سعد السعود» العقرب الثالثة ولكل منها 13 ليلة، ويستمر قرابة أربعين يوماً إلى 20 مارس. وهو من المواسم الانتقالية بين فصلي الشتاء والربيع والتي تتغير الأجواء فيها من البرودة إلى الاعتدال ثم الدفء وبداية الحر.

وخلال فترة «سعد الذابح» ابتداء من 10 فبراير تكون الأجواء امتداداً لبرد الشتاء، ثم «سعد بلع» ابتداءً من 23 فبراير تتضح فيه الاعتدال وتقلب الأجواء، وأخيراً «سعد السعود» يبدأ في 8 مارس، ويكون بدء الدفء نهاراً هو السمة السائدة. ومع طلوع منزلة «سعد الذابح» أول نجوم «العقارب» يوم 10 فبراير.

بطلوعه يجري الماء في العود وهو الوقت الأمثل لغرس فسائل النخيل وأغلب أصناف الأشجار، ويصلح لتعقيل النباتات وإكثارها بالعقل، وتطعيم أغلب أصناف الأشجار، وزراعة الخضروات في الحقول المكشوفة للعروة الزراعية الربيعية وأول الصيف، تزهر فيه أغلب أشجار الفواكه ويظهر الورد.

وفي بداية فترة العقارب تتعرض المناطق الشمالية من الجزيرة العربية للصقيع ويعرف أهل منطقة الجوف، والمنطقة الشمالية بشكل عام، ما يسمى بصقيع فبراير أو«صقيع شباط» خلال الأسبوع الأول والثاني من شهر فبراير، ثم تكون في وسطه «أيام الحسوم» الفارقة بين انسلاخ البرد وقدوم الدفء، وأوان «برد العجوز»، الذي يكون في عجز الشتاء وآخره في النجم الثاني منه، ومع نهايته تدخل الأجواء الدافئة وتنشط «السرايات والاضطرابات الربيعية» في النجم الأخير من نجوم موسم العقارب.

قيل سمي بـ«العقارب» لأنه خلال موسم العقارب تكون «كوكبة العقرب النجمية» في صدر السماء فجراً، وقيل «لتناوب لسعاتها الباردة والدافئة»، ويقال «لا دخلت العقارب.. ترى الخير قارب» حيث تهطل الأمطار ويبدأ الربيع، وتزدهر المراعي وتتفتح الأزهار، وينشط النحل، وتزداد خضرة البر بأجمل الصور الطبيعية. وأنشدت العرب الكثير من القصائد في هذه الفترة التي يتفاءلون بالخير خلالها..

ومنها قول الشاعر يعقوب المطيري:

السيل يا سدرة الغرمول يسقيك
من مزنة هلت الماء عقربيه
يا ما سرى الليل في حراويك
عجل و اخاف القمر يظهر عليه

ويقول راشد الخلاوي:

«فيالله بتالي العقربيات سيله
يفرح بها راعي السواني الهزايل»

وفي الفترة نفسها تقريباً يكون موسم (الأربعين العقربي) مع در الثمانين، أربعين يوم تبدأ بحدود 6 فبراير وتنتهي في 17 مارس تتميز بغزارة الأمطار وشموليتها أي إن مطرها يكون أعم، ويشمل مناطق واسعة، يقال (العقربي تسقي بر وبحر)، كما تتميز بنشاط رياحها وتقلبها بين شمال (شمالية غربية) ويا هي (شمالية) ونعشي (شمالية شرقية) وسهيلي (جنوبية غربية)...

يقول الشاعر:

يعل دار الزين ما يبس ثراها
وترتوي يارب بالخير الفضيل
ويعل سيل العقربي يروي ضماها
لي ينبت سيحها وردٍ جميل ■

رئيس مجلس إدارة جمعية الإمارات للفلك
عضو الاتحاد العربي لعلوم الفضاء والفلك

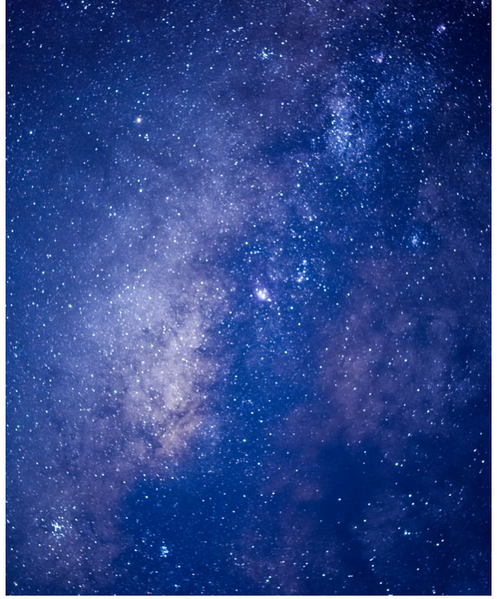

«أيام العربية» على البال

فاطمة حمد المزروعي
كاتبة وباحثة من الإمارات

اختتم مركز أبوظبي للغة العربية بدائرة الثقافة والسياحة، العام الماضي بمهرجان «أيام العربية» في منارة السعديات، الذي أقامه بالتزامن مع اليوم العالمي للغة العربية الذي يوافق 18 ديسمبر من كل عام، وقد جاء الاحتفال هذا العام تحت الشعار الذي وضعته اليونسكو «اللغة العربية لغة الفنون والشعر».

وهذه هي المرة الأولى التي يقام فيها هذا المهرجان، فجاءت انطلاقته قوية مشجعة على المزيد من المبادرات للاحتفاء بلغتنا العربية. تنوّعت الفعاليات ما بين مؤتمر وورش مختلفة وفعاليات صباحية وأمسيات أدبية، إضافة إلى ليالٍ طربية، انتظمت كلها حول دور اللغة في الفكر والثقافة والفنون والحياة بشكل عام، وشارك فيها أعلام الأدب واللغة والثقافة والفن التشكيلي الغنائي والدراما.

وحظي المهرجان بتغطيات إعلامية متنوعة ومتعددة لفعالياته المميزة، لكني سأتوقف عند فعالية واحدة، وهي «موقد النار»، الحظيرة كما يسمّيها أهل الإمارات، لكن ما المميز فيها الذي جعلني أتوقف عندها؟ موقد النار يذكرنا بليالي الشتاء الطويلة حول النار، حيث يتجمع الأهل والأصدقاء، في أجواء الشتاء الباردة، من خلال السمر والسهر حول النار المتقدة، التي تنعكس على الوجوه نوراً ودفئاً. وفي تجربة جميلة تحت سماء أبوظبي، جاءت الفعالية لنتذكر بها الأجداد، ولياليهم في الصحراء والجبال وحديث السمر بما فيه من حكايات وطرائف، تنتقل جيلاً بعد جيل.

في موقد النار في مهرجان أيام العربية، كان الحطب يُزاد كلما احتاجت النار والجالسون تدار عليهم القهوة العربية والتمر والشاي بالحليب «الكرك»، وحتى البسكويت. اجتمع الشباب بالخبراء، والتقوا وتحاوروا في موضوعات مختلفة، عن الحكايات وكيف سافرت عبر المكان والزمان خلال رحلة الإنسان على هذه الأرض؛ حكايات متشابهة في أصلها وروحها، مختلفة في لباسها وتفاصيلها، حسب المكان الذي استقرت فيه. بعض أصول هذه الحكايات يعود إلى حضارات قديمة سابقة، وبعضها من التراث العربي أو الإنساني بشكل عام. ومن خلال هذه الدراسة يمكننا أن نجد روابط وتشابهاً بين هذه الحكايات، لا نقدر أن نجزم في النهاية بأيّها أسبق؛ لأن موضوع الأصل الأول من الصعب إدراكه، ومن ثم يجب ألا يكون هذا هدفاً للباحث. استمعنا لتجارب تعاين الحاضر، وكيف يمكن للغة أن تزدهر فيه أكثر فأكثر، من خلال تجارب رواد وسائل التواصل، وعلاقتهم باللغة العربية. بعض حوارات موقد النار ذكرتني بأدب السمر عند العرب، والسمر هو حديث الليل، الذي يحلو حول النار، نار الفضول إلى المعرفة، بما فيها من متعة استماع لتجارب من حيوات الآخرين، بإدراك ما فيها من قيمٍ ومعانٍ. سمر فيه علم ومعرفة، من خلال حكايات واقعية تاريخية وأساطير وخرافات وقصص عن الأمم السابقة البائدة، التي لا يظن أنها تركت كتباً أو آثاراً، لكن هناك من أعاد خلق حكاياتها وأيامها. أدب السمر ظهر لدى العرب في فترة ما قبل الإسلام واستمر على مدار العصور اللاحقة، دوّنته الكتب الأدبية مثل: الحيوان، والبيان والتبيين، والكامل في الأدب، والعقد الفريد، وكليلة ودمنة وغيرها. إضافة إلى الكتب التي تناولت موضوعات مثل: البخلاء، الحمقى، الأذكياء، قصص الحب والغرام. وتضمنت هذه الكتب إلى جانب القصص الأشعار والنوادر والسير والتراجم.

فما أجمل أحاديث السمر التي كانت بين الشباب والأدباء والعلماء حول «موقد النار» ■

هيئة أبوظبي للتراث
Abu Dhabi Heritage Authority

إعلان طباعة كتب

وَضَعت هيئة أبوظبي للتراث خُطّةً لرفد المشهد الثقافي الإماراتي بإصدارات متنوعة تَخُصُّ تراث الإمارات وتاريخها؛ قَصْدَ إغناءِ المكتبة التراثية الإماراتية، وفَتْحِ منافذَ معرفيةٍ جديدةٍ أمام الباحثين، وتدعوهم إلى طباعة كتبهم وتسهيل نشرها، ليشارك بها في المعارض والفعاليات الثقافية. ويُقدِّمُ لمؤلِّف الكتاب مكافأةً مالية تتراوح بين (10000 - 15000 درهم إماراتي).

شروط النشر:

- أن يَتّصف موضوع الكتاب بالجِدّة، والموضوعية، وشمول المعالجة، والفائدة المعرفية.
- ألا يكون الكتاب منشوراً سابقاً، أو مُقدَّماً للنشر في جهة أخرى.
- أن تكون لغةُ الكتابِ العربيّةَ الفصيحة المُصحَّحة لغوياً.
- ألا يكون الكتاب مترجَماً.
- أن يلتزم الكتاب بالمنهجية العلمية في التأليف، والأمانة العلمية، والنهْل من المصادر الأصيلة، وتدوين الهوامش أسفلَ كلِّ صفحة.
- أن تُدوَّن المصادر والمراجع في نهاية كل كتاب.
- أن يُرسَل الكتاب بصيغة الوورد، مرفَقاً بملخَّص من نحوِ مئتي كلمة باللغة العربية، وبنبذة مختصرة عن سيرة المؤلِّف العلمية.
- أن يكون عدد كلمات الكتاب بين 30 و70 ألف كلمة.
- تَتَولّى هيئة تحكيم مختصة مراجعةَ الكتاب وتقييمَه وإصدارَ قرار نهائي بشأن طباعته خلال شهرين من تاريخ إرساله. وفي حال الموافقة، يلتزم الكاتبُ بإجراء التعديلات المقترحة.
- مدة العقد خمس سنوات.
- تُرسَل الكتب بصيغتَي Word وPDF إلى الإيميل التالي: torathbook@ehcl.ae

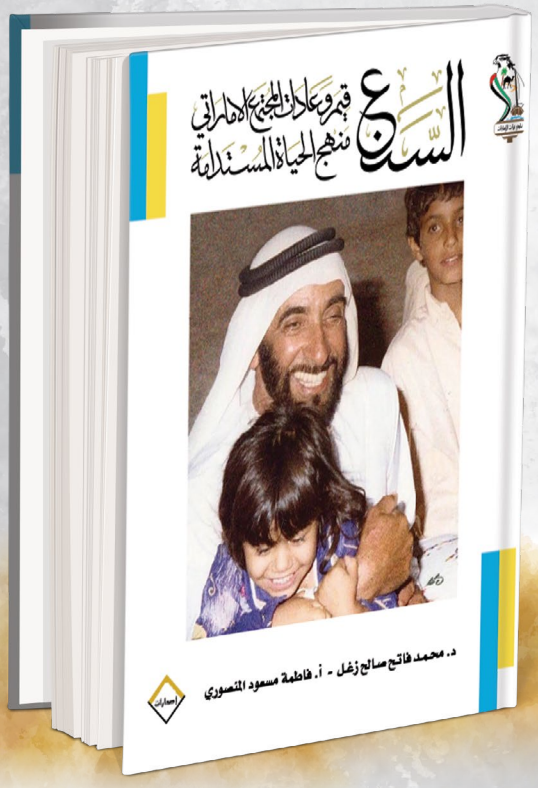

السَّنع
قِيَم وعادات المجتمع الإماراتي
منهج الحياة المُستدامة

كتاب «السَّنع: قِيَم وعادات المجتمع الإماراتي منهج الحياة المستدامة» ينطلق من مقولة المغفور له الشيخ زايد - طيّب الله ثراه - بأنّ «الثروة الحقيقية للأمة هي في رجالها»، وكذلك من مقولة الشيخ محمد بن زايد، رئيس الدولة - حفظه الله: «القِيَم والعادات والأخلاق والتفاني موجودة في كل مواطن وبيت وعائلة». ويُشكِّل هذا الكتابُ مساهمةً رائدة في مقاربة السَّنع الإماراتي بوصفه منهجَ حياةٍ إماراتيّةٍ مستدامة. ويأتي الكتاب في مقدمة، وثلاثة أبواب، وخاتمة. يتناول الباب الأول بفصلَيْه مفهومَ التراث الشعبي؛ أدباً وألغازاً وأهازيجَ ومأثوراتٍ وفنوناً وعاداتٍ وتقاليدَ ومعتقداتٍ ومعارفَ شعبيةً. كما يقف على التراث بوصفه هويّةً ثقافيةً للأجيال، مُذكِّراً بالموقف الرسمي للدولة ومؤسساتها وموقف الشعب الإماراتي من التراث. ويتطرق الباب الثاني بفصوله الثلاثة إلى أهميّة السَّنع الإماراتي في بناء شخصية الإنسان الإماراتي، وإلى قواعد السنع في الكلام والسلوك؛ فهي جميعاً تَدعو إلى الرجولة وما يرتبط بها من مفاهيم جوهرية كالاحترام والإخلاص وغيرهما، وما لذلك كلِّه من آثار إيجابية على الفرد والأسرة والمجتمع قاطبةً. ويقف عند الشعر الشعبي وفارسه الشيخ زايد، وكذلك عند شعراء الحكمة الإماراتيين. ويُخصَّصُ البابُ الثالث للحديث عن القوة الناعمة الإماراتية بوصفها من منجزات السَّنع - التاريخ والأصالة وآفاق المستقبل، والدعوة إلى التسامح ووثيقة الأخوّة الإنسانيّة وغيرها.